المخطوط العربي

مجلّة علميّة نصف سنويّة تُعنى بالمخطوطات وتحقيقها
وتاريخ العلوم عند العرب

العدد (٤) النصف الثاني ٢٠٢٢

تصدُرُ عن وزارة الثّقافة - الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب

المخطوط مرآة حضارة الدكتورة لُبانة مشوّح وزيرة الثقافة	٢
التَّجنيس وحَلْيُ العروس رئيس التحرير	٤
مواد البناء المعدنية في المخطوطات العربية د. مها الشعار	٦
المعدن الذي حيّر العلماء الزئبق في التُّراث العربيّ د. بثينة جلخي	٢٣
الرقابة الطبية وأدب الطبيب في الحضارة العربية ساره حسوني	٣٨
طرائق البرهان الرياضي في المخطوطات العربية د. مصطفى موالدي	٥٥
فنُّ الإدارة في الفكر العربي الإسلامي نبيل تللو و سوزان أبو حمزة	٦٧
تَعَدُّدُ عنوانات الكتاب الواحد د. محمَّد قاسم	٨١
منزلةُ عِلْمِ التَّاريخِ بينَ العُلُوم د. عبَّاس مِرْهج فرج	٩٢
نظرةٌ في كتابِ «ثِمَارُ القلوبِ في المُضَافِ والمَنْسُوب» د. ليال سعيد أبو العزّ	١٠٣
نَظَرَاتٌ في ديوَانِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي (ت ٣٥٤هـ) بشَرْحِ الوَاحِدِيّ (ت ٤٦٨هـ) د. إبراهيم محمَّد المحمود	١١٥
كليلة ودمنة شعراً بيان الصفدي	١٢٥
الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي لمؤلِّفه أحمد بن عليّ بن عمر بن صالح المنينيّ (ت ١١٧٢هـ) د. ناهد حسين	١٣٠
إشكالية الشر عند المعتزلة د. هنى محمد الجزر	١٤٣
أحمد راتب بن فارس النّفّاخ د. محمّد عطا موعد	١٥٤
آخر الكلام: من سقطات العلماء د. محمَّد قاسم	١٦٣

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
نايف الياسين

رئيس التحرير
محمد قاسم

هيئة التحرير
مزيد إسماعيل نعيم
محمد شفيق البيطار
عبد الناصر عساف
إياد الطباع
هبة المالح

التدقيق اللّغوي
محمد قاسم
أمينة سر المجلة
ياسمين الناصر
الإشراف الطباعي
أنس الحسن
الإخراج الفني
عبد العزيز محمد

المراسلة باسم السيد رئيس التحرير
Emai: syrbook.dg@gmail.com

السعر : ٢٥٠٠ ل.س أو ما يعادلها

الدكتورة لُبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

المخطوط مرآة حضارة

وجد المخطوط في حياة البشر حين برزت حاجتهم إلى التدوين والتوثيق والنشر، ويبدو أنها حاجة قديمة قدم نشوء الحضارة وما رافقها من قيام نشاطات تجارية وقواعد تنظّمها وتنظّم العلاقات الاجتماعية، ومن صدور شرائع، وتفتح القريحة عن إبداعات أدبية. يكاد المخطوط إذن يكون مرآة الحضارات البشرية قبل اختراع الطباعة.

من أقدم المخطوطات المكتشفة مخطوط أدبي يعود إلى عام ١٨٠٠ ق.م وجد في معبد الكرنك شمال مدينة الأقصر. كتب المخطوط بالهيروغليفية الهيراطية

على ورق البردي. طوله أكثر من سبعة أمتار. أطلق عليه مخطوط بريس تيمناً بعالم الآثار إيميل بريس دافين الذي كان يعمل إلى جانب عالم الآثار الشهير شامبليون في إحدى بعثاته التنقيبية في مصر (١٨٤٣-١٨٤٤). تقول الرواية إن بريس اشترى المخطوط من شخص الأرجح أنه وجده في موقع التنقيب نفسه، وكغيره من الآثار الفرعونية، انتقل المخطوط بقدرة قادر إلى أوروبا لينضم منذ عام ١٨٤٥ إلى مجموعة المخطوطات الأثرية في المكتبة الوطنية الفرنسية، ولا يزال محفوظاً هناك.

أمّا المخطوطات العربية فقد تزامنت بداية العهد بها، كما هو معلوم، مع بداية عصر تدوين العلوم جميعاً، ولا سيما علوم السنّة وفقه الصحابة والأئمة الأربعة، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وحساب وفلك...إلخ. وتزايدت الحاجة إليها مع اتساع رقعة الدولة والتهافت على تحصيل العلم واكتساب المعارف، فكان لا بد من حفظ تلك العلوم ونشرها.

أمّا حفظ تلك الكنوز فيقتضي تحقيقها بدءاً من العنوان وانتهاءً بمتن الكتاب والتمييز بين المخطوط الأم والمخطوط المنسوب، والمبهم والمصور... مروراً باسم المؤلف وصحة نسبة المخطوط إليه، وما يتطلبه ذلك كله من مطابقة خط العنوان مع خط المتن، والتثبت من اسم المؤلف بمقارنة النسخ، والتدقيق في تاريخ التأليف ومدى موافقته لسيرة المؤلف... فضلاً عن التحقق من موافقة المادة العلمية للفترة التي عاش فيها المؤلف.

باختصار...إن تحقيق المخطوط عمل بحثي متأنٍّ شاقّ لا يجوز أن يوكل إلّا إلى من هم أهل له من أصحاب الاختصاص، ولا بدّ من تقدير جهودهم التحقيقية الحميدة الرامية أولاً إلى الحفاظ على كنوز لا تقدر بثمن بدقة وأمانة علمية.

التَّجنيس وحَلْيُ العروس

رئيس التحرير

الجناس التَّامُّ: أَنْ يتّفق اللَّفظان في أنواع الحروف وفي أعدادها وفي هيئاتها وفي ترتيبها، فإنْ كان أَحَدُ لَفْظَيْه مُرَكَّبًا والآخر مُفْرَدًا سُمِّيَ جناسَ التركيب، فإنِ اتَّفَقَ اللَّفظان المُفْرَدُ والمُرَكَّبُ في الخَطِّ خُصَّ هذا النَّوْعُ من جناس التَّركيب باسم المُتَشَابه لاتِّفاقِ اللَّفْظَيْن في الكتابة.

ومن لطائف أمثلة الجناس التّام قَوْلُ الحاكم أبي سعد عبد الرَّحمن بن محمَّد بن دُوْسْتَ يرثي أبا منصور عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل الثَّعالبيَّ النَّيْسَابُوْرِيَّ المتوفَّى سنة ٤٢٩ هـ:

كان أبو منصورٍ الثَّعلبي ... أَبْرَعَ في الآداب من ثَعْلَب
ليت الرَّدى قدّمني قَبْلَهُ ... لكنَّهُ أَرْوَغُ من ثَعْلَب
يطعنُ مَنْ شاءَ من النَّاس بالـ ... ـمَوْتِ كطَعْنِ الرُّمْحِ بالثَّعْلَب

الثّعلبيّ: الثَّعَالبيُّ المَرْثِيُّ، ونَبْزُهُ بالثَّعلبيِّ أَقْيَسُ مِنَ الثَّعالبيّ، وهي مهنة خياطة جلود الثعالب وبيعها، وكانتْ لأبيه أَوْ جدِّه، فقد قال في كتابه آداب الملوك ٤٧: «**سمعتُ جدّي أبا عليٍّ الثَّعلبيَّ يقول...**».

ثعلب في البيت الأوَّل: أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ)، من كبار أئمّة اللُّغة والنَّحو، صاحب «**الفصيح**». وفيات الأعيان ١/١٠٢.

ثعلب في البيت الثّاني: السَّبُعُ الجَبَانُ المستضعف، ذو المكر والخديعة، لكنَّه لفرط خبثه أُجري مع كبار السِّباع، ومن كُنَاهُ: أبو الحُصين، وأبو النَّجم، وأبو نوفل، وأبو الوَثَّاب، يُضْرَبُ المَثَلُ برَوَغَانِه وخُبْثِه ومكره وحيلته ودهائه؛ قال طرفة:

كم من خليلٍ كنتُ خالَلْتُهُ ... لا تَتْرُكَ اللهُ لَهُ واضِحَهْ
كُلُّهُمْ أَرْوَغُ من ثَعْلَبٍ ... ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بالبارِحَهْ!

الثَّعلب في البيت الثَّالث: طرف الرُّمح الدَّاخل في جُبَّة السِّنان، والجُبَّةُ من السِّنان: الجزء الذي دخل فيه الرُّمح؛ قالوا: وتمكَّنَ فيه تَمَكُّنَ الثَّعلب في الجُبَّة: أي رأس الرُّمح في أسفل السِّنان، واندسَّ في جُبَّته كما يندسُّ الثَّعلبُ في جُبَّته.

فانظر إلى ما وُفِّقَ فيه أبو سعد من اجتلاب التجنيس الذي به كَلِفَتِ النُّفوس، وتنزَّل من الكلام منزلة الحَلْي من العروس كما نَقَلَ صاحب نظم الدّرّ والعقيان ١٩٦.

ومن أعيان هذا الفَنِّ الذين لهم فيه كلُّ مصال أبو الفتح عليّ بن محمَّد الكاتب البُسْتِيّ (نسبة إلى بُسْتَ في أفغانستان اليوم، إلى الغرب من مدينة قندهار) المتوفَّى في بُخَارى نحو سنة ٤٠٠ هـ.

قال أبو منصور في ترجمته من مدوَّنته الضَّخْمَة يتيمة الدَّهر:

«صاحب الطريقة الأنيقة في التَّجنيس الأنيس، البديع التَّأسيس، وكان يسمّيه «**المُتَشَابه**»، ويأتي فيه بكلِّ طريفةٍ لطيفةٍ، وقد كان يبلغني مِنْ شعره العجيبِ الصَّنْعَةِ البديعِ الصِّيغة:

مِنْ كلِّ مَعْنًى يكادُ المَيْتُ يَفْهَمُهُ ... حُسْنًا ويعبدُه القرطاسُ والقَلَمُ

= ما أراه فأرويه، وألحظُه فأَحْفَظُهُ»اهـ

وأَلْمَعَ أبو منصور في ترجمة أبي محمَّد شُعبة بن عبد الملك البُسْتِيّ إلى أنَّ شعبة هذا مَنْ أَغرى أبا الفتح بانتحاء هذا اللّون من التَّجنيس؛ قال:

«سمعتُ أبا الفتح البُسْتِيَّ يقول: لمَّا أنشدني شُعبةُ قَوْلَهُ:

فَدَيْتُ مَنْ زارني على حَذَرٍ ... من الأعادي وقَلْبُهُ يَجِبُ

فلو خَلَعْتُ الدُّنيا عَلَيْهِ لما ... قضيتُ مِنْ حقِّه الذي يَجِبُ

= استحسنتُهُ، وأنا إذْ ذاك في زمان الصِّبا، فأخذتْ نَفْسي سلوكَ طريقته في «**المُتَشَابه**»، حتَّى قلتُ ما قلتُ»اهـ

يجب الأولى: يخفق، والثانية: يتعيَّن.

أُولع أبو الفتح بالتَّجنيس ولعًا أيَّ وَلَعٍ، واستفرغ فيه قريحته، حتّى صار علمًا عليه، واقتفى النّاس قَفْوَهُ، وسلكوا مسلكه، حتَّى اختلطت أشعار مَنْ حاكاه بشعره، إذ صار الشِّعر الذي قِوَامُهُ «**المُتَشَابه**» لا يكاد يُنْسَبُ إلى غيره.

ومِن أبيات أبي الفتح السّيّارة في كتب البلاغيين:

إذا مَلِكٌ لم يكنْ ذا هِبَه ... فدَعْهُ ، فدَوْلَتُهُ ذاهِبَهْ

وهذا نَظْمُ قَوْلِهِ: **البُخْلُ سُوْسُ السِّياسة**.

ومنه:

يا مَنْ أعاد رميمَ المُلْكِ مَنْشُورا ... وضمَّ بالرَّأْيِ مُلْكًا كان مَنْشُورا

أنتَ الأميرُ وإنْ لَمْ تُؤْتَ مَنْشُورا ... والأمرُ بعدَك إنْ لَمْ تُؤْتَمَنْ شُوْرَى

لا زال قَلْبُكَ للزُّوَّارِ مَنْشُورا ... وصَدْرُ قاليكَ بالمنشارِ مَنْشُورا

ومنه:

لقاءُ أكثرِ مَنْ يَلْقاك أَوْزَارُ ... فلا تُبَالِ أَصَدُّوا عَنْكَ أَوْ زَارُوا

لهم لديكَ إذا جاؤُوك أوطَارُ ... فإنْ قَضَوْها تَنَحَّوْا عَنْكَ أَوْ طَارُوا

أخلاقُهم فتَجَنَّبْهُنَّ أَوْعَارُ ... ووَصْلُهم مَأْثَمٌ للمَرْءِ أَوْ عَارُ

ومهما قيل في هذا الفَنِّ البديعيِّ من أَنَّهُ صناعةٌ لفظيَّةٌ خالصةٌ، وتلاعبٌ بالكلمات واجتلابٌ لها وزَجُّها في غَيْرِ مقامها، وأَنَّ هذا جَوْرٌ على المعنى وقلَّةُ حَفْلٍ به، وأَنَّهُ من أَضيق أبواب البديع، وأَنَّهُ لا يَعْرى من التَّكلُّف، وأنَّ الفحول من متقدِّمي الشُّعراء أعرضوا عنه = لم يكنْ حقًّا إنكارُ ما يُضفيه على السِّياق من إيقاعٍ لطيفٍ وجمالٍ طريفٍ، وما يحملُه من ذكاء البَيَانِ الذي يُشَبِّبُ العَقْلَ، ويتوهَّج به الحسُّ، ولأمرٍ مّا قال الحريريُّ في المقامة البغداديّة على لسان صاحب الشّرطة: «إنّي مُوْلَعٌ من أنواع البلاغة بالتجنيس، وأراه لها كالرّئيس».

مواد البناء المعدنية في المخطوطات العربية

د. مهـــا الشـــعار*

أولًا–مقدمة:

علـم مواد البناء من العلوم الأساسـية في مجال الهندسـة المدنية، وهو قديم قدم الإنسـان، فقد دفعت الإنسـان رغبتـه في إنشـاء سكـن خاص بـه من صنـع يديه لاستعمـال ما توفـر حوله من مـواد طبيعية (الأحجـار، والطـين، والخشب)، لكـن اكتشافه للمعـادن غيّر معالم حياتـه وأساليب عيشـه، لذا سُميت العصور الذي تلت العصر الحجري بأسماء المعادن التي شاع استخدامها، فهناك عصر النحاس، وعصر البرونز، وعصر الحديد[1].

إن مزايـا هـذه المعادن (القساوة، وسهولة تشكيلها عند انصهارهـا، ومقاومتها للعوامل الجوية، ...) جعلت الإنسان يحاول استعمالها في التشييد والبناء رغم صعوبة التعامل معها، حتى باتت مادة من مواد البنـاء المتعارف عليها عبر العصـور، وتساعدنا المخطوطات العربية التي ذكرت بعضًا من المنشآت التي دخلـت المعادن في عناصرها المعمارية، واعتبرتها مـن عجائب المباني في تتبع تطور تقنية استخلاص هذه المعادن، وتعدد أساليب استعمالها في التشييد والبناء.

* أستاذ مساعد في معهد التراث العلمي العربي–جامعة حلب.

١– الجادر وليد، «صناعة التعدين»، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج٢، الفصل السابع، ص٢٤٠.

ثانيًا-خصائص المعادن المستعملة في البناء:

• معدن النحاس:

يُعدّ النحاس من أقدم المعادن التي عرفها الإنسان أثناء بحثه المبكر عن الأصباغ لتلوين رسوماته وأدواته، وذلك لسهولة الحصول عليه، إذ كان يُعثر عليه بالقرب من سطح الأرض مختلطًا بمواد أخرى يمكن صهرها وفصلها عن النحاس بمجهود يسير[٢]، وفي وجود حرارة ليست شديدة جدًا[٣]، وأهم خامات النحاس الموجودة في الطبيعة هي:

- الأزوريت (كربونات النحاس الزرقاء): وهي مادة ذات لون أزرق غامق جميل، تتكون عادة نتيجة تفكك كبريتيد النحاس ثم تأكسده، ويكون عادة على سطح الأرض، لذا كان من السهل الكشف عنه واستخراجه.

-الملاخيت (كربونات النحاس الخضراء): وهو مركب لونه أخضر يشبه الأزوريت في تركيبه، إذ ينشأ أيضًا عن تفكك كبريتيد النحاس ثم تأكسده.

يتميز النحاس بعدة مزايا:

١- قابليته العالية للطرق: أي سهولة التشكيل، فهو لا يتشقق عند الطرق أو الضغط أو التشكيل، ويمكن تشكيله على البارد أو الساخن، ويمكن لفه على شكل ألواح.

٢- اللدونة: أي القابلية للسحب لأسلاك رفيعة دون أن ينكسر.

٣- مقاوم التآكل: فهو لا يصدأ، ويتغير في الهواء الرطب، وبعد التعرض الطويل للرطوبة يغطّي المعدن غشاء أخضر يسمى الزنجار يحميه من مزيد من التآكل[٤].

جرتْ طريقة تصنيع النحاس في المنطقة العربية منذ الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد الرافدين على يد السومريين، وكذا جرتْ تنقية النحاس وصهره في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد[٥]، وعرفه المصريون القدماء منذ عصر ما قبل الأسرات المبكر[٦]، وقد وُجد النحاس في جنوب شرق الجزيرة العربية على ساحل المحيط الهندي في حضر موت، وبكثرة في عُمان؛ إذ ذكرت المصادر الآشورية أن الملك لوجال أندا قد استورد شحنات من النحاس من ماجان -أي عُمان قديمًا التي تعني جبل النحاس- لصناعة تماثيل له[٧]، وبقايا الأفران المستخدمة في استخلاص النحاس في نجران تؤكد تعدين النحاس هناك[٨]، وقد ساعدت خواصه على انتشار استعماله انتشارًا كبيرًا، فبالرغم من إمكانية صقله كأي حجر عادي باستعمال كتل للحك كان من غير الممكن انكسار شظايا منه كحجر الصوان، وقد اكتشف الإنسان أنه عند محاولة كسر شظايا منه فإن المعدن ينحني ويبقى على هذه الحال، ولكن يمكن طرقه للشكل المطلوب[٩].

٢- عامر جمال سليمان علي، الحرف والصناعات اليدوية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى، قسم شبه الجزيرة العربية، ص٢٦ وما يليها.

٣- هودجز هنري، التقنية في العالم القديم، ترجمة رندة قاقيش، مراجعة محمود أبو طالب، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٧.

٤- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٢٥، حرف النون، مادة «النحاس»، ص٢٥٤ وما يليها.

٥- كجه جي صباح إسطيفان، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، ٢٠٠٢م، ص٣٢.

٦- لوكاس ألفريد، المواد والصناعات عند قدماء المصريين. ترجمة زكي إسكندر ومحمد زكريا غنيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣٢٧.

٧- لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين. ص٢٧.

٨- لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ٢٨ص.

٩- هودجز، التقنية في العالم القديم، ص٥٧.

• الحديد:

الحديد فلز فضي اللون، يندر وجوده خالصًا في الطبيعة رغم وجود مركباته بكثرة، وللحديد الخام مصدران مختلفان، الأول على هيئة حبيبات صغيرة في الصخور البركانية، والثاني على شكل قطع صغيرة في الصخور المتساقطة من السماء (الشهب).

تأخر استعمال الإنسان لمادة الحديد لأنه لا يمكن تشكيله بالطرق إلا وهو ساخن عند درجة حرارة ٨٠٠–٩٠٠ درجة مئوية عكس النحاس الذي يمكن طرقه وهو بارد، ويحتاج الحديد لدرجة حرارة تصل ١٥٣٠ درجة مئوية ليكتسب سيولة تسمح بصبه في قوالب، وليس بالإمكان الوصول لهذه الدرجة العالية إلا في الفرن العالي الذي بُني في القرن الرابع عشر بعد الميلاد، لذا لم يكن من الممكن جعل الحديد صالحًا للصب قديمًا[١٠].

بُدئ باستخدام الحديد منذ القديم، ويُعتقد أن الناس استخدموه قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة، وكانت بداية الاستعمال باستخدام حديد النيازك الحر غير المتحد بمعادن أخرى، ثم بدأت عمليات استخلاص الحديد من خاماته تنمو وتتطور في أماكن متفرقة من العالم، ولا سيَّما فيما يعرف بمناطق الشرق الأوسط والصين والهند، ويتميز معدن الحديد بأنه يمكن طرقه وتحويله إلى ألواح، وسحبه لصنع أسلاك دقيقة[١١].

• الرصاص:

الرصاص عنصر كيمائي ثقيل، من أقدم الفلزات المعروفة في العالم، الخام الرئيس لمعدن الرصاص يدعى الجالينا الذي يتألف من الرصاص والكبريت فقط وغالبًا ما يحتوي الخام على النحاس والذهب والفضة، ويتميز الرصاص بأنه لين أو رخو، كما أن متانته قليلة، وهو قابل للطرق لذا يمكن طرقه في شكل صفائح رقيقة، ويتميز الرصاص باللدونة وقابليته للمط، أي القدرة على تحمل الشد الدائم أو الثابت دون أن ينكسر، ويقاوم الرصاص التآكل بفعل الماء أو حمض الكبريتيك أو المواد الكيميائية القوية الأخرى، ينصهر عند درجة حرارة ٣٢٧,٥ درجة مئوية[١٢].

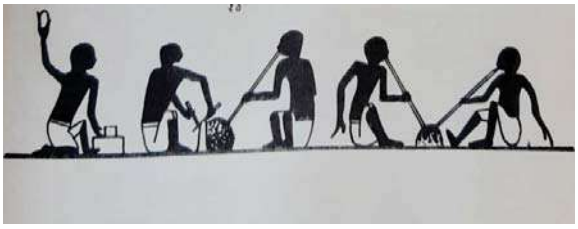

الصورة (١): رسم مصري عثر عليه في مدفن مصري عملية تسخين المعادن في مصهر معادن، إذ ترفع فيها الحرارة لدرجة مناسبة عن طريق النفخ على النار باستعمال أنابيب خشبية أو من القصب.

ثالثًا–استعمال المعادن في التشييد:

من الصعب تتبع تطور استعمال المعادن في التشييد قديمًا، لكن تساعدنا النصوص الواردة في المخطوطات العربية القديمة في معرفة أهم هذه الاستعمالات:

سد يأجوج ومأجوج:

ربما كان أول ذكر ورد لاستعمال المعادن إنشائيًا جاء في القرآن الكريم في سورة الكهف عندما وردت قصة السد الذي بناه ذو القرنين من لبنات صنعها من الحديد، وربط بينها بالنحاس المذاب ليحجز أقوامًا كانت تؤذي جيرانها بشكل كبير سماهم القرآن الكريم بـ (يأجوج ومأجوج).

١٠– لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ص ٣٨١ وما يليها.

١١– مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج٩، حرف الحاء، مادة «الحديد»، ص١١١ وما يليها.

١٢– مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج١١، حرف الراء، مادة «الرصاص»، ص٢٣٠ وما يليها.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾[١٣].

ونجد وصفًا دقيقًا للسد في مخطوطة أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي عندما تحدث عن كورة الخزر الواقعة في إقليم الديلم: «وأما الخزر فإنها كورة واسعة، بآخرها سد يأجوج ومأجوج»[١٤]، وقد ذكر أن ما سيورده من معلومات نقلها من كتاب ابن خُرْدَاذَبه وغيره في قصة هذا السد: «حدثني سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى في المنام أن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوح، وجهني وقال لي: عاينه وجئني بخبره»[١٥]، ثم يتابع سلام الترجمان في وصف مراحل رحلته عبر البلدان إلى أن يصل إلى أرض الخزر[١٦] ومسيرته في أراضيها لمدة طويلة من الزمن زادت على ٦٥ يومًا حتى وصل إلى السد.

١٣- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات ٩٢-٩٧.

١٤- المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٧م، ص٣٥٥.

١٥- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٣٦٢

١٦- بلاد الخزر: كانت تضم روسيا الحالية وغرب قزخستان، أوكرانيا الشرقية، أذربيجان، وأجزاء كبيرة من شمال القوقاز (شركسيا وداغستان)، وأجزاء من جورجيا والقرم وشمال شرق تركيا.

خريطة توضح موقع بلاد الخزر

يقول سلام الترجمان إنه وصل إلى: «جبل أملس ليس عليه خضراء، وإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مئة وخمسون ذراعًا (٨٠م)، وإذا عضادتان[١٧] مبنيتان مما يلي الجبل من جنبي الوادي، عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعًا (١٣،٣م) الظاهر من تحتها عشر أذرع (٥،٣م) خارج الباب، وكله مبني بلبن حديدٍ مُغيب في نحاس في سمك خمسين ذراعًا (٢٧م)، وإذا درونـد[١٨] حديد طرفاه في العضادتين طوله مئة وعشرون ذراعًا (٦٤م) قد رُكب على العضادتين على كل واحد مقدار عشر أذرع (٥،٣م) في عرض خمس (٢،٦٥م)، وفوق الدرونـد بناء بذلك اللبن الحديد في النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر، وفوق

١٧- عضادة: من عضد، وأعضاد كل شيء: ما يُشد حواليه من البناء وغيره، وكذلك عضادتا الباب، وهما خشبتاه من جانبيه.
الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٢هـ)، الصحاح، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، مادة «عضد»، ص٧٧٩.

١٨- درونـد: دَرَوَنْـد (ج) دَرَوَنْـدَات [عامة]: كلمة أصلها تركي، وتعني باب المخزن التجاري المتحرك والمنازل من أعلى إلى أسفل، غلق الطاقة ودروند الدكان، لبادة، لبود، درفة، دربند، غلق الدكان، مصيدة.
قاموس ومعجم المعاني، https://www.almaany.com

ذلك شرف[١٩] حديد، في طرف كل شرفة قرنان ينثني كل واحد إلى صاحبه، وإذا باب حديد بمصراعين مغلقين، عرض كل مصراع خمسون ذراعًا (نحو ٢٧م) في ارتفاع خمسين ذراعًا (٢٧م) في ثخن خمس أذرع (٢,٦٥م)، وقامتاهما في الدروند على قدره، وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع (٣,٧م) في غلظ باع[٢٠] (نحو ٢م) في الاستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعًا (١٣,٥م)، وفوق القفل نحو خمس أذرع (٢,٦٥م) غلقٌ طوله أكثر من طول القفل، وقفيزاه كلٌّ واحدة منهما ذراعان، وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف (٠,٨م)، له اثنا عشر دندانكة[٢١]، كلّ دندانكة كيد أعظم ما يكون من الهواوين[٢٢] معلق من سلسلة طولها ثماني أذرع (٤,٢م) في استدارة أربعة أشبار[٢٣]، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلق المنجنيق، وارتفاع عتبة الباب عشر أذرع في سمك مئة ذراع سوى ما تحت العضادتين، والظاهر منها خمس أذرع، وهذا الذرع كله بذراع السواد[٢٤]، ...، ومع الباب حصنان سعة كل واحد مئتا ذراع، وعلى باب هذين الحصنين شجرتان، وبين الحصنين عين عذبة، وفي أحد الحصنين آلة البناء التي بُني بها السد من قدور الحديد والمغارف، ...، وهناك بقية من اللبن الحديد قد التصق بعضه ببعض من الصدأ»[٢٥].

وقد أورد ياقوت الحموي قصة السد في مخطوطته معجم البلدان، فذكر أن ذا القرنين أمر القوم الذين طلبوا مساعدته: «بالحديد فأذيب، وضرب منه لبنًا عظامًا، وأذاب النحاس، ثم جعل منه ملاطًا لذلك اللبن، وبنى به الفج، وسواه مع قلتي الجبل، فصار شبيهًا بالمصمت»[٢٦].

إن تذويب الحديد وتحويله إلى لبنات ضخمة يعني أن تقنية الحصول على درجة حرارة تصل إلى ١٥٣٠ درجة مئوية ليكتسب سيولة تسمح بصبه في قوالب كبيرة كانت معروفة في ذلك الوقت، لكن ذكرنا سابقًا أن هذه التقنية لم تُعرف قبل القرن الرابع عشر بعد الميلاد عند اختراع الفرن العالي، ولم يرد أي ذكر في القرآن الكريم أو في المخطوطات العربية عن كيفية صهر الحديد أو الأدوات التي استعملت في هذه العملية، كما لم نجد أي ذكر لاستعمال الحديد للبناء والتشييد بعد ذلك، مما يجعلنا نخمن أنه ربما كان

١٩- شُرَف: جمع شرفة، والشرف بتشديد الشين وفتحها وفتح الراء تعني العلو، وفي المصطلح الأثري المعماري فإن الشرفة هي نهاية الشيء أو حافته، وقد استعملت للدلالة على ما يوضع على أعالي القصور وأسوار المدن ونحوها من العمائر الأثرية الإسلامية، وكانت تعمل من الحجر أو الآجر في العمائر، ومن الخشب أو المعدن في الأبواب.

رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٦١.

٢٠- باع: وحدة قياس طول، تعادل ١,٩٧م.

فاخوري، محمود وخوام، صلاح الدين، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢م، مادة «باع»، ص ٩٤-٩٥.

٢١- دندانكة: ربما كلمة فارسية الأصل، من دندانه كل شيء شبيه بالأسنان مثل أسنان المنشار، مُسنن.

كسرائي شاكر، قاموس فارسي عربي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، بيروت، لبنان، حرف «د»، مادة «دندانه»، ص٢٣٩.

٢٢- الهواوين: جمع هاون، وعاء مجوف من الحديد أو النحاس يدق فيه.

مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، حرف الهاء، مادة «هان»، ص١٠٠١.

٢٣- شبر: وحدة قياس طول، تعادل ٢١,٩ سم.

فاخوري، وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مادة «شبر»، ص١٣٩.

٢٤- ذراع السواد: وحدة قياس طول، وتعادل ٥٣,٢٠٧ سم.

فاخوري، وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مادة «ذراع سوداء»، ص١٠٧ وما يليها.

٢٥- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٦٢ وما يليها.

و ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، مج ٣، حرف السين، مادة «سد يأجوج ومأجوج»، ص ص١٩٧ -١٩٨.

٢٦- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٣، حرف السين، مادة «سد يأجوج ومأجوج»، ص١٩٧.

ذو القرنين هو الذي علم هؤلاء الأقوام كيفية صهر الحديد وتحويله إلى لبنات ضخمة ليستفيد من صلابة الحديد وقساوته العالية في بناء جدارٍ لا يستطيع أقوام (يأجوج ومأجوج) ثقبه إلى أن يشاء الله تعالى.

وقد استفاد من النحاس كمادة رابطة بين لبنات الحديد مستفيدًا من متانته ومقاومته للتآكل وقدرته على التشكل بأشكال معقدة.

حائط (سور) مدينة باب الأبواب:

تقع مدينة باب الأبواب أو دَربَند (بالفارسية) أو ديربينت (بالروسية) على الساحل الغربي لبحر قزوين بالقرب من مصب نهر سامور في البحر، وهي ضمن الحدود الإدارية لجمهورية داغستان، أسست المدينة بشكلها الحالي عام ٤٣٨م في عهد السلالة الساسانية؛ إذ حولها الشاه كوادا وابنه كسرى الأول إلى قلعة حجرية تُغلق الممر بين البحر والسلسلة الجبلية بجدار طوله ٤٠ كم، وشيدا حصن نارين، وتم إنشاء المرفأ.

شُيدت المدينة في الممر الفاصل بين بحر قزوين وسلسلة جبال القوقاز، ولقد حاولت كلّ الدول التي حكمت في المنطقة السيطرة على هذه المدينة الممر، فاليونانيون أطلقوا على هذا الممر اسم «الممر الألباني»، والروم «بوابة الخزر»، أما العرب فسموه «باب الأبواب»، ولا يوجد أي مكان آخر على طول سلسلة جبال القوقاز قريب من البحر كموقع المدينة الفريد، لهذا فإن اسم المدينة مشتق من كلمتين فارسيتين «دار» وتعني بوابة، و«بيند» وتعني القفل أو العقدة. ووصف آلكسندر ديوما في كتابه رحلة في القوقاز سور المدينة بأنه حقًّا جدار ضخم يفصل بين أوروبا وآسيا[٢٧].

٢٧- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «دربند (روسيا)»، https://ar.wikipedia.org/

تقع المدينة على الحدود بين بلاد فارس وبلاد الخزر، ذكرها القزويني في مخطوطته آثار البلاد وأخبار العباد، فقال: «مدينة عجيبة على ضفة بحر الخزر، مبنية بالصخور، وهي مستطيلة يصيب ماء البحر حائطها، طولها مقدار ثلثي فرسخ[٢٨] (نحو ٤كم)، وعرضها غلوة سهم[٢٩] (٢٣٦,٧م)، ... بناها أنوشروان كسرى الخير، وهي أحد الثغور العظيمة، وكانت الأكاسرة شديدة الاهتمام بهذا المكان لعظم خطره وشدة خوفه، وحكي أن الخزر كانت تعبر على مُلك فارس منها»[٣٠].

خريطة توضح موقع مدينة باب الأبواب (دربند الآن) في جمهورية داغستان.

٢٨- الفرسخ: وحدة قياس طول، وتعادل ٥,٩١٩ كم.
فاخوري، وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مادة «فرسخ»، ص ١٤٤.

٢٩- غلوة سهم: وحدة قياس طول، وتعادل ٢٣٦,٧٧ م.
فاخوري، وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مادة «غلوة»، ص١٤٣.

٣٠- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ص٥٠٦- ٥٠٧.

ولضمان حماية الحدود عقد أنوشروان كسرى معاهدة مع خاقان ملك الخزر كان نتيجتها أن اتفقا على أن يبني كسرى بينهما حائطًا (سورًا)، ويجعل عليه أبوابًا، فلا يدخل بلاد أحدهما إلا من يريد ملكها، وقد بُني هذا الجدار من الحجارة الضخمة والرصاص الذي جرى صهره واستعماله كمونة رابطة لأحجار البناء مستفيدين من خصائصه، فهو ينصهر عند درجة حرارة منخفضة نسبيًا (٣٢٧,٥ درجة مئوية) مقارنة مع درجات انصهار المعادن الأخرى، وهو مقاوم للتآكل بفعل الماء والمواد الكيميائية القوية الأخرى.

وربما كان وجود المدينة على ضفة البحر من أهم الأسباب التي دفعت كسرى لاستعمال الرصاص كمونة بدلًا من المونة المعروفة في البناء، فالهواء ذو الرطوبة مرتفعة والمشبع بالأملاح له أثر تخريبي كبير على المونة التقليدية، إذ تعمل الرطوبة المرتفعة على إذابة الأملاح ونقلها، وعلى توفير الظروف الملائمة لنمو الكائنات الحية الدقيقة، كما تعمل الرطوبة على إحداث إذابة جزئية للجبس والجير المستخدم عادة في ربط كتل الحجارة في المباني، مما يؤدي إلى تفتتهما، كما تؤدي الرطوبة إلى ازدياد حجم المونة نتيجة امتصاصها لبخار الماء الموجود في الجو، فتنشأ ضغوط موضعية في اتجاهات مختلفة تؤدي إلى حدوث شروخ وتشققات في المونة وطبقات الملاط الجبسية[٣١].

ذكر القزويني مواصفات الجدار في مخطوطته قائلًا: «وأقام أنوشروان وشرع في بناء حائط من الصخر والرصاص، وجعل عرضه ثلاثمئة ذراع (١٥٠ مترًا تقريبًا)، وعلاه حتى ألحفه برؤوس الجبال ثم قاده في البحر، فيقال: إنه نفخ في الزقاق[٣٢]، وبنى عليها حتى استقرت على الأرض، ثم رفع البناء حتى استوى مع الذي على الأرض في عرضه وارتفاعه، فجعل أحد طرفيه في البحر وأحكمه، وقد مده سبعة فراسخ (نحو ٤١,٤كم) إلى موضع أشب، وهو جبل وعر لا يتهيأ سلوكه، وبنى بالحجارة المهندمة نقل أصغرها خمسون رجلًا، وأحكمها بالرصاص والمسامير، وجعل في هذه الفراسخ السبعة سبعة مسالك، على كل مسلك مدينة، ومدينة باب الأبواب من تلك المدن»[٣٣].

ولا يغيب علينا ملاحظة التقنية التي اتُّبعت في بناء السور (الجدار) في البحر، إذ نُفخت الزقاق، ووضعت في الماء، ثم تم وضع الأحجار عليها صفًا فوق صف، والزقاق تغوص في الماء تدريجيًا حتى وصلت إلى قعر البحر، ومن المؤكد أنها تمزقت عندما وصلت إلى قعر البحر نتيجة الضغط الهائل المطبق عليها من وزن الجدار، وبذلك ضمن البناؤون رسو أحجار الجدار المتراصة على قعر البحر بهدوء وثبات.

الشادروان في مدينة تستر:

مدينة تستر (شوشتر بالإيرانية) مدينة إيرانية تقع شمال مدينة الأحواز في محافظة خوزستان، وتبعد عنها نحو ٨١ كيلومتر، وتوجد على هضبة، ويمر منها أطول نهر في محافظة خوزستان، وهو نهر كارون، ويقع قرب المدينة نظام تستر الهيدروليكي التاريخي، وهو مدرج على قائمة اليونسكو للتراث العالمي منذ

٣١- المحاري سلمان أحمد، حفظ المباني التاريخية، المركز الدولي لدراسة وصون وترميم الممتلكات الثقافية (إيكروم)، الشارقة، ٢٠١٧م، ص١١٤.

٣٢- الزقاق: جمع زقّ، وعاء من الجلد يجز شعره ولا ينتف، للشراب وغيره.

مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، حرف الزاي، مادة «زقّ»، ص٣٩٦.

٣٣- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٠٨.

عام ٢٠٠٩ [٣٤]، وأشارت إليه اليونسكو على أَنَّهُ تحفة من الإبداع الخلاق.

يتألف نظام الري فيها من سدود وقنوات وأنفاق ودواليب مائية، ويعود زمن بناء هذا النظام إلى عهد الساسانيين، ويتضمن المشروع قناتي تحويل تنقلان المياه من نهر الكارون (قارون)، وواحدة من هاتين القناتين ما زالت تستخدم حتى اليوم لتزويد مدينة شوشتر بالمياه[٣٥].

تذكر المخطوطات العربية أن الملك الساساني سابور ذا الأكتاف (شابور الثاني ٣٠٩- ٣٧٩م) بنى شادوران[٣٦] خارج تلك المدينة بالصخر والحديد والرصاص لتخزين المياه أمامه حتى يرتفع ويعلو، ثم ينسكب من فوق الشادروان لينزل إلى قناة تدخل إلى المدينة، وقد بلغ طول هذا الشادروان نحو (١٩٧٣م).

خريطة توضح موقع مدينة تستر في إيران.

٣٤- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «تستر»، https://ar.wikipedia.org/

٣٥- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «نظام شوشتر الهيدروليكي التأريخي»، https://ar.wikipedia.org/

٣٦- شادروان: كلمة فارسية الأصل بمعنى ستار كبير، وسد في وجه النهر.

رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، حرف الشين، مادة «شادروان»، ص١٥٧.

وقد صنفه شيخ الربوة في مخطوطته «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» من عجائب المباني لضخامته وكبر حجمه، فقال: «ومن المباني العجيبة شادروان تستر بناه سابور ذو الأكتاف بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص، جعله سكرًا[٣٧] يربو الماء عنده إذ وصل إليه من نهر دجيل حتى يطفو عليه، ويدخل المدينة، وطول هذا الشادروان ميل[٣٨]»»[٣٩].

٣٧- السِّكْر: (ج) سكور، ما يُسد به النهر ونحوه- المسناة- كل ما يُسد به من شق أو بثق.

مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، حرف السين، مادة «سكر»، ص٤٣٨.

٣٨- ميل: وحدة لقياس الطول، وتعادل ١٩٧٣,٠٩م

فاخوري، وخوام، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مادة «ميل»، ص ١٦٠.

٣٩- شيخ الربوة، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت٧٢٧هـ)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزيك، ١٩٢٣م، يطلب من مكتبة المثنى، بغداد، ص٣٨.

صور من النظام الإروائي التاريخي في مدينة تستر.

دكة القصر في قرميسين:

هي محافظة كرمانشاه الآن، وهي إحدى محافظات إيران التي عدّتها إحدى وثلاثون محافظةً، اشتهرت في العصور الإسلامية الأولى باسم (قرميسين)، يحدها من جهة الشمال محافظة كردستان، ومن جهة الجنوب محافظة إيلام ولرستان، ومن جهة الشرق محافظة هَمَذَان، ومن جهة الغرب العراق[٤٠].

خريطة توضح موقع قرميسين.

ذكر القزويني في مخطوطته آثار البلاد وأخبار العباد أنها بلد صغير امتاز بمناخه اللطيف ومياهه العذبة، فاختاره ملك الفرس قباذ بن فيروز (حكم بين ٤٨٨–٥٣١م) ليبني فيه قصرًا له، وبنى في هذا القصر دكة[٤١] ضخمة مربعة المسقط (٥٠×٥٠م) وارتفاعها (١٠م)، وليضمن المعمار تماسك هذه الدكة ذات الأبعاد الكبيرة فقد وصل حجارتها بعضها ببعضٍ بمسامير حديدية لزيادة التماسك بينها، يقول القزويني: «قرميسين: بُلَيْدٌ بين همذان وحلوان، ذكر ابن الفقيه أن قباذ بن فيروز نظر في بلاده، فلم يجد بين المدائن وبلخ موضعًا أطيب هواء ولا أعذب ماء ولا أصح تربة من قرميسين، فاختاره لسكناه، وبنى به قصرًا يقال له قصر اللصوص، ومن عجائبه الدكة التي كانت به مئة ذراع في مئة ذراع، في ارتفاع عشرين ذراعًا مربعًا، وحجارتها كانت مهندمة مسمرة بمسامير الحديد لا تبين دورز الأحجار منها، ويظن الناظر أنها حجر واحد»[٤٢].

منارة مدينة قسطنطينية:

أُسست مدينة القسطنطينية على يدي الإمبراطور الروماني قسطنطين– ومنه استمدت اسمها– في موقع مدينة بيزنطة السابقة التي كان اليونانيون قد استوطنوها في بدايات فترة توسعهم بين العامين ٦٧١– ٦٦٢ ق. م، ومنذ ذلك الحين أصبحت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ثم عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وعلى مدار معظم تاريخها، كانت القسطنطينية –من دون منازع– المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أوروبا كلها، أو كما كتب أحد البيزنطيين: «المدينة التي يشتهيها العالم»[٤٣].

٤٠– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «كرمانشاه (محافظة)»، https://ar.wikipedia.org/

٤١– دكة: اصطلاح عامي يعني المسطبة والمكان المرتفع وبناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.
رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، حرف الدال، مادة «دكة»، ص١٠٩

٤٢– القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٣٣.

٤٣– مانسيل، فيليب، القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، يوليو ٢٠١٥م، ص ١١.

رسم لمدينة قسطنطينية.

ذكر ابن الوردي في مخطوطته «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» أنه في مدينة قسطنطينية: «منارة موثقة بالحديد والرصاص إذا هبت الريح مالت يمنيًا وشمالًا وخلفًا وأمامًا من أصلها، ويوضع الخزف تحتها، فتطحنه كالهباء، وفيها أيضًا منارة من نحاس قد قلبت قطعة واحدة، وليس لها باب، وبها أيضًا منارة قريبة من مارستانها قد ألبست جميعها من نحاس أصفر كالذهب محكم الصنعة والتخريم، وعليها قصر قسطنطين باني القسطنطينية، على قبره صورة فرس من نحاس، وعلى الفرس شخص على صورة قسطنطين وهو راكب وقوائم الفرس محكمة بالرصاص، وهذه المنارة تُرى على مسيرة يوم في البحر، ونصف يوم في البر»[٤٤].

وذكر القزويني تلك المنارة العجيبة التي تتحرك وتتمايل مع الرياح ومع ذلك ما زالت قائمة لم تَنْهَرْ، فقال: «ومن عجائب الدنيا ما ذكره الهروي، وهو منارة قسطنطينية، وهي منارة موثقة بالرصاص والحديد، وهي في الميدان إذا هبت رياح أمالتها جنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا من أصل كرسيها، ويُدخل الناس الخزف والجوز في خلل بنائها فتطحنها»[٤٥].

صرح المجدل في بابل:

مدينة بَابِل (بوابة الإله) هي إحدى مدن العالم القديم، وأكبر عواصم حضارة بلاد الرافدين عاصمة الإمبراطورية البَابِلية، وأكبر مدن العالم في وقت مُبكر، تَقَع بابل على ضفة نهر الفرات، على بعد ١٠٠ كيلومتر جنوبي العاصمة بغداد، بالقرب من مدينة الحلة[٤٦].

حدثنا شيخ الربوة في مخطوطته «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» أثناء ذكره للمباني القديمة والآثار العجيبة عن أن «أول من بنى على وجه الأرض بعد الطوفان الصرح المسمى المجدل، بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام، وبقعتها بكوثاريا من أرض بابل، وبها إلى عصرنا من أثر ذلك تلال كأنها جبال، وكان طوله خمسة آلاف ذراع (٢٥٠٠م)، وبناؤه بالحجارة والكلس والرصاص والشمع واللبان، بناه ليتمنع فيه هو وقومه من طوفان ثان يأتي، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة بصيحة تبلبلت بها ألسنة الناس من الدهش، وسميت أرض بابل، من ذلك التاريخ والله أعلم»[٤٧].

ويبدو أن شيخ الربوة كان يقصد بالصرح ما

٤٤- ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٧٢.

٤٥- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٦٠٥.

٤٦- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «بابل»، https://ar.wikipedia.org/

٤٧- شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٣٠.

يُعرف ببرج بابل في الوقت الحاضر الذي انتشرت عنه أساطير كثيرة، ويظهر هذا واضحًا في الارتفاع الأسطوري الذي ذكره شيخ الربوة.

رسم تخيلي لبرج بابل الأسطوري.

قصر غُمدان[٤٨]:

تفرد أهل اليمن ببناء الأبنية والقصور الفخمة العالية منذ أقدم العصور، ويعدُّ قصر غُمدان الذي كان مبنيًا في مدينة صنعاء في اليمن من «أقدم قصور اليمن وأعجبها ذكرًا وأبعدها صيتًا»[٤٩]، وواحدًا من عجائب الهندسة المعمارية القديمة، سكنه ملوك اليمن، وكان سيف بن ذي يزن من أشهر وآخر الملوك الذين سكنوه، وفيه استقبل سيف بن ذي يزن وفود العرب من الحجاز وغيرها التي جاءت تهنئه على انتصاره على جيش الحبشة وعودة المُلك إليه، وكان من جملة «من وفد عليه قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فبشره سيف برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما يعلم من أمره»[٥٠].

بُني القصر على شكل مربع، بارتفاع كبير جدًا في عصر لم تُعرف فيه الدراسات أو التقنيات الهندسية المتطورة المستعملة في بناء الأبنية العالية كناطحات السحاب في الوقت الحاضر، فقد بُني كل حائط من حيطان القصر الخارجية من رخام ملون بلون مختلف عن الحائط الآخر، فوجه أبيض، ووجه أحمر، ووجه أصفر، ووجه أخضر وبما أن الرخام خفيف الوزن مقارنة مع بقية أنواع أحجار البناء الأخرى، فقد خفف هذا الاستعمال الأوزان الذاتية للمبنى على صخور الأساس الصلدة، وقد أُسس هذا القصر المنيف على قاعدة صخرية عظيمة صلبة لُحمت حجارتها وتداخلت فيما بينها لحامًا عجيبًا بالنحاس المذاب (القِطْر)[٥١]، وقد بقي من هذا الأساس حجارة ما تزال شاهدة على هذا العمل العظيم «وقد بقي من حد غُمدان القديم قطعة ذات جَرُوب متلاحكة- أي متداخلة- تلاحكًا عجيبًا، فهي قبالة الباب الأول والثاني من أبواب الجامع الشرقية:

متلاحكًا بالقطر منه صخره

والجزع[٥٢] بين صروحه والمرمر»[٥٣].

وقد أكد استقرار جدران هذا القصر وثباتها ذكاء مهندسي القصر، فقد تميز مهندسو اليمن باتباع

٤٨- الشعار، مها، «عجائب قصر غُمدان»، مجلة بحوث جامعة حلب -سلسلة تاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب، العدد١٤، ٢٠١٩، ص ص ٨٩- ١٠٨.

٤٩- الهمداني أبو محمد الحسن، الإكليل، حرره وعلق حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة، بيروت ودار الكلمة، صنعاء، ج٨، ص٣.

٥٠- ابن كثير إسماعيل بن عمر (٧٠١-٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م، ج١، «ذكر خروج المُلك عن الحبشة ورجوعه إلى سيف بن يزن»، ص٢٨٦.

٥١- القِطر: النحاس الذائب.

ابن منظور جمال الدين محمد(٦٣٠-٧١١هـ)، لسان العرب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية ج٦، حرف الراء، فصل القاف، مادة «قطر»، ص٤١٧.

٥٢- الجزع: مأخوذ من مُجزع أي مُقطع بألوان مختلفة.

ابن منظور، لسان العرب، ج٩، كتاب العين، فصل الجيم، مادة «جزع»، ص٣٩٩.

٥٣- الهمداني، الإكليل، ج٨، ص ص١٢-١٣.

طريقة فريدة لضمان استقرار جدران المباني الضخمة، وذلك بنقر أواسط قطعة الرخام نُقرًا عميقة، وتثبيت أوتادًا معدنية (الرصاص أو الحديد) في داخلها لتربط بين قطع الرخام ولتكون لها سندًا وقوة فلا تسقط، وقد وجدت مثل هذه الأوتاد بين صخور سد مأرب، وكذلك في قصر غُمْدان[٥٤]. ذكر ابن الوردي ذلك أثناء حديثه عن سد مأرب في مخطوطته «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، فقال: «هذا السد بناه لقمان الأكبر بن عاد، بناه بالصخر والرصاص، فرسخًا في فرسخ، ليحول بينهم وبين الماء»[٥٥].

وكان من عادة أهل اليمن صهر الرصاص وصبه في كثير من العناصر المعمارية، منها الربط بين أجزاء الأعمدة، إذ نحت من الرخام أعمدة جميلة كُسيت تيجانها بالنقوش والزخرف الأخاذ، وأقيمت هذه الأعمدة على قواعد تحمل الصخور الثقيلة المؤلفة منها تربط بينها أوتاد مربعة في الغالب، وتكون القواعد أكبر حجمًا من العمود ليستقر ثقل الأعمدة عليها، ولتكون أثبت على الأرض، وتُقوى هذه القواعد بصب الرصاص عليها، وليُربط التاج المزخرف مع بدن العمود ربطًا محكمًا، ويجلس فوقه جلوسًا تامًا هندسيًا، فقد رُبط العمود بوتد معدني يدخل فيه ويقوم مقام المسمار في ربط أجزاء الخشب بعضها ببعض، فيدخل في الثقب المحفور في التاج والثقب الموجود في البدن ليربط بينهما ويجعلهما وكأنهما قطعة واحدة من حجر، ويصب الرصاص المذاب ليملأ الفراغ المتبقي في الثقب مما يزيد من تماسك الوتد والحجرين أيضًا[٥٦].

هذه الاكتشافات تؤكد أن تقنية صهر المعادن (النحاس – الحديد–الرصاص) وجعلها سائلة كانت معروفة عند العرب منذ القدم، لذا استعمل النحاس لتقوية أساس قصر غُمدان الذي كان يتحمل الأوزان الهائلة لهذا القصر المنيف، فتم صهره وتحويله لسائل صُب بين أحجار الأساس ليسد الفراغات بينها، ثم تُرك ليتصلب مشكلًا رابطًا قويًا بينها، كما جرى صهر الرصاص والحديد وتشكيله على شكل أوتاد معدنية لربط أحجار الجدران والأعمدة بعضها ببعض وتأمين ثباتها.

المسجد الأقصى في القدس:

استمر العرب المسلمون باستعمال تقنيات استعمال المعادن في تشييد المباني التي بنوها في البلاد المفتوحة، وفيما يلي بعض الأمثلة على هذه الاستعمالات، وهي غيض من فيض، ففي المسجد الأقصى في مدينة القدس يذكر الرحالة ناصر خسرو في مخطوطته «سفرنامة» أن:

«أرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة إلى بعضها بالرصاص، والمسجد شرقي المدينة والسوق، فإذا دخله السائر من السوق فإنه يرى رواقًا عظيمًا جميلًا ارتفاعه ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وله باب، وحين يجتاز السائر هذا الباب يجد على اليمين رواقين كبيرين في كل منهما تسعة وعشرون عمودًا من الرخام، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص»[٥٧].

«وأما الجزء المسقوف من المسجد الكبير، الذي به المقصورة، به ثمانون ومئتا عمود من الرخام، على تيجانها طيقان من الحجارة، وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص في منتهى الإحكام، وبين كل عمودين ست أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص»[٥٨].

٥٤– علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد في نشره، ط٢، ١١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٨، ص٣٧.

٥٥– ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ١٥٢.

٥٦– علي،جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص٣٧ وما يليها.

٥٧– خسرو، ناصر، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ط٢، ص٧٠.

٥٨– خسرو، سفرنامه، ص٧٣.

وبما أن القدس «مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون، وأما المدينة فليس بها عين»[٥٩]، فقد كان من الواجب تجميع مياه الأمطار لضمان المياه اللازمة لوضوء المصلين وغسل المسجد مستخدمين ميازيب مصنوعة من الرصاص لفتت انتباه الرحالة ناصر خسرو «هناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج بواسطة قنوات بينها، غير ملوث أو عفن»[٦٠].

ويصف الدكة التي بوسط ساحة المسجد: «أقيمت هذه الدكة في وسط المساحة، لأنه لم يتيسر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها، وهي تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمئة ذراع في ثلاثمئة، وارتفاعها اثنتا عشرة ذراعًا، وصحنها مستو ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص، وعلى هذه الدكة أربع قباب، أكبرها قبة الصخرة التي كانت القبلة، ... وقد قلت إن أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص»[٦١].

المسجد النبوي في المدينة المنورة:

رغب الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بالاستفادة من خبرة الصناع الروم في تشييد المباني الضخمة، فأرسل إلى ملك الروم يطلب منه صناعًا ليعمر المسجد النبوي في المدينة المنورة، فأجابه الملك بإرسال أعداد كبيرة من الصناع المهرة (روم وأقباط) مع كميات هائلة من المواد المستعملة في إكساء المباني (ذهب، فسيفساء).

شيّد الصناع أعمدة المسجد من الحجارة الضخمة ولزيادة ثباتها ثقبوها في الوسط ليخلوا فيها أعمدة من الحديد، وكان الرصاص هو المادة الرابطة بين الحجارة، ذكر القزويني: «كتب الوليد بن عبد الملك إلى صاحب الروم طلب منه صناعًا لعمارة مساجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إليه أربعين رجلًا من صناع الروم، وأربعين من صناع القبط، ووجه معهم أربعين ألف مثقال ذهبًا وأحمالًا من الفسيفساء، فجاء الصناع وخمروا النورة سنة للفسيفساء، وجعلوا أسطوانات[٦٢] المسجد من حجارة مدورة في وسطها أعمدة حديد، وركبوها بالرصاص»[٦٣].

جامع مدينة بغداد:

لمّا بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٦ جعل المسجد الجامع بالمدينة ملاصقًا قصره المعروف بقصر الذهب، «وبناه باللبن والطين، وأساطين الخشب في المسجد، يعني كلّ أسطوانة قطعتين معقّبتين بالعَقِب والغِراء وضبّات الحديد إلّا خمسًا أو ستًّا عند المنارة؛ فإنّ في كلّ أسطوانة قطعًا ملفّقة مدوّرة من خشب الأساطين»، «وظل المسجد على هذه الحال إلى أن أمر هارون الرشيد بنَقْضِه وإعادة بنائه بالآجر والجص»[٦٤].

مئذنة الجامع الأموي في حلب:

يعود تاريخ بناء المسجد إلى العصر الأموي، وقد اختلف المؤرخون على صاحب فكرة بناء الجامع، إذ تذكر بعض المصادر التاريخية أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (تولى الخلافة سنة ٩٦ – ٩٩هـ / ٧١٥ – ٧١٧ م)، بناه على نمط الجامع الأموي

٥٩– خسرو، سفرنامه، ص٦٧.

٦٠– خسرو، سفرنامه، ص٧٥.

٦١– خسرو، سفرنامه، ص٧٨ وما يليها.

٦٢– أسطوانات وأساطين: جمع أسطوان وهو العمود أسطواني الشكل.

رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، حرف الألف، مادة «أسطوان»، ص١٧.

٦٣– القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٧١.

٦٤– الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الفكر بدون تاريخ، ج١، ص١٠٧.

بدمشق الذي بناه أخوه الوليد[٦٥]، فأولى هذا الجامع عناية فائقة، وأنفق عليه أموالاً ضخمة، وجعله تحفة فنية رائعة في جمالها وسعتها وإتقانها، يذكر ابن العديم: «علمتُ من القاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر بأن جامع حلب الكبير ينافس جامع دمشق الكبير بزخارفه وألواح الفسيفساء»[٦٦]، ويذكر ابن شداد «وقد سمعتُ بأن باني الجامع هو سليمان بن عبد الملك الذي لم يوفر جهدًا أو مالاً لمساواته مع الجامع الكبير في دمشق الذي أمر بتشييده شقيقه الوليد»[٦٧].

مئذنة الجامع الأموي بحلب.

تعرض الجامع لكثير من الكوارث كالحروب والنكبات والحرائق كالتدمير الذي لحق بمئذنة الجامع أثناء غزو البيزنطيين للمدينة بقيادة نقفور فوكاس[٦٨]،

٦٥- الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية بحلب، ١٣٤٢هـ، ج٢، ص ٢٣٥.

٦٦- ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد (ت: ٦٦٠ هـ)، بُغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكّار، ١٩٨٨، دار الفكر، بيروت، ج١، ص١٣٤.

٦٧- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي (ت: ٦٨٤هـ)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ط١، ج١، تحقيق علي زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ج ١، ص١٠٤.

٦٨- سماني وسيلة، إعداد منهجية علمية ودراسة تراثية إنشائية لإعادة بناء المساجد الأثرية المتهدمة في مدينة حلب- الجامع الأموي الكبير أنموذجًا، رسالة دكتوراه، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، إشراف د. مها الشعار ود. عمار كعدان، ص٢٤.

فأمر السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان بإعادة بناء المئذنة عام (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)، وأشادها معمار من سرمين يدعى حسن بن المفرج السرماني بارتفاع ٤٥م، وبإشراف القاضي أبي الحسن محمد ابن يحيى ابن الخشاب، أورد ابن الشحنة: «أُسِّسَت العمارة في هذه المَنارة في زمن سابق محمود بن صالح على يد القاضي ابن الحسن ابن الخشاب، وكان الذي عمرها رجل من سَرمين، وأنَّه بَلَغَ بأساسها إلى الماء، وعَقَدَ حجارتها بكلاليب الحديد والرصاص، وأتَمَّها في أيام قُسَيّم الدولة آق سُنقر»[٦٩].

وقد كشفت الدراسات الحديثة عن صحة هذه المعلومة، فقد وجد أن حجارة المئذنة رُبط بعضها ببعضٍ بكلاليب حديدية، وثُبِّتَتْ بالرصاص المصهور، والكلابات عبارة عن قطع حديدية مبسطة ذات عكفتين تدخل في ثقبين من الطرف العلوي لحجرين متجاورين، ويملأ الثقبان بالرصاص، وقد لوحظت هذه القطع أيضًا في جدران المصطبة الحجرية في صحن الجامع[٧٠].

القطع الحديدية بين حجرين في الجامع الأموي بحلب[٧١].

٦٩- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت ٨٩٠ هـ)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م،، ص٦٧.

٧٠- سماني، إعداد منهجية علمية ودراسة تراثية إنشائية...، ص٧٥.

٧١- سماني، إعداد منهجية علمية ودراسة تراثية إنشائية...، ص٧٥.

العمود المرصص (المطوق):

انتشر نوع جديد من الأعمدة في العمارة العربية – الإسلامية، وهي الأعمدة المرصصة (المطوقة)، إذ جرت عادة المعماريين المسلمين أن يطوقوا العمود بحزامين معدنيين، أحدهما بين البدن والقاعدة، والآخر بين البدن والتاج، فكانوا يصنعون في هذين

الأعمدة المرصصة في البائكة أمام القبلية بالمدرسة العثمانية (الرضائية)[٧٢].

الموضعين لوحين من الرصاص للحام البدن بكل من القاعدة والتاج، ثم يغطّون هذين اللحامين بطوقين معدنين لإخفائهما، فيُدخل الرصاص بين البدن وكل من القاعدة والتاج، وذلك بأن يفصل البدن عن كل منهما بأسافين من الخشب يتساوى سمكها مع سمك اللحام، ثم يصب الرصاص الذائب حتى يملأ فراغ اللحامين، ويكشف ما تبقى من خشب الأسافين داخل اللحام[٧٣]، ويمكن وضع حزام معدني بين البدن والتاج فقط عندما لا يكون هناك قاعدة للعمود، وخير مثال على هذه الأعمدة أعمدة المدارس التي بنيت في الفترة العثمانية في مدينة حلب كالمدرسة العثمانية (الرضائية).

رابعًا–الخاتمة:

يعد اكتشاف المعادن واستعمالها في الحياة اليومية من أهم الاكتشافات التي ساعدت على تطور الحضارة الإنسانية ودفعها نحو الأمام، وكان التوصل إلى معرفة آلية استخلاص كل نوع منها (أي عملية التعدين) قفزة في تاريخ التقنية، إذ استطاع الإنسان من خلالها أن يستبدل بأدواته الحجرية البدائية الشكل أخرى معدنية أكثر قسوة وأكثر اتقانًا، ولها الشكل الذي يرغب به، وربما كانت رؤوس السهام والفؤوس المصنوعة من المعادن الصلدة أولى منتجات الإنسان المعدنية الأولى التي فتحت الباب لاستعمال المعادن في مجالات عدة، منها تشييد المباني وإكساؤها.

ونأمل بهذا البحث أن نكون قد قمنا بخطوة في مجال تأريخ علم مواد البناء، وضحنا فيه بعض جوانب الإبداع الهندسي عند الإنسان الذي استطاع الاستفادة من مزايا المعادن الصلبة ليبني بها منشآت تتمتع بالقوة والديمومة، وتثير الدهشة والإعجاب لمشاهديها.

٧٢– منافيخي، أحمد، دراسة هندسية مقارنة لتطور عمارة الأعمدة في العصرين المملوكي والعثماني في مدينة حلب، رسالة ماجستير، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، إشراف د. مها الشعار.

٧٣– رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص ٢٠٨.

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

– ابن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت ٨٩٠ هـ)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

– ابن شداد عز الدين محمد بن علي (ت: ٦٨٤هـ)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ط١، تحقيق علي زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.

– ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد (ت: ٦٦٠ هـ)، بُغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكّار، ١٩٨٨، دار الفكر، بيروت.

– ابن كثير إسماعيل بن عمر (٧٠١–٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م.

– ابن منظور جمال الدين محمد(٦٣٠–٧١١هـ)، لسان العرب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

– الجادر وليد، «صناعة التعدين»، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج٢، الفصل السابع.

– الجوهري إسماعيل بن حماد (ت٣٩٢هـ)، الصحاح، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.

– خسرو ناصر، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ط٢.

– الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الفكر، دون تاريخ.

– رزق عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

– سماني وسيلة، إعداد منهجية علمية ودراسة تراثية إنشائية لإعادة بناء المساجد الأثرية المتهدمة في مدينة حلب.

–الجامع الأموي الكبير أنموذجًا، رسالة دكتوراه، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ٢٠٢٠م، إشراف د. مها الشعار ود. عمار كعدان.

– شيخ الربوة شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت٧٢٧هـ)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزيك، ١٩٢٣م، مكتبة المثنى، بغداد.

– الشعار مها، «عجائب قصر غُمدان»، مجلة بحوث جامعة حلب –سلسلة تاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب، العدد١٤، ٢٠١٩، ص ص ٨٩–١٠٨.

– عامر جمال سليمان علي، الحرف والصناعات اليدوية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى، قسم شبه الجزيرة العربية.

– علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد في نشره، ط٢، ١١٣هـ / ١٩٩٣.

– الغزي كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية بحلب، ١٣٤٢هـ.

– فاخوري محمود وخوام صلاح الدين، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢م.

– القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

– كجه جي صباح إسطيفان، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، ٢٠٠٢م.

– كسرائي شاكر، قاموس فارسي عربي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م، بيروت، لبنان.

– لوكاس ألفريد، المواد والصناعات عند قدماء المصريين. ترجمة زكي إسكندر ومحمد زكريا غنيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤٤١١هـ / ١٩٩١م.

– مانسيل فيليب، القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، يوليو ٢٠١٥م.

– مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

– المحاري سلمان أحمد، حفظ المباني التاريخية، المركز الدولي لدراسة وصون وترميم الممتلكات الثقافية (إيكروم)، الشارقة، ٢٠١٧م.

– المقدسي محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٧م.

– منافيخي أحمد، دراسة هندسية مقارنة لتطور عمارة الأعمدة في العصرين المملوكي والعثماني في مدينة حلب، رسالة ماجستير، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، إشراف د. مها الشعار.

– الهَمْدَانيّ أبو محمد الحسن، الإكليل، حرره وعلق حواشيه نبيه أمين فارس، دار العودة، بيروت ودار الكلمة.

– هودجز هنري، التقنية في العالم القديم، ترجمة رندة قاقيش، مراجعة محمود أبو طالب، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

– ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

المراجع الإلكترونية

– قاموس ومعجم المعاني، https://www.almaany.com

– موسوعة المعرفة الإلكترونية، مادة «الخزر»، https://www.marefa.org/

– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «بابل»، https://ar.wikipedia.org/

– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «تستر»، https://ar.wikipedia.org/

– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «دربند (روسيا)»، https://ar.wikipedia.org/

– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «كرمانشاه (محافظة)»، https://ar.wikipedia.org/

– ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة «نظام شوشتر الهيدروليكي التأريخي»، https://ar.wikipedia.org/

المعدن الذي حيّر العلماء
الزئبق في التُّراث العربيّ

د. بثينـــــة جلخـــي*

مقدمة

ضمت مؤلفات التراث العربي مادة غنية عن علم المعادن، وهو علم يتعرف منه أحوال الفلزات من طبائعها، وألوانها، وكيفية استخراجها، واستخلاصها عن الأجزاء الأرضية، وتفاوت طبائعها وأوزانها، والعمل بالمعادن والمواد المستخرجة من الأرض لا ينفصل عن العمل بالكيمياء وعملياتها المختلفة، فموضوع الكيمياء القديمة هو تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص والقصدير والنحاس والحديد إلى المعدنين الثمينين وهما الذهب والفضة، فكان الهدف هو الحصول على الذهب.

وقد عرف العلماء العرب معظم الخواص الطبيعية للمعادن، وكان لهم آراء قيمة في أصل تكوينها وكيفيتها، إضافةً إلى محاولات جادة لتصنيفها، وأصل اشتقاق أسماء المعادن وكيفيته. وتُعد مؤلفات الكيمياء والجيولوجيا من أهم المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع، كما تحوي الكتب الطبية مادة قيمة عن المعادن واستخداماتها في معالجة الأمراض، وتناولت بالدراسة المعادن المفيدة والمعادن التي لها آثار سمية على جسم الإنسان، وقد توصل الأطباء إلى عمل الترياق لكثير من الإصابات بالمعادن السامة، ومن هذه الكتب نذكر: الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي، وله أيضًا كتاب المنصوري في الطب، وكتاب القانون في الطب لابن سينا، وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار.

* أستاذة في معهد التُّراث العلْميّ العربيّ – جامعة حلب.

وذكر العلماء العرب كثيرًا من المعادن أو الفلزات وبيّنوا أنها تتكوّن من اختلاط الزئبق والكبريت بنسب مختلفة، فالمعادن هي: «أجسام متولدة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة في الأرض إذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلفة في الكم والكيف، وهي إما قوية التركيب أو ضعيفة التركيب...». **والقوية التركيب** إما أن تكون **منطرقة**، وهي الأجساد السبعة، وتسمى الفلزات، وهي الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والأسرب والخارصيني، **وغير المنطرقة** فإما أن تكون في غاية اللين كالزئبق، أو في غاية الصلابة كالياقوت، وهي إما تنحل في الرطوبات (الأجسام الملحية) كالزاج والنشادر، وإما لا تنحل فيها (الأجسام الدهنية) كالزرنيخ والكبريت.

إذن تتكوّن الفلزات من اختلاط الزئبق والكبريت بنسب مختلفة، والزئبق يتكوّن من أجزاء مائية أرضية إذا أنضجتها الحرارة القوية صارت كالدهن. فإن كان الزئبق والكبريت صافيين واختلطا اختلاطًا تامًا، وشرب الكبريت رطوبة الزئبق كما تشرب الأرض نداوة الماء، وأنضجا على اعتدال ولم يعرض لهما عارض من البرد واليبس قبل إنضاجهما ينعقد على طول الزمان **ذهبًا إبريزًا**، وإن كان الزئبق والكبريت صافيين وأنضجا إنضاجًا تامًا، وكان الكبريت أبيض **انعقد فضة**، وإن عرض له البرد قبل النضج تولد **الخارصيني**، وإن كان الزئبق صافيًا والكبريت رديئًا فيه قوة محرقة **تولد النحاس**، وإن كان الكبريت غير جيد المخالطة مع الزئبق **تولد الرصاص**، وإن كان الزئبق والكبريت رديئين بحيث يكون الزئبق أرضيًا متخلخلًا والكبريت رديئًا محترقًا **تولد الحديد**، وإن كانا مع رداءتهما ضعيفي التركيب **تولد الأسرب** [1].

وقد اخترنا في هذا البحث واحدًا من تلك المعادن أثار جدلًا كبيرًا في الماضي من حيث كونه معدنًا أم مركبًا، وهو الزئبق ذلك لأن الزئبق هو الفلز السائل الوحيد الذي كان معروفًا آنذاك وإلى مطلع القرن الماضي، إذ سنسلط الضوء على باقة متنوعة من النصوص التراثية التي تبين لنا ماهية الزئبق، وخواصه، وطرق الحصول عليه، وأعراض التسمم به.

الزئبق في الحضارات القديمة

الزئبق من المواد الكيميائية القديمة التي عثر عليها في مقابر مصرية يصل عمرها إلى ٣٥٠٠ سنة، فقد كان معروفًا لدى القدماء المصريين والصينيين والهندوس والإغريق والرومان، ولقد سمي في الأساطير الرومانية القديمة (بساعي الآلهة السريع)[2].

عُرف الزئبق لدى المصريين القدماء، وقد عُثر عليه في مقابرهم، وكان يُستعمل لإطالة الحياة، والشفاء من الكسور، ومستحضرات التجميل، وفي تلغيم المعادن الأُخرى، كما أنّه كان يُستخدم في مجال السحر والشعوذة.

-وقد استخدم الصينيون الزئبق في تشكيل ملاغم الذهب والفضة، واستفادوا من ذلك في علاج الأسنان، كما استخدموا العناصر الطبيعية الثلاثة وهي النبات والحيوان والمعادن في الوصفات الطبية التي استعملوها، وجُمعت الوصفات في أضخم كتاب يسمى (بن تساو) الذي يحتوي على أكثر من ألفي دواء وطرق تحضير ما يقارب من ثمانية آلاف وصفة طبية، إلى جانب استخدام بعض المعادن كالزئبق في بعض الوصفات، فقد استعملت بعض المعادن الثقيلة والسامة في بعض المستحضرات الصينية بناء على اعتقادهم أن السموم قد تشفي، وشددوا على أهميتها

١- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

٢- الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مادة الزئبق https://ar.wikipedia.org

في الحصول على الخلود والمحافظة على الصحة واستعادة الشباب، وقد قام كلٌّ من العالمين وي بو-يانج وكوهانج بعمل ملغمة الزئبق والرصاص، وسماها وي بو يانج بالزهرة الذهبية، وذكر كوهانج بعض أعراض التسمم بالزئبق.

أما في الهند فقد بيّن البيروني طريقة الحصول على الذهب باستخدام الزئبق عند ماء السند وعين شرغور بالهند إذ قال: «وفي منابعه مواضع يحفرون فيها حفيرات في قرار الماء، وهو يجري فوقها، ويملؤونها من الزئبق حتى يتحول الحول عليها، ثمّ يأتونها وقد صار زئبقًا ذهبيًا، وهذا لأنّ الماء في مبدئه حاد الجري يحمل الرمل مع الذهب كأجنحة البعوض رقة وصغرًا، ويمرّ بها على الزئبق فيتعلق بالذهب ويترك الرمل يذهب[٣]».

وفي الحضارة اليونانية نجد قارموس، وأرشلاوس، وبليني، وغيرهم، قد عرفوا الزئبق، وذكروه في مؤلفاتهم، وعرفنا ذلك من المؤلفات العربية التي ذكرت إنجازات اليونان، فقد ذكر جابر بن حيان: «ألبس الزئبق في النحاس حتى يُبيض داخله وخارجه، من الأوابد والأصول في هذه الصناعة حتى قال قوم: إن ابتداءه كان من قارموس الأول، فإنّه أخذ قطعة من النحاس فطلاها بزئبق، فلما رأى أنّه يُبيضها ونفد فيها، فكر فعلم أنّ في ذلك علمًا هو أكبر من ذلك».

وقال أرشلاوس: «اخلطوا نحاسنا بالزئبق، واطبخوهما بنار لينة حتى يذابا، وإياكم وشدة النار».

وذكر الطغرائي في كتابه تراكيب الأنوار: «وقال ذومقراط: إنّ القصدير، إذا خُلط بالزئبق بيّض كل جسد».

كما ذكر كوب في كتابه «إبداعات النار» أن تقارير بليني (عاش في القرن الأول الميلادي) تبين أنهم عرفوا الزئبق ومملغم الزئبق مع الذهب المُستخدم لاستخلاص الذهب من رماد الملابس الموشحة بخيوط الذهب[٤].

-هذا إضافةً إلى ما ذكره أرسطو طاليس في كتابه الأحجار، وديموقريطس، وبالبناس الحكيم في مؤلفاته المتعددة، وأهمها سر الخليقة وصنعة الطبيعة.

الزئبق (ماهيته وخواصه) في التراث

بالعربية الزئبق[٥]، والفارسية آبَك، جيبا، جيوَه، زاووق، زيوَه، سيماب. واللاتينية Hydrargyrum، والإنكليزيةMercury، والفرنسية Mercure .

صفتاه الظاهرتان: بارد، رطب، وصفتاه الباطنتان: حار، يابس.

رمزه التراثي: فلكه: كوكب عُطارد[٦]

ويسمى أيضًا: الآبق، والفرار، والزواق، والشهاب، وسُمي على اسم الكوكب الأسرع حركةً في النظام الشمسي، وهو كوكب عطارد، ولغةً يُقال عن الشخص زئبقي إذا كان كثير التهرب، ويعدّ الزئبق معدنًا سائلًا ذا لون فضي لامع، وهو من المعادن الانتقالية.

أكد العلماء أن ظاهر الزئبق (Hg) أبيض بارد رطب، وباطنه أحمر حار يابس، وهو ألطف المعادن، ومنه نشأت المعادن القابلة للذوبان، وفي باطنه كبريت (S)، وهذا الكبريت محلول لكثرة حرارة باطن الزئبق. وسنقدم قطوفًا تراثية تبين ماهية الزئبق وخواصه.

تحدث **بالبناس الحكيم**[٧] عاش نحو (١٠٠)

٣- البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٣٨٧،٣٨٨.

٤- إسكندراني، الملاغم (ماهيتها، أنواعها، استخداماتها) في التراث العلمي العربي، ص ٢-٥.

٥- البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٤١٩.

٦- شقرة، تحقيق ودراسة مخطوط السر الرباني في علم الميزان لمؤلفه علي جلبي بن خسرو بيك الأزنيقي، ص ٢٧٨.

٧- أبولونيوس التياني(بلبناس): فيلسوف يوناني بلدته تيانا من قضاء كبادوكيا في تركيا، من مؤلفاته: سر الخليقة وصنعة الطبيعة. سزكين، تاريخ التراث العربيّ، المجلد الرابع، ص١١٢.

م عـن ماهيـة الزئبـق، وخواصـه، وكيفيـة تكونـه في الطبيعة، ووصـفه وصفًا دقيقًا فقال: «أقول: إنّ أصل الأجسـاد المُذابـة كلّها الزئبق، وإنّ أصـل الزئبق إنّما كان ماءً محصـورًا في معدنه، فلما سـخّنه الحرّ بقُوّته رَقِيَ إلى فوق صاعدًا هاربًا من الحرارة، فصار بخارًا لطيفًـا روحانيًـا، فلمّـا بلغ غايته في صـعوده وحصره المعـدن، فلم يجد مخلصًـا ينفذ فيه، ثبـت مكانه بُخارًا وعُـدم الحرُّ فـبرد، فلما بـرد غلظ واجتمعـت أجزاؤه فتكاثفـت كمـا كان بـداءةً، فانقلـب مـاءً، فرجـع إلى سُوسـه كما كان، فلمّا انقلب مـاءً ثقل، فرجع منحدرًا إلى أسـفل لثِقَله وغِلَظته، لأنّا قلنا في كتابنا: إنّ سُـوس الثِّقَل هو الهبوط، فلمّا صـار في قَـرار الوِعاء، حرّكته النـار كعادتها فرَقِـيَ إلى فوق خفيفًا لأنّه صـار بُخارًا لطيفًـا، ثُـمّ عرض له الـبرد كما عرض لـه أولًا، فرجع مـاءً غليظًا، فـكان في كلّ مرة من صـعود يلطُف ويرِقّ لأنّه صار هوائيًا خفيفًا، ويقتبس الحرَّ من النار بالحرّ الـذي فيه على وجهـه، وهو الدُّهْن المركَّـب في الماء من أوّل الخلقة، وهو يمنع الماء من أن يصـير حجرًا، فلمّا اسـتمدّ من الحرارة إلى نفسـه بما فيـه من الحرّ قوي الحرّ فيه، فلمّا بطن البردُ صـار حارًّا ليِّنًا، فقوي على التحليل بلَطافته، لأنّ كلّ حارّ لَيِّن فهو محلِّل الأشـياء، فلمّـا لطُف الزئبق في معدنه ونَقِيَ فصـار هوائيًا قَوِيَ علـى حلِّ الكبريـت بلَطافته، فلمّا انحـلّ الكبريت أجنّه في جوفـه بطُـول الطَّبْـخ ولـيِّن التدبـير وتحلُّـل يُبـس الكبريت، فصـار في باطن الزئبق وصار يبسُ الكبريت مسـتجنًّا في باطن الزئبق، فصار يبس الكبريت للزئبق روحًـا أحمر، وصـارت رطوبـةُ الزئبق لليبس جسـدًا أبيضَ يحملـه، وحصر يبسُ الكبريـت رطوبةَ الزئبق أن يفترقَ كافتراق الماء أو يبل كبَلّ الرطوبات، فصـار جسـدًا أبيضَ ذائبًا محلولًا، واعتدل عليه الحرّ فطبخه طبخًا لينًا، فابيضّ فصـار جسدًا محلولًا، فيسمّى ذلك الجسـد المحلـول زئبقًـا، فظاهـرُه ليِّن وباطنـه يابسٌ، وظاهرُه أبيض وباطنُه أحمر، **فهذه علّة الزئبق** الذي هو أصلُ الأجساد المذابة، وكيف يكون في معدنه[٨]».

أمـا أبو الكيمياء العربية **جابر بن حيان**[٩] **(١٢٠ ـ ٢٠٠هـ / ٧٣٧ ـ ٨١٥ م)** فقال في الزئبق: «بارد رطب أبيضُ الظاهـر لبرودته ولرطوبته، حـار يابس أحمر الداخل لحرارته ويبوسـته، وهـو جوهر كريم سريع القبول للألوان عجيب الفعل به أثبت أهل الصـنعة علم الصـنعة فيـه، وزعمت طائفـة منهم أنه ناظـر الذهب، فقـال الزئبـق: أنا الـذي أنفضـ جميع الأجسـام ولا أقبل شـيئًا، وأنا الـذي أفعل وأفعل، وعدد أشـياء من أوصافه وأعماله»[١٠].

وأكـد جابر أهميـة الزئبق فهـو كالروح بالنسـبة للإنسـان، وجميع التجارب وتحضـير الإكسير لا تتم

٨- باليناس الحكيم، سرُّ الخليقة وصنعة الطبيعة، ص ٢٤٣.

٩- جابر بن حيان: هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، من أهم الكيميائيين العرب والمسـلمين، يعدّ المؤسـس الحقيقي لعلم الكيمياء، من مؤلفاته: كتاب الخواص الكبير، كتاب السبعين، كتاب الموازين.
سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الرابع، ص ١٩٦.

١٠- جابر بن حيان، كتاب السبعين، كتاب عطارد، ص ١٩٨- ١٩٩.

إلا بوجوده، فقال: «الأن يُحتاج أن نقول في الزئبق، وهو في الموضوع كالروح لهيكل الإنسان...، ولكل ملة من الملل لأهل الصناعة في الزئبق رأي، قد قلنا في جميعه،...، وذلك أنّ الزئبق لابد منه في كل شيء من التدابير، والأكاسير، والأعمال، فاعلم ذلك»[١١].

كما أكد أن من تمكن من استخراج الزئبق والعمل به استطاع إجراء عمليات قلب أو تحويل المعادن أو المركبات إلى أي معدن أو مركب آخر، فقال: «ومن لا يقدر على استخراج الزئبق من الأجساد الذائبة لا يملك إقلاب المعقودات إلى كيان الأجساد».

وبيّن جابر أن الزئبق يمتزج مع المعادن الأخرى كالكبريت والزرنيخ (As) بوجود مواد مساعدة، فالكبريت يُستخدم ليصلح بين الزئبق والذهب (Au)، أو النحاس (Cu)، ويكون الناتج أحمر اللون، وأما الزرنيخ فيُستخدم ليصلح بين الزئبق والفضة (Ag)، أو الرصاص (pb) والناتج يكون أبيض اللون.

قال: «وينبغي أن تعلم أنّ الزئبق غير غائص في بطون الأجساد، ولا ممازج لها الممازجة الكلية، فقد ثبت من ذلك أن إنزال الزئبق عن الأجساد بالفعل، ومزاجه بالقوة لا غير، وقد يمكن خروج ذلك من القوة إلى الفعل، فإن الحاجة للكبريت إنّما كانت لشيئين وهما: إصلاح بين الزئبق والجسم ومزاجه به، وإخراج ما في القوة إلى الفعل، ليكون منها المزاج والغوص، ولا يزول شيء منها بوجه ولا بسبب، وإذا غاص الزئبق في الأجساد كان من غوصه الامتزاج، فإذا امتزج انعقد الزئبق بالجسد وانحل الجسد بالزئبق فصارا شيئًا واحدًا، فإن كان المُصلح بين الزئبق والجسد الزرنيخ، فالصبغ أبيض والجسد إما فضة أو رصاص، وإن كان المُصلح بين الزئبق والجسد إنما هو الكبريت، فالصبغ أحمر والجسد إما الذهب وإما النحاس لا غير ذلك، فاعمل به. وإياك والخلاف فقد أوضحنا هذه الأصول كلها على سبيل الرمز في السبعين في غير المواضع التي نذكر فيها أمر الأحجار، فاعمل على ذلك، وإياك والخلاف في شيء منه، وأنا أحذرك من الغلط والسهو»[١٢].

وقال عن الزئبق الجيد: «الزئبق الجيد أن يكون أبيضَ رقيقًا، إذا عصرته بخرقة لم يبقَ فيها شيء مثل الكحل[١٣]»[١٤].

وأكد جابر في كتابه السموم أن الزئبق شديد السمية، فقد شرح أنواع السموم وخواصها وتأثيرها على الجسم، وقسمها إلى سموم حيوانية، ونباتية، وحجرية مثل الزنجار، والزئبق، والزرنيخ[١٥].

أما **إخوان الصفا**[١٦] (القرن الرابع الهجري)، فقد عرفوا الزئبق ووصفوه بأنّه جسم رطب سيال لا يصبر على النار، ويختلط مع الأحجار المعدنية بالتدبير، فيكسرها ويُفتتها، فإذا أصابته النار طار وعاد إلى حالته الأصلية. وقالوا: «وأما الزئبق، فهو جسم رطب سيال يطير إذا أصابته حرارة النار، لا صبر له على حر النار، وهو يخالط الأجسام المعدنية بالتدبير، ويُرخيها ويكسرها ويوهنها، فإذا أصابت تلك الأجسام حرارة النار طار الزئبق ورجع إلى حالته الأولى صُلبًا كما كان، ومثله مع هذه الأحجار كمثل الماء مع الطين اليابس، إذا غلبه الماء استرخت وتفتت،

١١- جابر بن حيان، تدبير الإكسير الأعظم أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء، ص ١٤٧.

١٢- جابر بن حيان، الخواص الكبير، ص ٧٦و٧٧.

١٣- الكحل: ويسمى إثمدًا وهو كبريتيد الرصاص Pb S

١٤- جابر بن حيان، الخواص الكبير، ص ٣.

١٥- الشكري، الكيمياء عند العرب، ص ٤٠

١٦- إخوان الصفا: مجموعة من العلماء مزوّدون بثقافة فلسفية التقوا بالبصرة في منتصف القرن الرابع، من آثارهم: رسائل إخوان الصفا. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص ١٥٤.

فـإذا أصـابته حـرارة النـار أو حرارة الشـمس جف وعاد كما كان أولًا»[١٧].

ويُعد الطبيب **أبو بكر الرازي**[١٨] (٢٥١-٣١٣هـ / ٨٥٦-٩٢٥م) مـن أوائل من اسـتخدم دهن الزئبق في الطـب، فقـد قسـم العقاقـير إلى ثلاثـة أقسـام وهي: برانية(ترابية)، ونباتية، وحيوانية، والبرانية تشـمل سـتة أقسام أولها الأرواح، وهي مواد تتأثر بالحرارة بسـهولة فتتطاير وتتسـامى، مثل الزئبـق والكبريت والزرنيخ والنوشادر، فقد صنّف الزئبق من الأرواح، وذكر خصائص الزئبق الجيد كما ورد عند جابر.

وبـيّن الـرازي أنّ ناتج خلط الزئبق مع المعدن يُسـمى ملغمـة، وأنّ الزئبق يجمع الذهب والفضـة من خاماتهما إليه، مع إمكانية أن ينفصـل عنهما، ويصعب امتزاجه مع الحديـد. فقـال: «الزئبق يُبيّض الذهـب، ويلزق، ويغوص فيه، وفي سـائر الأجسـاد حتى يُبيض داخلها، ويكسرها، ويجعلها بالسـحق شـبه العجين، يُسـمى ذلك ملغمة، خلا الحديد، فإنّه يعسر اختلاطه به، ويجمع الفضـة والذهب إلى نفسه من حجاراته، ثمّ يطير عنها، وتحصل عليها»[١٩].

وقـد خصـص **البـيروني**[٢٠] (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨-٩٧٣ م) في كتابـه الجماهـر في معرفة الجواهر بابًا للفلزات وبدأ الحديث عن الزئبق، فذكر خواصـه الكيميائيـة والفيزيائية، وتفاعله مـع الكبريت، ووزنه النوعـي، واتحـاده بالفلـزات وتكوين الملاغـم، فقال: «في ذكـر الزئبـق: يُسـمى زاووقًـا، ومنـه التزويق في التصوير، والمزيبقات هي الدراهم الزيوف المطلية به، وكان في الأيـام التـي لا تبتعـد عن أيامنـا قطاع دراهم غلاظ مملسة الأطراف والحواشي إلى السواد، وكأنها سـنجات الموازيـن تُسـمى مزبقـة. ذكروا أنهـا كانت تُعمـل مـن الزئبـق المعقود، وكانـت تُسـتعمل بمكة إلا في المواسـم، فإنهم كانـوا يرفعون التعامـل بها إلى أن يأخـذوا من الحجيج ما معهم من الذهب والفضـة، ثم يعودون عند عودتهم إلى الزئبق والدينار المطوق».

وشرح البيروني تأثـير الكبريت على الزئبق فقال: «ومنه بمزاوجـة الكبريت في النار يُعمـل الزنجفر[٢١]، لأن الكبريـت يعقـده ويولد الحمرة فيه كمـا يولدها في الأسـرب[٢٢] المُحـرق ويصـيره أسرنجًـا[٢٣]، وربمـا سُـوي بينهمـا في التسـمية بالزنجفريـة، ثـم يُفضـل المعمول بالزئبق بالنسبة إلى الروم، إذ كان فيما مضى يُحمل من هناك ولا يهتدي ههنا لغير الأسرنج».

وذكـر البـيروني أن الذهـب يتأثـر ببخـار الزئبق كتأثره بسـائله، ويشـكل بذلك ملغمة الذهب بالزئبق، وبيّن أن الزئبق يذيب جميع المعادن باسـتثناء الحديد، ومن خواصـه التسـمم الشـديد، قـال: «والزئبق يفر عـن النـار إلا أن يُجعـل في مغرفـة حديد محمـاة، فإنه يستقر فيها مدة، وذلك لأن الزئبق سيال كالماء، فالنار تُبخره بتبديد الأجزاء، وإذا اجتمعت وانضـمت عادت

١٧- إخـوان الصـفا، رسـائل إخوان الصـفا وخلان الوفـا، المجلد الثاني، ص ١٢٠، ١٢١.

١٨- الرازي: هو محمد بن زكريا الرازي أبو بكر، عالم موسوعي برز في علوم الطب والكيمياء والصـيدلة والفلسـفة وغير ذلك، وصنف فيها جميعًـا، من آثاره: الحاوي، المنصـوري في الطـب، الجامع الكبير، سر الأسـرار، علل المعادن. حميدان، أعلام الحضـارة العربية الإسـلامية. م ٢، ص ٣٤٤ - ٤٠٤.

١٩- إسـكندراني، الملاغـم (ماهيتهـا، أنواعهـا، اسـتخداماتها) في التراث العلمي العربي، ص ١٦.

٢٠ -البـيروني: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، ولد بضـاحية من ضـواحي خوارزم. يعدُّه ابن أبي أصيبعة منسوبًا إلى بيرون وهي مدينة في السـند، ويشير ياقوت إلى أنه لُقِب بالبيروني لأن بيرون بالفارسية معناها برا (أي خارج البلد)، وذلك لأن مقامه في خوارزم كان قليلًا، وأهل خوارزم يسـمون الغريب بهذا الاسـم، وقد لُقِّبَ البيروني لغزارة علمه بالأستاذ. ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٥٩.

٢١- الزنجفر: الزئبق المعقود بالكبريت، وهو كبريتيد الزئبق Hg S.

٢٢- الأسرب: وهو الرصاص Pb.

٢٣- الأسـرنج: أسـرب يُحرق ويشـبّ عليـه النار حتـى يحمر، وهو رباعي أكسيد ثلاثي الرصاص Pb3O4.

زئبقًا، كعود المُبخَّر من الماء ماء عند مزايلة الحرارة إياه وانحصاره في مضائق، وهو غوّاص في الأجساد الذائبة بسهولة، وفي الحديد بعسر، كسّار للذهب مفتت إياه بجرمه وبرائحته إن فاحت من النار، وأمرّتها ريحٌ على الذهب بعيد عنه، بل تُفسد رائحته الصُنّاع والصاغة، وتؤدي بهم إلى التهيج والتورم والفالج. ولعسر تعلقه بالحديد، إلا مع الذهب يدهنون الدروع والبيض بملاغم الذهب، ثم يفضضونها بملاغم الفضة، ولم يعرف **جالينوس** حقيقة حاله، أهو معدني أم معمول عمل الأسفيداج[٢٤] والمرتك[٢٥]؟»[٢٦]

كما اطلع البيروني على ما ذكره ابن مندويه[٢٧] (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) نقلاً عن ماسرجويه[٢٨] (كان حيًا ٩٩ هـ / ٧١٧م) أن الزئبق معمول (أي مصنوع)، وعلى ما ذكره الآخرون أنه معمول من الأسرب، ورد عليهم بأن الزئبق ليس معمولاً، فقال: «وحكى ابن مندويه عن ما سرجويه أنه معمول، وقال غيره: من الأسرب، وليس كذلك، فإنه مُستخرج من أحجار حمر تُحمى في الكور[٢٩] حتى ينشق ويتدحرج الزئبق في بزال[٣٠]، ومنهم من يدقها ويُقطرها في آلات لها على هيئة التقطير بالقرع والأنبيق[٣١]، فيجتمع الزئبق في القابلة[٣٢]، وجميع الأحجار تطفو على وجه الزئبق ما خلا الذهب، فإنه يرسب فيه بفضل الثقل، لا لأنّ الزئبق يتعلق به ويجذبه لنفسه، كما ظن القوم، وقد امتحنا ذلك بشرائطه، فأسفر ذلك أنه من خصوصية الثقل فيه»[٣٣].

وتناول **ابن سينا**[٣٤] (٣٧٠ – ٤٢٧ هـ / ٩٨٠ – ١٠٣٧ م) موضوع الزئبق في عدد من مؤلفاته، ففي كتابه القانون في الطب قال: «زئبق: الماهية، منه مُشتق من معدنه، ومنه مُستخرج من حجارة معدنه بالنار استخراج الذهب والفضة، وحجارة معدنه إذا كان صافيًا لا يختلط به تراب أو حجر، فهو في لون الزنجفر، بل الزنجفر في لونه، ولا يلحقه».

وقد نقد ابن سينا ما كان يظنه جالينوس أنّ الزئبق مصنوع لأنّه مُستخرج بالنار، ولأنّه يشبه الزنجفر، وأكد أنّ الزنجفر مصنوع منه وليس العكس، فقال: «ويظن جالينوس وغيره أنه مصنوع كالمرتك، لأنه مُستخرج بالنار، فيجب إذنْ أن يكون الذهب مصنوعًا كالمرتك، ولأن جوهر حجره يشبه الزنجفر، فيظن أنه إنما يُعمل من الزنجفر في قدر مطينة وُقِد عليها فيصعد، وليس بذلك، بل الزنجفر يُعمل منه بالكبريت، ثم يمكن أن يُستخرج منه كما يُستخرج من الزنجفر المعدني الذي هو جوهر الزئبق. الطبع: بارد رطب في الثانية. الأفعال والخواص: مصعده قابض»[٣٥].

وفي موسوعته الشهيرة الشفاء تحدث ابن سينا

٢٤–أسفيداج: الرصاص الأبيض، وهو كربونات الرصاص القاعدية.

٢٥– المرتك: الأسرب المُحرق، وهو أكسيد الرصاص Pb O.

٢٦– البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٣٧٩، ٣٨٠. والطائي، علم الكيمياء والصيدلة عند العرب، ص ٤٣، ٤٤.

٢٧– ابن مندويه: أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصفهاني، طبيب، شاعر، خدم بعض ملوك العجم، عمل كطبيب في البيمارستان العضدي. حميدان، المجلد الأول، ص ٨٠–٨٣.

٢٨– ماسرجويه: طبيب، كحال، ناقل، فارسي الأصل، بصري الدار، سرياني اللغة، يعدّ من أوائل النقلة من السريانية إلى العربية. حميدان، المجلد الأول، ص ٤٠–٤١.

٢٩– الكور: آلة للنفخ وهو فرن ذو منفاخ.

٣٠– بزال: موضع يخرج منه الشيء المبزول أي المشقوق أو المثقوب أو المصفى، بزال أداة يثقب بها الشيء.

٣١– القرع والأنبيق: هما آلتا صناع الورد، وهي قوارير زجاجية.

٣٢– القابلة: أداة تحمل رطلاً أو نحوه، يجعل فيه ميزاب الأنبيق الأعمى.

٣٣– البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٣٨١.

٣٤– ابن سينا: هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا الشيخ الرئيس، عالم موسوعي برع في عدة مجالات كالطب والرياضيات والفلسفة والطبيعيات وأتقن اللغة العربية والفارسية، من آثاره: القانون في الطب، الشفاء. حميدان، م ١، ص ٣٢٩.

٣٥– ابن سينا، القانون في الطب، ص ٣٠٣.

عن ماهية الزئبق، وشبّهه بالماء الذي يُخالطه أرضية كبريتية لطيفة بحيث تكون مثل الغشاء على كامل سطحه، ولذلك لا يمكن أن ينحصر أو أن يعلق باليد، قال: «وأما الزئبق فكأنّه ماء خالطته أرضية لطيفة جدًا كبريتية مخالطة شديدة، حتى أنه لا ينفرد منه سطح لا يغشاه من تلك اليبوسة شيء، فلذلك لا يعلق باليد ولا ينحصر أيضًا انحصارًا شديدًا بشكل ما يحتويه بل يثبت على شكل ما، اللهم إلا أن يُغلب، وبياضه من صفاء تلك المائية، وبياض الأرضية اللطيفة التي فيه وبممازجة الهوائية إياه»[٣٦].

وتحدث **الهَمْدَانيُّ**[٣٧] (٢٨٠-٣٣٤هـ / ٨٩٣-٩٤٥م) عن الزئبق وخواصه كامتزاجه مع الذهب والفضة، وإمكانية استخلاصهما منه، وأنّه قد يكون في أماكن معادن الفضة، قال: «وقد يوجد الزئبق في سقوف معادن الفضة، جامد كأنه قطرُ الماء إذ يعلق، ومن الناس من زعم أن الزئبق يوجد في معادن خاصة، فيُستخرج بالتدخين»[٣٨].

٣٦- ابن سينا، الشفاء، الجزء الخامس، المعادن والآثار العلوية، ص ٢١.

٣٧- الهَمْدَانيّ: هو الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف، عالم موسوعي برز كمؤرخ وكيميائي وفلكي وعالم بالطبيعة والفيزياء وجغرافي وطبيب، من آثاره: الجوهرتان العتيقتان المائعتان من الصفراء والبيضاء. حميدان، م ١، ص ٢٩٨.

٣٨- الهَمْدَانيّ، الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، ص ١٦٧.

وقال: «وعلامة الزئبق الجيد أن يُسن في سفرة أديم فيخرج جميعًا، فإن كان رجيعًا بقي في السفرة ما كان فيه من الذهب، ورجيع الزئبق طلاء جيد، لأنه لم يدخله إلا ذهب أحمر، وعلامة الجيد أيضًا أن يكون برّاق الوجه صافيَهُ، والرجيع كدر الوجه عليه غُبرة سحائب رُبد»[٣٩].

وكذلك **ابن البيطار**[٤٠] ت (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م) جمع ما كتبه العلماء عن الزئبق، فقال: «(زئبق) أرسطو طاليس: حجر الزئبق حجر منحل في تركيبه يكون في معدنه كما تكون سائر الأحجار، وهو جنس من الفضة لولا آفات دخلت عليه في أصل تكوينه منها متخلخلة، وأنه شبيه بالمفلوج، وله أيضًا صرير ورائحة ورعدة، وهو يحمل أجسام الأحجار كلها إلا الذهب فإنه يغوص فيه. الطبري: أصل الزئبق من أذربيجان من كورة تدعى الشير. المسعودي: وبالأندلس معدن الزئبق وليس بالجيد. ابن سينا: منه منقى من معدنه ومنه ما هو مستخرج من حجارة معدنه بالنار كاستخراج الذهب والفضة، وحجارة معدنه كالزنجفر، ويظن ديسقوريدس وجالينوس أنه مصنوع كالمرتك، لأنه مستخرج بالنار، فيجب أن يكون الذهب أيضًا مصنوعًا»[٤١].

كما تحدث الطبيب **ابن النفيس**[٤٢] (٦٠٧-٦٨٧هـ / ١٢١٠-١٢٨٨م) عن ماهية الزئبق وخواصه، وبيّن

٣٩- المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤٠- الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٦٧.

٤١- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوات والأغذية، ص ١٧٧-١٧٨.

٤٢- ابن النفيس: هو علي بن أبي الحزم القَرْشِيّ الدمشقي المعروف بابن النفيس علاء الدين، كان إمامًا في الطب، ونبغ في الفقه وأصوله والنحو والبيان والحديث والسيرة النبوية والمنطق وغير ذلك، من آثاره: الشامل في الطب، الموجز في الطب. الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ٢٧١.

أنه من الأجسام المركبة وليس من الأجسام البسيطة، وأنّه سائل مائع، ولا يبلل ما يلاقيه، فقال: «إن الزئبق معلوم منه أنه ليس من الأجسام البسيطة، فإنا بيّنا أن الأجسام البسيطة التي في هذا العالم أربعة وهي: الأرض، والماء، والهواء، والنار، والزئبق ظاهر من أمره أنه ليس بواحد من هذه، فظاهرٌ أنه ليس من الأجسام البسيطة، فهو من الأجسام المركبة، ولأنه سائل مائع ذائب بالفعل، ففيه لا محالة مائية، ولكنه ليس يبل ما يلاقيه، ولا يتعلق بجميع الأجسام، فظاهرٌ أنه لا بد أن يكون بين ما فيه من المائية، وبين ما يلاقيه حائلٌ يمنع من ذلك، وهذا المانع ليس يصلح أن يكون ناريًا أو هوائيًا، فهو لا محالة أرضي».

«فلذلك لا بد أن يكون في جوهر الزئبق جزء مائي كثير، وجزء أرضي لطيف جدًا». ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ماهي الخواص التي يجب أن يتمتع بها هذا الأرضي ليمنع البلل؟

ذكر ابن النفيس بهذا الخصوص احتمالين الأول: «وإنما يمكن ذلك بأن يكون هذا الأرضي مغشيًا لكل جزء يحصل من الزئبق، حتى يكون حائلًا بين مائية الزئبق وبين الملاقي، فلا يتعلق ذلك الجزء بالملاقي ولا يبله، كما هي عادة الماء».

والاحتمال الثاني: «وإنما يمكن ذلك بأن يكون هذا الأرضي كذلك إذا كان متصغر الأجزاء جدًا، حتى يكون مع تغشيته لكل جزء من مائية الزئبق غير ظاهر محسوس، وإنما يمكن هذا التصغر إذا كان هذا الأرضي من أرضية شديدة اللطافة جدًا، ولولا ذلك لما كان الزئبق سهل التصعيد جدًا، فإن الأرض بطبعها يعسر تصعيدها، إلا أن تكون شديدة اللطافة جدًا.»[٤٣]

وذهب ابن النفيس لأبعد من هذا ليثبت أن الزئبق يمتلك **خاصية الدهنية** التي تمنع البلل، وذلك من خلال مراقبته لآلية التصعيد وتوفر الحرارة، وهذه الخاصية ضئيلة جدًا بالمقارنة مع خاصية المائية مما يمنعه من الاشتعال، فقال: «وقد تجد الزئبق يتصعد بنفسه، وإن لم تلاقه حرارة يُعتد بها، ولذلك إذا جُعل في الأواني يفارقها متصعدًا، وتصعد كل واحد من الماء والأرض إنما يكون بحرارة، فإذن لا بد أن يكون في الزئبق حرارة مُصعدة، فإذن لا بد أن يكون فيه نارية. إن جميع الأجسام التي أرضيتها شديدة اللطافة، وفيها حرارة ومائية فإنها لا تخلو من الدهنية، فإذن الزئبق لا بد أن يكون فيه دهنية ولذلك لا يبل، ولا يلصق على اليد، وهذه دهنية ليست كثيرة جدًا، وإلا كان يشتعل، وليس كذلك، بل هي في الزئبق يسيرة، والمائية فيه كثيرة، فلذلك هو لا يشتعل».

ولخص ما سبق بقوله: «فإذن جوهر الزئبق لا بد أن يكون فيه مائية، وأرضية، ونارية، وهوائية، ولابد أن تكون مائيته كثيرة غالبة، ولذلك هو سائل كالماء، وبعد هذه المائية في الكثرة الأرضية، لأن هذه الأرضية لو لم تكن كثيرة في الزئبق لما كان رزينًا جدًا، ولا كان خائرًا ذا قوام يُعتد به».

جميع الخواص التي ذكرها ابن النفيس والتي يتصف بها الزئبق جعلته يؤكد أن الزئبق غير صالح كغذاء للأعضاء أو الروح، فقد قال: «ولما كان تكوّن الزئبق مما ذكرنا، فهو غير شديد المناسبة لجواهر الأعضاء، وذلك لأن جوهر الأعضاء لابد أن تكون أرضيتها كثيفة معادلة لما فيها من الهوائية والنارية، والزئبق ليس كذلك، والزئبق غير صالح لتغذية الأعضاء، ولا هو أيضًا صالح لتغذية الأرواح، وذلك لأجل قلة هوائيته جدًا، فلذلك كان الزئبق غير صالح للتغذية البتة، فلذلك هو دواء غير غذائي».

٤٣- ابن النفيس، الشامل في الصناعة الطبية الأدوية والأغذية: كتاب الزاي وكتاب السين، ص ١٩٧.

أما عن طريقة الحصول على الزئبق وتحضيره فقد قال: «ومن الزئبق ما يُستخرج من معدن يُنسب إليه، ومنه ما يوجد في معادن الفضة كقطرات الماء، ومنه مصنوع يُتخذ من حجارة كالزنجفر، وتُجعل في قدر على رأس أنبيق، ويوضع في الأتون[٤٤]، فما تدخّن من تلك الحجارة، وقُطِر في الأنبيق كان زئبقًا، فإنه يحمل الأجسام جميعها إلا الذهب، فإنه يغوص في الزئبق إلى قعره، وذلك لأجل إفراط ثقل الذهب، وفي المصعد من الزئبق حدة وحرفة وأكل، وذلك لأجل احتداد حرارته واشتداد ناريته، بزيادة الأرضية ونقصان المائية، وبما تُفيد الحرارة المصعدة من النارية، وكذلك المقتول من الزئبق شديد الأكل جدًا، ولذلك يقتل»[٤٥].

ويأتي **الجلدكي**[٤٦] ت (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م) وهو كيميائي متأخر اطلع على مؤلفات من سبقه من علماء الكيمياء والأطباء، وعلى آرائهم عن ماهية الزئبق وخواصه، وأماكن وجوده وطريقة استخراجه، ومنافعه ومضاره بالنسبة لجسم الإنسان، وقدم مادة علمية غنية.

قال: «القول على الزئبق: وهو نوعان معدني ومصنوع، وكلٌّ منهما رجراجٌ، فالمعدني يُقال إنه يُستخرج من بحيرة بأرض الزنج، أو قال بأرض البربر الأقصى، وقيل إنّما يستخرج من حجارة معدنية، ثم يُصوّل كما تُصوّل سحالة الذهب والفضة، والمصنوع يقال إنّه يُستخرج من الزنجفر المعدني، وبالجملة الزئبق يهرب من النار ويصعد بخارًا»[٤٧].

«وقد برهنا على وجود معادن الزئبق في أماكن شتى وأراضٍ كثيرة، لكن أكثرها بنواحي المغرب والأندلس إلى أراضي الروم شمالًا وإلى الجزائر الخالدات جنوبا».

شرح الجلدكي بدقة متناهية خطوات الحصول على الزئبق، والآلية المستخدمة في تجميعه والحفاظ عليه، مع ذكر الأدوات المستخدمة في كل مرحلة من المراحل، كما ذكر الحيل المستخدمة في تجميع الزئبق وأهمها استخدام آلات من الرصاص مربوطة بسلاسل من حديد يغرفون بها الزئبق، فقال: «وتارة يجتمع منه ما يسيل إلى حفر كالآبار، ويصير له عيون نابعة ويثقل وينزل ويستقر ويتكسر بعضها على بعض، فتارة تجتمع منه مقادير متفرقة الأشكال في قطع من طين، فيطبخ به الطين اللزج ويتماسك ويطبخ بحرارة المعدن، فإنّه يحفرون عليه في تلك المغاير المعتادة بذلك، فيجدون الزئبق يسيل من نواحيها تارة، وتارة يجدون هذه المقادير التي أشرنا إليها من الطين، فيجدون فيها الثقل والرزانة وقد تصلبت وصارت كالفخار، فيأخذونها فيكسرونها في آلات كالأحواض المعدودة من الفخار، ويسحقونها ويفيضون عليها الماء، ويغسلون الطين الخفيف بالماء الحار جدًا، ويصولون الزئبق راسبًا في قعور الأواني، ويرفعونه في أجرّته مدبوغة وفي قماقم مصنوعة من فخار ضيقة الأفمام. وأما ما يصير منه في الحفر والآبار ويتراكم فيغرفونه غرفًا، ويحتالون في غرفه بالرصاص الأسرب أدن الأواني النحاس حفافًا، فإذا أرسلوها بالحبال، فإن ترسب فيه لحقها، فإذا جعلوا الآلات من الرصاص، وأدلوها بسلاسل من حديد وأمالوها، فإن الزئبق يموج ومع تموجه يتمكن الغارف من غرفه بسرعة الحركة ويرفعونه، ولهم في

٤٤- الأتون: تنور، فرن من طين.

٤٥- ابن النفيس، الشامل، ص ١٩٨-٢٠٢.

٤٦- الجلدكي: هو عز الدين أيدمر بن علي الجلدكي، اختلفت المصادر في اسمه واسم أبيه، ولد في جلدك من قرى خراسان على فرسخين من مشهد الرضا، درس الجلدكي في قريته العلوم الأساسية، ثم انتقل بين القاهرة ودمشق، وقضى سبعة عشر عامًا في الترحال في طلب العلم من شيوخ الكيمياء. الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٥.

٤٧- الجلدكي، درة الغواص وكنز الاختصاص، ص ٣٨.

استخراجه من معادنه حيل كثيرة أعرضنا عن ذكرها، لأنّ أصحابها يعرفونها، فهي متداولة بينهم ولا منفعة لنا فيها، وإنما المنفعة لنا في العلم المتعلق بهذا المعدن وبأسراره والسلام»(٤٨).

ومن المتأخرين نذكر أيضًا **المغربي**[٤٩] (كان حيًا ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) الذي نقل عن أرسطو: «إن الزئبق فضة إلا أنه دخل عليه آفة في معدنه، وآفات الزئبق كآفات الرصاص الداخلة عليه في معدنه أيضًا»[٥٠].

كما قرأ مؤلفات الجلدكي، فقال وهو يصف ماهية الزئبق: «وقال درة الغواص: هو نوعان معدني، ومصنوع، وكلاهما رجراج، فالمعدني يُقال إنه يُستخرج من حجارة بحيرة بأرض الزنج، أو قال بأرض البربر الأقصى، وقيل إنما يُستخرج من حجارة معدنية ثم يُصول كما تصول سُحالة الذهب والفضة، وأما المصنوع يُقال إنه يُستخرج من الزنجفر المعدني، وبالجملة الزئبق يهرب من النار ويصعد بخارًا».

وقد ذكر المغربي قصة تدعو للدهشة ولا يعلم حقيقتها، بل حسب ما نُقلت له وهي: «وحكى لي من أهل الصين، أنه رأى بحيرة بأرض مابط، أو قال بأرض ميومة، وهذه البحيرة إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع أحد أن ينظر إليها إلا تفرقعت عيناه، وإذا اشتدت الشمس بأن وقفت الشمس في قبة الفلك كمنوا في بيوتهم، فسأل بعض أهل تلك الأرض كيف السبيل في استخراج شيء منه؟ فقالوا له: إنا إذا أردنا ذلك جللنا فرسًا بجلال من الذهب حتى لا يبقى منه شيء مكشوف من غير ذهب، ثم يركبها فارس وكل ما عليه من ذهب، ويجوب بجانب البحيرة ويسوق، فإذا ساق تبع الزئبق جريًا من الذهب لأنه يعشقه، فيقع في حفرة قد هُيئت له حول البحيرة، فيؤخذ حينئذ»[٥١].

أعراض التسمم بالزئبق وعلاجاتها

استخدم الأطباء العرب كثيرًا من المعادن في علاج الأمراض نظرًا لمنافعها الطبية وفوائدها الصحية، وقد حرصوا على التحذير من المعادن التي تؤثر على صحة الإنسان، وتُحدث أمراضًا في الأبدان منها الزئبق، وتؤكد مجموعة من نصوص التراث الطبي العربي أن استخدام معادن معينة من شأنه أن يتسبب في أمراض متنوعة وخطيرة قد تكون مميتة، ونقدم هنا بعضًا منها تبين خطر الزئبق على الجسم وما هي الترياقات المستخدمة في حالات التسمم.

فقد ذكر الرازي: «قال ديسقوريدس: إنه يقتل متى شُرب، لأنه يأكل ما يلقاه من الأعضاء بثقله، وقد ينفع من مضرته اللبن، متى شُرب منه مقدار كثير ويُقيأ به، والخمر أيضًا ينفع من مضرته إذا شُرب بالأفسنتين[٥٢]، أو ببزر الكرفس، أو مع فوذنج الجبل[٥٣]، أو الزوفا[٥٤]، فإنه ينفع من مضرته. وقال جالينوس: ليس عندي منه تجربة، ولا محنة هل يقتل متى شُرب، ولا ما يفعل إذا وضع من الخارج. قال بولس: هو من القتالة، ومن الناس من يحرقه حتى يصير كالرماد، ويخلطه بأشياء أُخر، ويسقيه أصحاب القولنج[٥٥] وإيلاوس[٥٦]. قال الخوزي: ينفع

٤٨- الجلدكي، أنوار البيان وأسرار البرهان في فهم أوزان علم الميزان، الجزء الرابع، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٤٩- المغربي: هو أحمد بن عوض بن محمد الإمام، كيميائي طبيعي، من آثاره: قطف الأزهار من خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار. حميدان، م ٥، ص ٦٨.

٥٠- المغربي، قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار، ص ٢٧.

٥١- المصدر السابق، ص ٢٧، ٢٨.

٥٢- الأفسنتين: نبات، ويسمى أيضًا الشيح الرومي- خُتْرف- شَيْبة العجوز.

٥٣- فوذنج الجبل: نوع من النبات الجبلي.

٥٤- الزوفا: نبات ويسمى أيضًا أشنان داوود- حِسل- جَسْمى.

٥٥- القولنج: وهو القولون العصبي.

٥٦- إيلاوس: وهو مثل القولنج إذا عرض في المعي الدقاق، وقد يعرض من جَميع الأسباب الَّتي يعرض لها القولنج.

مـن الجـرب، والقـروح الرديئـة، وترابه يقتـل الفأر. السموم: قال: هو قاتل متى شُرب»[٥٧].

وذكـر ابـن سـينا أن الزئبـق يتسـبب بـألم شـديد، واختـلال العقـل، والتشـنج، وقد يـؤدي إلى الصرع، قـال: «فصـل في الزئبق، أما **الزئبـق الحي**، فإنّ أكثر من يشربه لا يتضرر به، فإنّه يخرج بحاله من الأسفل، بل من يُصـب في أذنه الزئبق الحي، فإنّه يعرض له ألم شـديد واختلال عقل، وربما تأدى إلى التشنج، ويُحس بثقل شـديد من ذلـك الجانب، وربما تـأدى إلى صرعة وسـكتة، لتأذي جوهر الدماغ ببرده ورجرجته وثقله، **وأمـا الميت والمصـعد**[٥٨]، فإنه رديء مُضـار مُقطع تعرض منه أعراض شبيهة بأعراض من يشرب المرتك من مغص، والتواء أمعاء، وثقل اللسـان، وثقل المعدة، ويورم الجسم، ويحتبس بوله»[٥٩].

أما العلاج فيكون بقوله: «فصـل في العلاج: من جيد العـلاج له بعـد تقيئه وما يجـري مجراه أن يُسـقى من الأدوية مثل المر وزن ثلاثة دراهم في شراب، أو يُسقى ماء العسل مرة بعد مرة، وأيضًا فليُحقن به مع البورق[٦٠]،

٥٧– الرازي، الحاوي في الطب، الجزء العشرون، ص٥٩٧، ٥٩٨.

٥٨– الزئبـق المصـعد أي يتحول من الحالة الصـلبة إلى الغازية دون المرور بالحالة السـائلة، والزئبق الميت أو المقتول هو الزئبق المسـحوق مع بعض الأدوية الترابية بالخل، وكلا النوعين شديدُ الخطورة.

٥٩– ابن سينا، القانون في الطب. الجزء الثالث، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

٦٠– البورق: ملح يذوب بسهولة في الماء الدافئ، وبصعوبة في الماء البارد.

ثم يتبع ذلك بعلاج السـحج وحقنه مع تقوية القلب أيضًا بالأدوية المشـتركة، وأما إذا كان الصـب في الأذن فيجب أن يقـوم على فرد رجل، ويُجعل على ذلك الشـق قد ميل رأسـه أكثر ما يمكنه مـن التمييل وخصوصًـا إذا تعلق باليد التي في الجانب الآخر شـيء، وكذلك إذا أترع على ذلك الشـق الذي يريد أن يلقطه بميل من رصاص يدخل في الأذن، فيجد الزئبق يتعلق به فهو مخطئ، لأن الزئبق إذا كان في ذلـك الموضـع وبالقـرب منـه، فإنـه لا يحتاج إلا إلى ترجـح وحجل فقـط، وإن كان أغوص من ذلك لم ينتفع بذلك الميل ولا يصل إليه»[٦١].

وذكـر ابـن سـينا أن المقتـول منـه دواء للقمـل والصـيبان مع دهـن الورد، وللجرب مـع دهن الورد، وبخاره يحدث الفالج، والرعشـة، وتشـبك الأعضـاء، ودخانه يذهب السمع والبصر.

«المصعد من الزئبق قتّال، لشدة التقطيع، وعلاجه القـوي شـرب اللبن، والقـيء، وجالينوس ذكـر أنه لا تجربـة له فيه، وقال بعضـهم إن المقتـول يقتل بثقله، فإنه يأكل ما يلقاه بثقله، وهذا كلام غير مُحصل، وهو يقتل الفار، ويهرب من دخانه الهوام والحيات»[٦٢].

ونشـير إلى أن ابن سـينا قد ذكر كثيرًا من الأدوية الموضـعية والمركبة يدخـل في تركيبها الزئبق لا مجال لذكرها هنا.

وذكـر الهَمْـدَانيُّ: «والزئبـق فيـه حـدة، فيُسـقى صـاحب رياح القولنج عند اليأس منـه، فإما فتح معاهُ بحدته فاستراح، أو زاده انعقادًا فأصماه فمات، وإذا وقـع في أذن دابة قتلها، وهو لفـرط رطوبته يُعقِبُ داء الفالج والرعشة»[٦٣].

أمـا ابن البيطـار فقال: «**فـتراب الزئبق** ينفع من الجـرب والحكة إذا طلي عليها مع الخـل، ويقتل الفأر

٦١– المصدر السابق، ص ٢٢١.

٦٢– المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٠٣.

٦٣– الهمداني، ص ١٦٧.

إذا عجـن في طعامـه، **أمـا دخـان الزئبق** فهـو يحدث أسقامًا رديئة كالفالج ورعدة الأعضاء، وذهاب السمع والعقل، والغشـاوة وصـفرة اللون والرعشة وتشبك الأعضـاء وتيبس الدماغ، والموضـع الـذي يرتفع فيه دخانه تهرب منه الهوام من الحيات والعقارب وغيرها، وللزئبق خصوصـية في قتـل القمل والقـردان المتعلق بالحيوان، وهناك من يحرق الزئبق حتى يصبح رمادًا ويخلطـه مع أنواع أخرى ويسـقى أصـحاب القولنج وأصـحاب العلة المسـماة إيلاوس، وإذا شرب الزئبق قتل كل ما يلقاه من الأعضاء الباطنة».

ولعلاج التسـمم بالزئبـق ذكر ابـن البيطار بعض المـواد فقـال:« لذلـك يجب شـرب اللبن بمقـدار كبير، وكذلـك الخمـر بالأفسـنتين، وبـزر الكرفس، وبـزر النبات الذي يقال له أرمنين لتجنب مضرته»[٦٤].

وتحدث ابن النفيس عن مضـار الزئبق على جسـم الإنسـان بشكل مشابه لما ذكره ابن سينا، وذكر بعض الترياقـات لـه، كاللبن والخمر وغـير ذلك، وتحدث عن إمكانية استخدامه كدواء للقمل.

قال: «إنّ الزئبق لأجل رداءة جوهره، وبُعد مشابهة جواهر الأعضاء، فهو شـديد الإضرار بالأعضاء ولو مـن الخـارج، ولذلـك إذا ورد مـن خـارج البـدن ضر الدمـاغ جـدًا، والحواس وضـر المعـدة وغيرهـا من الأعضاء الهاضمة، ولأجل ضرره بالدماغ وأعضائه، هو يُحدث الفالج، والرعشة، وتشبك الأعضاء، ودخانه يُذهب السـمع والبصر، ويُبخر الفم دفعة، ويهرب من دخانه الفأر، والهوام، والحيات، لأجل منافاة جوهره لطبيعة الحيوان، ومن ترياقاته: اللبن، والخمر، وبزر الكرفس، والفوذنج، ونحو ذلك».

والمقتول من الزئبق شديد القتل للقمل، والصيبان، والقراد، وشـديد النفع للجرب، والقروح الرديئة، كل ذلك بدهن الورد، وسـبب ذلك شـدة تأكيله، وقد سقاه قـوم لإيلاوس فانتفع به، ويشـبه أن يكـون ذلك لأجل قـوة نفوذه في الأمعـاء، فينفذ معه ما يكـون في الأمعاء الدقاق من التفل اليابس ونحو ذلك[٦٥].

ولم يغفـل الجلدكي أيضًـا عن ذكر أضـرار الزئبق، فقـال: «بخاره يورث الرعشـة، والفالـج، وإن جمع مع دهـن الـورد وطُلي به الرأس في الحمام قتـل القمل من الرأس، والمصـعد منه قتّال لشـدة تقطيعه، فإن صُـب في الأذن اختلـط منـه العقـل، وورّث الصـرع والسـكتة والصـمم، وإذا شُرب من غير تصـعيد ولا قتل خرج من المخـرج بحاله، فإن صُـب في أذن أحد وأردت أن يخرج، فتأمره أن يحجل على فرد رجل ويميل بإذنه إليهما فإنّه يخرج، وداوِ من سُقِيَ منه بالقيء، وشُرب اللبن الحليب، والأمراق الدسمة، فإنّه يتقيَّؤُه بإذن الله تعالى»[٦٦].

أمـا المغربـي فقد قـال: «وخواصـه أن ترابه يقتل الفـأر إذا جُعـل طعامـه أو نحوه، ومن دنـا من دخانه وهو في النار أملجه، أو أحدث أسقامًا رديئة مثل الرعد، والفالج، وذهاب السـمع، وصفرة اللون، والرعشة في الأعضـاء، والبخر ويبس الدماغ، والحيات تهرب منه والهـوام جميعًا من دخانه، ومـن أقام عنده منهم مات ومن هرب أيضًا مات، وإن طُرح الزئبق في تنور الخباز سقط جميع خبزه في النار»[٦٧].

وذكر المغربـي نقلا عن الجلدكـي: «وبخاره يورث الرعشـة، والفالج، واللوقة، ويُفـتر همة الرجل الكثير المباشـرة ويعوقـه عـن الجمـاع، وإن جُمـع مـع دهن الورد، وطُلي به الرأس في الحمام قتل القمل في الرأس.

٦٤- ابن البيطار، ص ١٧٨.

٦٥- ابن النفيس، ص ١٩٨- ٢٠٢.

٦٦- الجلدكي، درة الغواص وكنز الاختصاص، ص ٣٨.

٦٧- المغربـي، قطف الأزهار في خصـائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار، ص ٢٧.

والمصعد منه قتال لشدة تقطيعه، فإن صُب في الأذن اختلط العق وأورث الصرع، والسكتة، والصمم، وإذا شُرب من غير تصعيد ولا قتل خرج من المخرج بحاله، فإذا صُب في الأذن وأردت أن تخرجه فأمر من صُب في أذنه أن يحمل على فرد رجل ويميل بأذنه إليه، فإنه يخرج من ورائه، ومن سُقي منه بالقيء وشرب اللبن الحليب والأمراق الدسمة، فإنه يتقيَّؤه بإذن الله»[٦٨].

الخاتمة

نجد مما سبق أن النظرية التي كانت سائدة قديمًا هي نظرية الزئبق والكبريت، فجميع المعادن تتشكل من اتحاد الزئبق والكبريت بنسب مختلفة، فقد عرف القدماء الزئبق وتعددت الآراء حول ماهيته أهو معدنٌ أم مركبٌ؟ وذكر ذلك صراحة جابر بن حيان: «ولكل ملة من الملل لأهل الصناعة في الزئبق رأي»، إذ اعتقد القدماء أن الزئبق مصنوع من الزنجفر، أو أنّه معمول من الأسرب، إلا أن العلماء العرب بينوا أنّ الزنجفر هو الذي يُصنع من الزئبق والكبريت وليس العكس، وأنه سائل رطب مائع رجراج، وأن معظم المعادن تطفو على الزئبق عدا الذهب، وذلك لأنّ الذهب أثقل من الزئبق، كما أن الزئبق يمتزج مع معظم المعادن بسهولة عدا الحديد فإنه يعسر مزجه معه، وهو من المعادن شديدة السمية، وله مخاطر كبيرة على صحة الإنسان.

ويُعد الزئبق من المعادن المهمة في وقتنا هذا، فقد أجريت عليه دراسات كثيرة تبين خواصه وتطبيقاته في الحياة العملية، فالزئبق ومركباته تدخل في صناعة الكلور والغاز، والبطاريات، والصناعات الطبيّة كحشوة الأسنان، كما يستخدم في صناعة الملغمة، وهي عبارة عن إحدى أنواع السبائك المكونة من الزئبق والذهب، إلا أنه من المصادر الأساسية في التلوث، فهو شديد الخطورة على الإنسان والبيئة.

٦٨- المصدر السابق، ص ٢٨،٢٧.

المصادر والمراجع

١. **ابن أبي أصيبعة**، أبو العباس أحمد، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت،١٩٦٥م.

٢. **ابن البيطار**، ضياء الدين عبد الله بن أحمد، **الجامع لمفردات الأدوات والأغذية**، طبعة بولاق، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣. **ابن حيان**، جابر، **تدبير الإكسير الأعظم أربع عشرة رسالة في صنعة الكيمياء**. حققها وقدم لها بيير لوري، الطبعة الأولى، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ليماسول، قبرص، ١٩٨٨م.

٤. **ابن حيان**، جابر، **الخواص الكبير**، نسخة مصورة عن جامعة الملك سعود برقم ٢٧٩٧.

٥. **ابن حيان**، جابر، **كتاب السبعين**، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، يصدرها فؤاد سزكين، السلسلة ج عيون التراث، المجلد ٣٢، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية.

٦. **ابن سينا**، أبو علي الحسين بن علي، **القانون في الطب**، الجزء الأول، طبعة جديدة بالأوفست عن طبعة بولاق، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة.

٧. **ابن سينا**، أبو علي الحسين بن علي، **الشفاء، الطبيعيات**، الجزء الخامس المعادن والآثار العلوية، تحقيق الدكتور عبد الحليم منتصر وسعيد زايد وعبد الله إسماعيل، راجعه وقدم له الدكتور إبراهيم مدكور، منشورات مكتبةآية الله العظمى المرعشلي النجفي، قم المقدسة، إيران ١٤٠٤ق، الهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٨.**ابن النفيس**، علاء الدين القَرْشي، **الشامل في الصناعة الطبية الأدوية والأغذية: كتاب الزاي وكتاب السين**، دراسة وتحقيق دكتور يوسف زيدان، الجزء الرابع عشر والخامس عشر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م.

٩.**إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء**، المجلد الثاني، الجسمانيات الطبيعيات، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.

١٠. **إسكندراني**، ياسر، **الملاغم (ماهيتها، أنواعها، استخداماتها) في التراث العلمي العربي**، رسالة دكتوراه، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ٢٠٢١م.

١١. **بالياس الحكيم، سر الخليقة وصنعة الطبيعة** (كتاب العلل)، تحقيق أورسولا وايسر، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ١٩٧٩م.

١٢. **بروكلمان**، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، ط٣، ج٤، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٨٣م.

١٣. **البيروني**، أبو الريحان، **الجماهر في أحوال الجواهر**، تحقيق يوسف هادي، ط١، شركة النشر العلمي والثقافي، طهران، ١٩٩٥م.

١٤. **الجلدكي**، أيدمر بن علي، **درة الغواص وكنز الاختصاص**، نسخة مصورة في معهد التراث العلمي العربي برقم ٥٣.

١٥. **الجلدكي**، أيدمر بن علي، **أنوار البيان وأسرار البرهان في فهم أوزان علم الميزان**، الجزء الرابع، نسخة مصورة من مكتبة قطر الوطنية برقم (WMS. Or. ٢٩٩).

١٦. **حميدان**، زهير، **أعلام الحضارة العربية الإسلامية**، المجلد٢ والمجلد٥، الإشراف الفني زهير الحمو، الخطوط عبد الرزاق قصيباتي، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ١٩٩٥م.

١٧. **الرازي**، أبو بكر محمد بن زكريا، **كتاب الحاوي في الطب**، الجزء العشرون، ١٩٦٧م.

١٨. **الزركلي**، خير الدين، **الأعلام**، ط١٥، ج٤ وج٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٩. **سزكين**، فؤاد، **تاريخ التراث العربي**، ترجمة عبد الله حجازي، المجلد الرابع، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، ١٩٨٦م.

٢٠. **شقرة**، جورج إلياس، **تحقيق ودراسة مخطوط السر الرباني في علم الميزان لمؤلفه علي جلبي بن خسرو بيك الأزنيقي**، رسالة دكتوراه، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ٢٠١٠م.

٢١. **الشكري**، جابر، **الكيمياء عند العرب**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.

٢٢. **العمري**، ابن الفضل شهاب الدين، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

٢٣. **الطائي**، فاضل، **علم الكيمياء والصيدلة عند العرب**، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م.

٢٤. **الهَمْدَانيّ**، الحسن بن أحمد، **الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء**. تحقيق الدكتور أحمد فؤاد باشا، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٢٥. **المغربي**، أحمد بن عوض، **قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار**، تحقيق بروين بدري توفيق.

الرقابة الطبية
وأدب الطبيب في الحضارة العربية

سـاره حسـوني*

مقدمة

عُرفت مهنة الطب منذ القدم، وقد أدرك الأطباء ضرورة وضع ضوابط تضبط الممارسة الطبية، وتحدد العلاقة بين الطبيب والمريض، وقد اهتمت معظم الحضارات بهذا الموضوع، ومنها الحضارة العربية التي عرفت نمطًا فريدًا من أنماط التصنيف الطبي سمي أدب الطبيب، ونتيجة لذلك أصبحت مهنة الطب ذات التزامات أخلاقية ومسؤوليات مهمّة تجاه المرضى والمجتمع.

وقد وُضعت التشريعات والنصوص المحددة لتلك المسؤولية، ولعل أقدم تلك التشريعات ما تضمنته قوانين شريعة حمورابي في ذلك، وبتطور العلوم الطبية عبر مختلف العصور تطورت تلك التشريعات أيضًا على نحوٍ ينسجم مع تطور الطب.

ولما جاء الإسلام وضع ضوابط وقوانين لممارسة الطب، وحدد الأطباء العرب القدامى وعلماء الشريعة الإسلامية شروطًا لانتفاء مسؤولية الطبيب إذا وقع خطأٌ طبّيّ.

ويُعد ابن قيم الجوزية أحد الذين فصّلوا وفنّدوا تلك الشروط في كتابه الطب النبوي[1]، ولما ازداد عدد الأطباء الممارسين لصناعة الطب في البلاد العربية والإسلامية، كان من الضروري إنشاء نظام يتولى مراقبة سلامة هذه المهنة، وهذا النظام سمي بنظام الحسبة، وقد أُلِّفَ كثير من الكتب التي سميت كتب الحسبة.

وعليه نهدف في هذا البحث شرح مفهوم الرقابة الطبية وأدب الطبيب من خلال نصوص وردت في أهم المؤلفات الطبية العربية.

* صيدلانية باحثة في تاريخ العلوم الطّبّيّة عند العرب.

١- للاطلاع على الشروط انظر: ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص١١٢-١١٤.

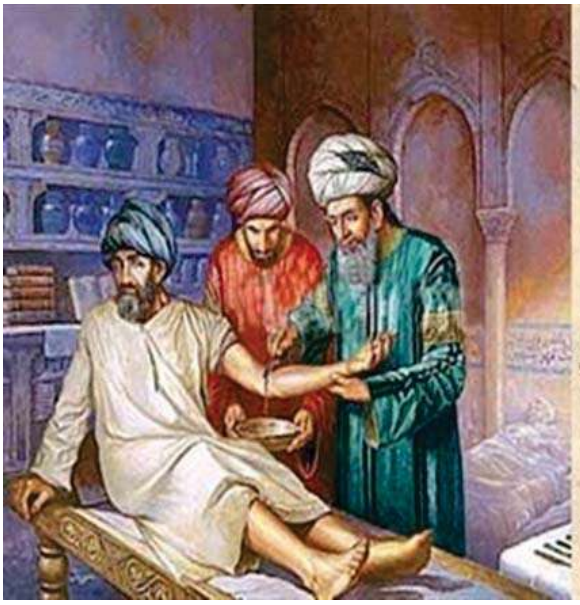

الرقابة الطبية وأدب الطبيب في الحضارات القديمة:

أولًا:

قوانين شريعة حمورابي في بابل (١٧٢٨-١٨٢٦) ق.م

١- حمورابي هو الملك السادس في الأسرة البابلية الحاكمة، التي حكمت وسيطرت على وسط بلاد الرافدين طيلة ثلاثة قرون، منذ عام ١٨٩٤ حتى عام ١٥٩٥ قبل الميلاد. دامَ سُلطانه قرابة ٤٢ عامًا بين ١٧٩٢ - ١٧٥٠ قَبلَ الميلاد، وضع مجموعة قوانين يبلغ عددها ٢٨٢ مادة قانونية سميت قوانين شريعة حمورابي، وقد ضمت فقرات عديدة تتعلق بأجور الأطباء وبالعقوبات التي تفرض عليهم إذا ارتكبوا خطأً طبّيًّا، نذكر منها:

ورد في القانون رقم ٢١٨:

«إذا عالج الطبيب جرحًا بالغًا أصيب به رجل بمبضع معدني وسبب موته، وإذا شق ورمًا بمبضع جراحي معدني، وعطلّ عين الرجل، تقطع يده».

وورد في القانون رقم ٢١٩:

«إذا عالج طبيبٌ عبدَ رجلٍ من عامة الشعب بمبضع جراحي وسبب موته من الجرح، فعليه أن يعطي سيده عبدًا بعبد».

وفي القانون رقم ٢٢٠:

«إذا شـق الطبيب الورم بمبضـع معدني جراحي، وعطلّ عين المريض، يدفع نصف قيمة العين فضة».

كمـا نصت تلك الشريعة على تطبيق العقوبات على المشعوذيـن، ومـن بينهـا عقوبـة الموت، وقـد اعترفت شريعـة حمورابـي بالجراحـين فقـط؛ لأن الأمراض الباطنية كان يعالجها الكهنة[٢].

٢- قسم أو عهد أبقراط[٣] اليوناني Hippocrate (٤٦٠- ٣٧٥ ق. م)

قسم أبقراط

وُضعـت في الحضـارة اليونانية أنظمـة لمعاقبة من يسـيء إلى شـرف المهنـة أو يستغلهـا، وكان الأطبـاء اليونانيون يختارون واحـدًا من بينهم يثقون بخبرته وأخلاقـه لمراقبة أعمال الممارسـين والنظر في شكاوى الناس.

وقـد اشترط الطبيب اليونـاني إسقليبوس على من يريد أن يتعلم مهنة الطب أن يكون من أسرته المقدسة، أو من أسرة معروفة بحسبها ونسبها.

ووضـع الطبيـب أبقـراط قسمًـا ألزم بـه الطلاب المتدربـين يحلفونه قبـل أن يُقبلوا كأعضـاء في جمعية الأطباء الكوسيين، وهو يعطي فكرة جلية عن واجبات الطبيـب وآدابه، وهو يتضمن الالتزام ببعض القواعد الأخلاقيـة مـن جهة، ومجانبـة أفعال شائنـة من جهة أخرى.

ذكر ابن أبي أصيبعة: «فلما نظر أبقراط في صناعة الطب، ووجدها قـد كادت تبيد، لقلة الأبناء المتوارثين لهـا مـن آل إسقليبوس، رأى أن يذيعهـا في جميـع الأرض، وينقلها إلى سائـر الناس ويعلمها المستحقين لهـا، ووضـع عهدًا استخلـف فيه المتعلم لهـا، على أن يكـون لازمًـا للطهـارة والفضيلـة، ثم وضـع ناموسًـا عرَّف فيه من الذي ينبغي له أن يتعلم صناعة الطب، ثم وضـع وصيةً عرَّف فيهـا جميع ما يحتاج إليه الطبيب في نفسه»[٤].

وينص قسم أبقراط على ما يأْتي:

«أقسـم بأبولـو الطبيـب، وإسكلابيوس، وهيجا، وبانيسيـا وأشـهد جميع الآلهة علـى أني سوف أحفظ عهـدي الثـاني، حسـب إمـكاني وحكمـي: أن أعِـزّ من علمني هـذا الفن كمعزتـي لوالدي وأشركـه معاشي، وإن احتـاج فأقاسمـه مـالي، وأعتبر ذريتـه كإخوتي، أعلمهـم هـذا الفـن دون أجـر وشـرط. سـوف أبـوح لأولادي وأولاد مـن علمنـي وجميـع التلاميـذ الذيـن قيدوا أنفسهم، ووافقوا على قواعد المهنـة لهؤلاء دون

٢- مراد، لمحات من تاريخ الطب القديم، ص٣٧.

٣- اقـرأ عن ترجمـة أبقراط في القفطي، تأريخ الحكماء، ص ٩٠-٩٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٣-٥٣.

٤- ابن أبي أصيبعة، ص٤٤-٤٥

غيرهـم، نواميسهـا ووصاياها. سـوف أصف العلاج لمنفعة مرضاي حسب قدرتي وحكمي، ولن أؤذي أحدًا، ولـن أصف دواء قتالًا، أو أنصـح بما قد يسبب الموت إرضـاءً لأحـد، ولا أعطي امرأه فرزجـة مجهضة، بل سوف أديم طهـارة حياتي وفني. لن أستخرج حصاة مـن مريض وإن أظهر المرض رغبة فيه، بل أترك هذه العمليـة ليقوم بهـا الممارسون المختصـون بهذا الفن، وأي دار أدخلهـا لمنفعـة مرضاي مبعـدًا نفسي عن كل مـا يشين، وخصوصًا عن ملذات حب النساء والرجال أحـرارًا أو عبيـدًا. لـن أكشـف ما لا يجـب ذكره، مما تصـل معرفتـي إليه في حـدود مهنتـي أو خارجها، أو في مخالطتـي اليومية مع الناس بـل أكتمه سرًا. ولئن حفظت عهدي هـذا بإخلاص، فلأنعم بحياتي وأمارس فنـي محترمًا بين الناس في كل وقت، وإذا حنثت به أو خالفته فليكن العكس نصيبي»[٥].

ثـم وضع أبقراط ما سمي **بناموس أبقراط** شرح فيـه مواصفات طالـب الطب، وذكره جـورج سارتون بقوله: «هو أحـدث من القسم عهدًا، وتأثير الرواقيين فيـه ظاهر، وهو أقل واقعية من القسم، وأبعد منه عن النهج العلمي، لكنه أعمق فلسفة وأبلغ عبارة».

ونصـه: «أن الطب أشـرف الصنائع كلهـا، إلا أن نقص فهم من ينتحلها، صار سببًا لسلب الناس إياها، لأنـه لم يوجـد لها في جميع البلـدان عيب غير جهل من يدعيها، فمن ليس بأهل للتسمي بها، إذ كانوا يشبهون الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكاية ليلهوا الناس بها، فكما أنها صور لا حقيقة لها، كذلك هؤلاء الأطباء بالاسـم وبالفعـل قليـل جـدًا، وينبغـي لمـن أراد تعلم صناعـة الطـب، أن يكـون ذا طبيعـة مؤاتيـة وحرص شديـد ورغبة تامة، وأفضـل ذلك كله الطبيعة لأنها إذا كانـت مؤاتية فينبغي أن يقبل على التعليم ولا يضجر، لينطبـع في فكـره ويثمـر ثمارًا حسنـة، مثل ما يرى في نبـات الأرض، أمـا الطبيعة فمثل التربـة، وأما منفعة التعليـم فمثل الـزرع، وأما تربيـة التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة، فمتى قدمت العناية في صناعة الطـب، ثم صاروا إلى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعـل، والعلـم بالطب كنـز جيد وذخـيرة فاخرة لمن علمـه، مملوء سـرورًا، سـرًا وجهرًا، والجهـل به لمن انتحلـه صناعة سـوء، وذخيرة ردية، عـديم السرور، دائـم الجـزع والتهور، والجـزع دليل علـى الضعف، والتهور دليل على قلة الخبر بالصناعة»[٦].

ثـم مـا لبـث أبقـراط أن وضع مـا سمي **بوصـية أبقـراط** عـرّف فيها جميع مـا يحتاج إليـه الطبيب في نفسه، ونصها:

«ينبغـي أن يكون المتعلم للطـب في جنسه حرًا، وفي طبعـه جيـدًا، حديـث السن، معتـدل القامـة، متناسب الأعضـاء، جيد الفهم، حسن الحديـث، صحيح الرأي عنـد المشورة، عفيفًا شجاعًا، غير محب للفضة، ومالكًا لنفسـه عنـد الغضب، ولا يكون تاركًا لـه في الغاية، ولا يكـون بليدًا. وينبغي أن يكـون مشاركًا للعليل، مشفقًا عليـه، حافظًا للأسرار لأن كثيرًا من المرضى يوقفوننا علـى أمراض بهم، لا يحبـون أن يقف عليهـا غيرهم. وينبغـي أن يكـون محتمـلًا للشتيمـة، لأن قومًـا مـن المبرسمـين وأصحاب الوسواس السـوداني يقابلوننا بذلـك، وينبغـي لنـا أن نحتملهم عليه، ونعلـم أنه ليس منهم، وأن السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة.

ويتابـع ليبين مـا يحتاج إليـه الطبيب أيضًـا فيقول: «وينبغي أن يكون حلْقُ رأسه معتدلًا مستويًا، لا يحلقه ولا يدعـه كالجمة، ولا يستقصي قص أظافر يديه، ولا يتركه

٥- ابن أبي أصيبعة، ص٤٤-٤٥

٦- ابن أبي أصيبعة، ص٤٦.

تعلو أطراف أصابعه، وينبغي أن تكون ثيابه بيضاء، ولا يكون في مشيته مستعجلاً، لأن ذلك دليل على الطيش ولا مُتباطئًا؛ لأنه يدل على فتور النفس، فليقعد متربعًا، ويختبر منه حاله بسكون وتأنٍّ، لا بقلق واضطراب، فإن هذا الشكل والزي والترتيب عندي أفضل من غيره»[٧].

أما الطبيب **جالينوس**[٨] Galen (نحو ١٢٩–١٩٩م) فقد ذكر في كتابه **محنة الطبيب** موضوع امتحان الأطباء فقال: «كيف يقدر المتحن أن يمتحن ويميز بين الطبيب الماهر وبين غيره قبل أن يجرب قوله وعلمه في المرضى، ولا يكون امتحانه له كما يمتحن الناس اليوم الأطباء، ويقدمون منهم من ركب معهم، واشتغل بخدمتهم الشغل الذي لا يمكن معه الفراغ لأعمال الطب، بل يكون تقديمه واختياره لمن كان على خلاف ذلك، وكان شغله في دهره كله في أعمال الطب لا غيرها»[٩].

وبيّن جالينوس الفرق بين الطبيب والمُتَطبب بقوله: «إنّ الطبيب هو من تكاملت فيه الفضائل كلها، وغزرت لديه العلوم جميعها، كالعلم التعليمي والطبيعي والإلهي وصناعة المنطق والطب وصالح الأعمال ومحاسن الأخلاق والأفعال، وأنه من كان كاملاً في الطب وناقصًا في واحد منها فهو يعد مُتَطبب لا طبيب، ومن لم تتكامل فيه صناعة الطب فهو مُتعلم لم يبلغ بعد إلى أن يسمى بالمتطبب»[١٠].

ثانيًا: نظام الحسبة في الحضارة العربية

حظيت العلوم الطبية في الحضارة العربية باهتمام الخلفاء والأمراء، فشجعوا العلماء على الترجمة ونقل الكثير من المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية، ويعد العصر العباسي من أزهى العصور الحضارية الإسلامية التي ازدهر فيها الطب ضمن جميع فروع العلم.

في بداية الأمر لم تكن هناك ضوابط لمهنة الطب، وكان إذا رغب أحدهم أن يصبح طبيبًا كان عليه أن يقرأ أي كتاب في الطب على أي طبيب مشهور في زمانه، حتى إذا ما شعر أنه قد تعلم الصنعة مارسها دون امتحان.

وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الخليفة المقتدر بالله، وكانت سنة خلافته(٢٩٥هـ)، وطلب من سنان بن ثابت(٨٨٠–٩٤٣م) رئيس الأطباء امتحان جميع الأطباء ببغداد، وكانوا نحو ٨٦٠ طبيبًا[١١]، وأمر المُحْتَسِب بعدم السماح لطبيب أن يُمارس مهنته إلا بعد اجتياز الامتحان، وجعلوا ذلك شرطًا أساسيًا لمزاولة مهنة الطب، وأصدر مرسومًا بذلك سنة ٣١٩هـ، ولعل السبب الذي جعل المقتدر القيام بذلك هو الخطأ الذي وقع من أحد الأطباء مما أدى إلى وفاة المريض، فقد كانت الرقابة على الأطباء من مهام مؤسسة الحسبة، وتكشف لنا كتب الحسبة عن حرص عالٍ في متابعة أمر الأطباء، ويعد كتاب «نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» لمؤلفه عبد الرحمن بن نصر الشيزري توفي(٥٨٩هـ / ١١٩٣م) من أهم كتب الحسبة.

وقد كان لكل تخصص طبي كتاب يُمْتَحَن فيه الطالب، فإذا استوعب الطالب تخصصه أُجيز ونال الشهادة، وكان المبدأ الأساسي في امتحانات التخصص الاهتمام بحقل معلوم يشترط أن يكون الطالب متضلعًا فيه، وعدم الخروج عن حدوده، فكان الجرَّاح مثلًا يمتحن في علم التشريح وعلم الجراحة للتأكد من أنه درس كتب المشهورين.

٧– ابن أبي أصيبعة، ص٤٧.

٨– – اقرأ عن ترجمة جالينوس في القفطي، ص١٢٢–١٢٩، ابن ابي أُصيبعة، ص ١٠٩–١٣٤.

٩– ابن ابي أُصيبعة، ص٤٤.

١٠–الناصر، صِفَات الطبيب لدى الأطباء القدامى، ص١٠.

١١– الدجاني، التعليم الطبي في التراث الطبي الإسلامي، ص٦٣.

و كان الكحالون يمتحنون بكتاب حنين بن إسحق[١٢] (١٩٤-٢٦٠هـ)(٨١٠-٨٧٣م) **المقالات العشر في العين**، ولم يكن يسمح للمجبرين بالتجبير إلا بعد إتقان الصنعة، ومعرفة عدد العظام في الإنسان، وشكل كل عظم وقوّته وموقعه وقدره.

ومعظم كتب الحسبة تحدد مهام المحتسب وآلية عمله، فمن مهامه أنه يشرف على أعمال الأطباء والصيادلة وسلوكهم المهني، ويراقب الأدوات الطبية التي يستعملها الطبيب، ويتصدى لمن يمارس الطب دون علم أو خبرة.

ويُمتحن تحت إشرافه الأطباء الجدد، فمن وجده مقصِّرًا في علمه أمره بزيادة الدراسة، وأوقفه عن مزاولة التطبيب لحين ثبوت أهليته بعد اختبار جديد، أما من تثبت أهليتهم يُقْسِمون القَسَم الطبي أمامه، ويكلف الطبيب بأن يكتب الدواء للمريض كتابةً يحتفظ بها أهله، وإذا ساءت حالة المريض أو تُوُفِّيَ كان لأهل المريض أن يرجعوا بالرُّقَع التي كُتِب عليها الدواء إلى شيخ صناعة الطب، فإن كانت على مقتضى ما يقول به العلم كانت الوفاة قضاء وقدرًا، وإن كانت على خلاف ذلك كان لأهل المريض مطالبة الطبيب بدِيَةِ المتوفى بسبب سوء صناعته وإهماله.

ثالثًا: مؤلفات أدب الطبيب في الحضارة العربية

«الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ»[١٣]

ظهر في الحضارة العربية كثير من المؤلفات الطبية التي تناولت موضوع الرقابة الطبية وأدب الطبيب، وهي إما مؤلفات طبية موسوعية خصصت بعض أبوابها أو فصولها للحديث عن أدب الطبيب، أو مؤلفات تخصصية تدل عليها عناوينها، ونذكر منها: معرفة محنة الكحالين ليوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ)، وامتحان الأطباء لحنين بن إسحاق، وأدب الطبيب، ومحنة الطبيب لأبي بكر الرازي (ت ٣١٣هـ)، وأدب الطبيب لعلي بن إسحاق الرهاوي (٢٤٠-٣١٩ هـ).

ويُعد كتاب الرهاوي أهم هذه المؤلفات التي شرحت بوضوح وإسهاب شديدين موضوع الرقابة الطبية وأدب الطبيب، ثم ظهر كثيرٌ من المؤلفات التي نهجت نهج الرهاوي، نذكر منها: كتاب التشويق الطبي لصاعد بن الحسن في القرن الخامس الهجري، والنافع في كيفية تعلم صناعة الطب لعلي بن رضوان (ت ٤٦٠هـ)، ودعوة الأطباء لابن بطلان المتوفى (ت ٤٥٨هـ)، والرسالة الأفضلية في تدبير الصحة لموسى بن ميمون (ت ٦٠٤هـ)، ورسالة في بيان الحاجة إلى

١٢- اقرأ عن ترجمة حنين في القفطي، ص١٧١، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٥٧.

١٣- الجرجاني، التعريفات، ص١٤.

الطب وآداب الأطباء ووصاياهم لمحمود بن مسعود الشيرازي (ت ٧١٠هـ)، والمقالة الصلاحية لهبة الله بن يوسف من أهل القرن السادس الهجري، وغير ذلك كثير، وقد ترجمت معظم هذه المؤلفات إلى اللغات الأخرى نظرًا لأهميتها.

وهذه المؤلفات على اختلافها ناقشت قضية مفادها أنه لا بد لمن أراد أن يتعلم الطب أو يزاوله شروطًا وصفات يجب أن يتحلى بها، وحدود عمل الطبيب، وضوابط العلاقة بين الطبيب والمريض، وسنستعرض نماذج من المؤلفات المذكورة.

أبو بكر الرازي[١٤] (٢٥١-٣١٣هـ) / (٨٦٥-٩٢٥م)

يُعد الرازي من رواد التصنيف في الأخلاق الطبية، ووضح ذلك في رسالته أدب الطبيب التي أكد فيها دور الاستقامة الخلقية في نجاح عمل الطبيب، فحسب رأيه يجب أن يكون الطالب ذا مقدرة على قراءة الكتب وفهم مكنوناتها، وأن تكون له القوة في البحث والنظر، وأما الذين لا يفهمون ما يطالعونه، فلم يبلغوا المستوى الذي يؤهلهم لدراسة الطب، ولا يرى أنهم لائقون لدراسته، كما امتدح الرازي الطبيب الذي وهب حياته لمهنته، الذي يداوم على القراءة في أوقات الفراغ فقال: «الاستكثار من قراءة كتب الحكماء، والوقوف على أسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الحظ ...، ومن لم يعن بالأمور الطبيعية، والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية، وعدل إلى اللذات الميدانية، فاتهم في علمه ولا سيما في صناعة الطب»[١٥].

وقال في **محنة الطبيب**: «فأول ما تسأل عنه التشريح ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس، وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء، فإن لم يكن عنده ذلك، فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى»[١٦].

وأكد الرازي أن على الطبيب أن يستند في كل تصرفاته وأقواله وأفعاله، إلى ما قد شرعه الله جلَّ وعلا، وإلى الكيفية التي ارتضاها، ويجب عليه أن يلم بالأحكام الشرعية للأعمال الطبية التي قد تعترضه فقال: «وليتكل الطبيب في علاجه على الله تعالى، ويتوقع البرء منه، ولا يحسب قوته وعمله، ويعتمد في كل أموره عليه، فإن عمل بضد ذلك ونظر إلى نفسه وقوته في الصناعة وخلقه حرمه الله من البرء».

كما يجب على الطبيب أن يدرك حتمًا أن الشفاء هو من عند الله جلّ شأنه، وأنه مهما أوتي من علم، ومهما استخدم من علاج، فلا بد توفر مشيئة الإله القدير وإرادته في الشفاء، وأن ينقل إحساسه هذا إلى مرضاه، فكم من مرض بسيط خفيف كانت به نهاية صاحبه، وكم من علة شديدة ومرض مستفحل حصل منه الشفاء والبرء.

وأوصى الرازي بالمواظبة على القراءة والابتعاد عن اللهو والخمر، فقال: «أول ما يجب على الطبيب صيانة النفس عن الاشتغال باللهو والطرب، والمواظبة على تصفح الكتب... وإياك ومعاقرة الخمر؛ إذ ربما احتاج إليك مريض في وقت فتُصادف سكران، فتصغر في عينيه، ويقع في علاجك من الخطأ ما لم يمكنك تداركه».

وأكد حفظ أسرار المرضى، وهي واحدة من أهم آداب مهنة الطب حتى يومنا هذا، فقال: «واعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقًا بالناس حافظًا لغيبهم، كتومًا لأسرارهم، فإنه ربما يكون لبعض

١٤- اقرأ عن ترجمة الرازي في ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٦.

١٥- الدجاني، ص٤٧.

١٦- المرجع السابق، ص٦٣.

الناس من المرض ما يكتمه عن أخص الناس به، وإنما يكتمون خصوصياتهم ويفشون إلى الطبيب ضرورة، وإذا عالج من نسائه أو جواريه أحدًا فيجب أن يحفظ طرفه ولا يجاوز موضع العلة».

فهو ينبه على ضرورة غض البصر «أن يغض الطبيب طرفه عن النسوة ذات الحسن والجمال، وأن يتجنب لمس شيء من أبدانهن، وإذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه، ويترك إجالة عينيه إلى سائر بدنها».

كما أكد حق المريض في تلقي الرعاية الصحية بغض النظر عن مستواه الاجتماعي، فقال: «وينبغي للطبيب أن يعالج الفقراء كما يعالج الأغنياء».

ومن النصائح التي قدمها الرازي لطلابه ضرورة تحكيم العقل والاعتماد على التجربة الشخصية لكي تؤتي المعالجة ثمارها، فقال: «ومتى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل، وما أجمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة فليكن أمامك. الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر».

وحذر الأطباء من عدم التسرع وإعطاء المريض الوقت الكافي لتفصيل حالته، كما حذر المرضى من الأطباء المقلدين والأحداث فقال: «الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايته، وكثرت شهواته، قتالون»[١٧].

علي بن إسحاق الرهاوي (٢٤٠ – ٣١٩هـ)

عرّف الرهاوي صناعة الطب بقوله: «إن صناعة الطب هي أشرف الصنائع، والعلم بها أقدم العلوم، ويجب أن تتقدم في المرتبة على سائر الصنائع والمهن».

ويُعد كتابه **أدب الطبيب** أنموذجًا ووثيقة مهمة لهذا النوع من فنون التأليف في تاريخ العلوم الطبية في القرن الثالث الهجري، فهو الأول من نوعه؛ إذ لا يعرف أحد من الأطباء قبل الرهاوي صنف في هذا الميدان كتابًا كاملًا وجامعًا لأدب الطب والأطباء[١٨]، وجاء في مقدمة وعشرين بابًا هي كالتالي:

الباب الأول: في الأمانة والاعتقاد الذي ينبغي أن يكون الطبيب عليه، والآداب التي يصلح بها نفسه وأخلاقه.

الباب الثاني: في التدابير التي يصلح بها الطبيب جسمه وأعضاءه.

الباب الثالث: فيما ينبغي للطبيب أن يحذره ويتوقاه.

١٧– ابن أبي أصيبعة، ص٤٢٠–٤٢١

١٨– الرهاوي، أدب الطبيب، ص٢٣.

الباب الرابع: فيما يجب على الطبيب أن يوصي به خدم المريض.

الباب الخامس: في آداب عواد المريض ومتفقديه.

الباب السادس: فيما ينبغي للطبيب أن ينظر فيه من الأدوية المفردة والمركبة، وكيف ينبغي أن يحذر مما قد فسد منها بغير قصد أو بقصد، من الصيدلاني وغيره.

الباب السابع: فيما ينبغي للطبيب أن يسأل عنه المريض وغيره.

الباب الثامن: فيما ينبغي للأصحاء والمرضى جميعًا أن يعتقدوه ويضمروه للطبيب في وقت الصحة ووقت المرض.

الباب التاسع: فيما يجب على المريض إبرامه، من قبوله لأمر طبيبه ونهيه، وما يؤول إليه حاله عند خلافه له.

الباب العاشر: فيما ينبغي أن يعمله المريض مع أهله وخدمه.

الباب الحادي عشر: فيما ينبغي أن يعمله المريض مع عواده.

الباب الثاني عشر: في شرف صناعة الطب.

الباب الثالث عشر: في أن الطبيب يجب له التشريف بحسب مرتبته من الناس كافة.

الباب الرابع عشر: في نوادر جرت لبعض الأطباء.

الباب الخامس عشر: في أن صناعة الطب لا يصلح أن يعملها كل من التمسها، لكن اللائقة بهم في أخلاقهم.

الباب السادس عشر: في محنة «امتحان» الأطباء.

الباب السابع عشر: في الوجه الذي به يقدر الملوك على إزالة الفساد الداخل على الأطباء من جهتهم.

الباب الثامن عشر: في التحذير من خدع المحتالين.

الباب التاسع عشر: في العادات المذمومة التي قد اعتادها كثير من الناس، وهي تسوق إلى الإضرار بالأصحاء والمرضى وإلى ذم الأطباء.

الباب العشرون: فيما ينبغي للطبيب أن يدخره ويعده من وقت صحته لوقت مرضه، ومن زمان شبابه إلى زمان شيخوخته.

نلحظ أن عناوين الأبواب تدل على اهتمام الرهاوي بموضوع أخلاقيات مهنة الطب، وما ينبغي أن يتأدب به الطبيب، ومدى التزامه بشرف مهنته، ومدى المصداقية في امتحان الأطباء للتمييز بين الأطباء الحقيقيين والجهلة المحتالين، لأن ثمن الخطأ برأيه باهظ، وعائد الاحتيال فيها مهلك، فقد خصص بابًا كاملًا للتحذير من هؤلاء أسماه باب في التحذير من خدع المحتالين.

قال الرهاوي: «إن أناسًا من الأطباء- أيها الحبيب، أسعدك الله ببلوغ مطلوباتك، وأعانك على درك الحق- حين جهلوا أصول صناعة الطب، وفاتهم درك فروعها، وقصروا عن تأمل الصواب في طرقها، خرجوا إلى الحيل والتلبيس حتى أفسدوا محاسنها، وأساؤوا سمعة أهلها، وربما رأى الواحد منهم الإصلاح لشيء يجهل سببه، فيسرع إلى فساده وهدم أساسه، كالذي قدمت وجاهرت به الطائفة من الأطباء الذين رأيتك تذمهم وتوبخهم، وأشباههم من أهل الوقاحة والإقدام على ما لا يعلمونه، فحق على من أنعم الله عليه بمعرفة، ووفقه لتأمل هذه الصناعة أو جلبها ألا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك، بل يجتهد في نشره وإذاعته، ليقوي به نفوس أهل الحق، وقد تكلفت جمع ما قدرت عليه من الآداب التي ينبغي للطبيب أن يؤدب بها نفسه، والأخلاق المحمودة التي ينبغي أن يقوم بها طبعه، وذكرت طرفًا من التدابير

التـي ينبغـي أن يدبر لها جسمـه، والأفعال التي يجب أن يفعلهـا بذاته أولًا، ... فصن نفسك وجسمك بلزوم العدل واستعمال الاعتدال في تكسبك للمال، وفي نفقته، بل في سائر أفعالك، تنج بذلك من الآثام وتكون منزلتك منزلة الكرام، والله يبلغنا وإياك أفضل الرتب الشريفة عنده، هو حسبنا وحده»[١٩].

وقـد تحـدث الرهـاوي في كتابـه عـن ضـرورة أن يستوثـق المريض من الطبيـب فقال: «هـل أخذ نفسه بالقبـول من أفاضل صنعته؟ وهـل هو ملتزمٌ واجباته ومُنْتَهٍ عما يَنهى عنه».

وقـد ربـط بـين صحـة العقيدة وبـين كمـال مهنة الطـب، فحدثنا في مقدمته عن ضـرورة اعتقاد الطبيب بالخالـق جل وعلا، والمحبة الصادقة التي ينبغي للعبد أن ينظـر بهـا إلى خالقه، والإيمان بالرسـل والأنبياء، فقـال: «فليس لك أن تحفل بمن عـدل عن هذه الأمانات ظنًّـا منـه ببطلانهـا، فـازدرى علـى الشرائـع وأظهر الزندقـة، فليس ذلك منـه إلا جهلًا يسوقـه إلى الهلاك وسوء العاقبة»[٢٠].

ولأجل انضباط المهنة وردع المتطفلين من ممارستها دون معرفة يقترح الرهاوي على ولاة الأمر من الأمراء والملـوك منعهـم، واشـتراط إجـراء امتحـان لمـن يود ممارسـة الطـب، فقـال: «ولمـا كان قوم قـد تغطرسوا علـى هذه الصناعـة، فادعوها بغير معرفـة بها، وجب علـى الملـك خاصة، إزالتهـم عما عصـوه أولاً... وألا يُمكن مـن الجلوس للطب إلا بعد مـا ذكرناه من المحنة والاختيار من الأطباء»[٢١].

ويـرى الرهـاوي أن اختبـار معلومـات الطبيـب النظرية ومعارفه الطبيـة كافية لإظهار من «ادّعى علم صناعـة الطب وليس مـن أهلها». وهنا نذكر بعضًا من الآداب التـي يجب أن يلتزم بها الطبيب كما وردت عند الرهاوي:

«ألا يرغـب في الحـرام مـن الأموال، فكـم ممن قد أرغبهـم الأشرار من الرجـال والنساء ببـذل الأموال والمواعيـد وأنـواع الخدم، فلشرههـم وجهلهم أعطوا أدويـة قتالة، ومذرجـات أسقطت الأجنـة وأشباه ذلك مـن الأمور المهلكة، جميع ذلك جهـلًا بالعواقب وكفرًا بالمنعم».

علـى الطبيـب ألا يتسـرع في تشخيـص المرض، فبعض الأمراض تتشابـه أعراضها «لا يجوز للطبيب أن يعالـج مرضًا لم يتحقق عنده مرضه، لئلا يوقعه في مرضـ آخر يكـون أعظم من الأول، فيحتـاج أن يعالج من العلاج».

المسـاواة بـين الجميع في الرعايـة الطبية، «ووجه العدل وابتداؤه ينبغي أن يكون من الطبيب أولًا، وذلك بأن يروض نفسـه، ويأخذها دائمًا باستعمال الأخلاق المحمـودة، والأفعـال المرضية، مع الاجتهـاد في اقتناء صناعتـه ودرس كتبها، والمعانـاة لأعمالهـا، لا يفرق في ذلـك بـين الناس كافة، ولا يفـرق في ذلك بين صديقه وعدوه، ولا بين موافقه ومخالفه»[٢٢].

ومـن صفات الطبيـب «أن يكـون للذنـب صافحًا، وللناس مسامحًـا، ثابتًا متوقفًـا، وبالأمـر عارفًا لينًا متواضعًـا، وإلى الخـيرات مسارعًـا قنوعًـا شكـورًا، وبحسن الثناء مسرورًا، وعـن المآثم عفيفًا، وفي باطنه وظاهره نظيفًا».

ولكنـه يضيف مستدركًا «أن ننظر في أفعاله بنفسه وبجسمـه، وبأفعالـه مع غـيره، فإن ذلـك كاف للدلالة على عقله وفهمه».

١٩- الرهاوي، أدب الطبيب، ص٢٧.

٢٠- المصدر السابق، ص٤١-٤٢.

٢١- المصدر السابق، ص٢٦٣.

٢٢- المصدر السابق، ص٢٨٧.

علي بن العباس الأهوازي (كان حيًا قبل سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)

تحدث علي بن العباس الأهوازي في كتابه كامل الصناعة الطبية، الذي يعرف بالكتاب الملكي عن ضرورة القراءة دون ضجر أو ملل فقال: «ولا ينبغي أن يكون أكثر تشاغله إلا بقراءة الكتب والحرص على النظر فيها، أعني كتب الطب، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم، ويلزم نفسه حفظ ما قرأه، ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازمًا للبيمارستان، ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأُستاذين من الحذاق من الأطباء»[٢٣].

وذكر الأهوازي: «أن متعلمي هذه الصناعة يحتاجون إلى دراسة كتب المنطق لأنه ميزان الكلام ومعياره، وهو نافع في كل علم، وكذلك يحتاجون إلى التعاليم الأربعة، وهي الحساب والهندسة والنجوم والألحان، فيعرف من الهندسة أشكال الجراحة، فالمدورة عسرة البرء، والجراحة المثلثة والمربعة وغيرهما سهلة البرء، وإذا كانت لها زوايا يبتدئ منها نبات اللحم، وأما علم النجوم فلكي يستعمل الدواء في الوقت المختار، الذي يكون فيه القمر ممازجًا للسعود ومن كل شكل موافق، وأما علم الألحان فلكي ترتاض أناملـه في حس الأوتار، وذهنه في النغم ليسهل عليه بذلك تعلم النبض وحس العروق»[٢٤].

وقد أوصى في الجزء الأول من كتابه «لا تبخلوا على من أراد أن يتعلم هذه الصناعة من المستحقين لها بتعليمكم إياها لهم بلا أجر ولا شرط ولا طلب مكافأة، وامنعوها ممن لا يستحقها من الأشرار والسفلة»[٢٥].

أبو القاسم الزهراوي (٣٢٥- ٤٠٤هـ) / (٩٣٦- ١٠١٣م)

الطبيب والجراح الأندلسي الكبير، المولود بمدينة الزهراء قرب قرطبة بالأندلس، وهو من عباقرة وأعلام الحضارة العربية والإسلامية، وهو أول من أسس ومارس علم الجراحة العامة.

ألف كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، ويُعدّ هذا الكتاب من أعظم الكتب في الطبّ، إذ جاء في ثلاثين مجلدًا، وقد ناقش الزهراوي خلاله بعض القضايا الأخلاقية التي تعترض عمل الطبيب، ومنها ما لم يزل قائمًا في عصرنا مثل قضية القتل الرحيم الذي أباحته بعض الدول بتشريعات قانونية، وهو ينبّه تلاميذه على ما يجب اتخاذه في هذا الشأن قائلًا: «قد يقع إليكم في هذه الصناعة ضروب من الناس يضجرون من الأسقام، فمنهم من قد ضجر بمرضه، فهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه، وطول بليته، وبالمرض من التعذر ما يدل على الموت، ومنهم من يبذل لكم ماله، ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتال، فلا ينبغي لكم أن تساعدوا من هذه صفته البتة، وليكن حذركم أشد من رغبتكم وحرصكم، ولا تقدموا على شيء من ذلك إلا بعد علم ويقين يصح عندكم بما يصير إليه العاقبة المحمودة، واستعملوا في جميع علاج مرضاكم تقدمة المعرفة والإنذار بما تؤول إليه السلامة، فإن لكم في ذلك عونًا على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد، ألهمكم الله يا بنيّ الرشد، ولا حرمكم الصواب والتوفيق»[٢٦].

٢٣- الأهوازي، كامل الصناعة الطبية، ج٢، ص ٨و٩.

٢٤- الدجاني، ص٤٧.

٢٥- الأهوازي، ص٩.

٢٦- الزهراوي، المقالة الثلاثون من الموسوعة الطبية التصريف لمن عجز عن التأليف، ص١٥٦.

أبو العلاء صاعد بن الحسن بن صاعد (توفي بعد ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م)

لا نعرف عن الطبيب أبي العلاء صاعد بن الحسن الشيء الكثير، إذ لا تخبرنا كتب التواريخ والتراجم شيئًا عن مولده ووفاته وتحصيله العلمي، وإن أقدم ما نعرفه عنه هو ما قاله ابن أبي أصيبعة من أنه كان حتى عام (٤٦٤هـ / ١٠٧٢م) في مدينة الرحبة (تقع بين الرقة وبغداد، وتسمى اليوم بالميادين) حيث كتب كتاب **التشويق الطبي**، ووصفه ابن أبي أصيبعة بأنه كان «من الفضلاء في صناعة الطب والمتميزين من أهلها وكان ذكيًا بليغًا»[٢٧]. وقد ألف أبو العلاء صاعد كتاب التشويق الطبي لخزانة الرئيس الأجل الكامل أبي المكارم علي بن عبد الوهاب، وجاء الكتاب في ثلاثة عشر بابًا.

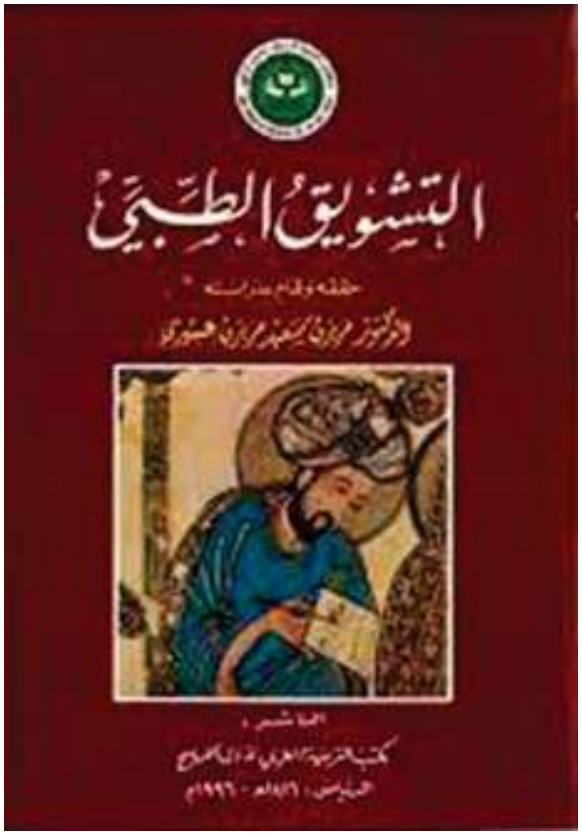

٢٧- جزماتي، صورة الطبيب عند صاعد بن الحسن، ص ٢٩٧.

خصص **الباب الثاني** للحديث عن شرف مهنة الطب[٢٨]، وتحدث في **الباب الثالث** عن الصفات التي يجب أن تتوافر في الطبيب فقال: «ومن صفات الطبيب أن يكون معتدلاً في مزاجه طاهرًا في نفسه، متمسكًا بدينه لازمًا لشريعته، وافر العقل قوي الذكاء حسن التصور، معروفًا بصدق اللهجة وأداء الأمانة، مهتمًا بما يعنيه محبًا لاصطناع الخير، يساوي ظاهره باطنه في أفعال الجميل، حسن الخلق غير شره إلى المكسب، ولا حاسد على المال، متأدبًا بالسير والأخبار المتقدمة، صحيح الخط والعبارة، مواظبًا على درسه وقراءته ونظره في علوم الأوائل، شفيقًا رقيق اللسان، رحيمًا للضعفاء والفقراء، سابقًا إلى معالجتهم قبل معالجة الأغنياء، شديد العناية بجمع كتب أبقراط وجالينوس، ومن يرى رأيهما والاجتهاد في فهمها، والبحث عن غوامضها ومذاكرة أهلها، مشهورًا بالحذق والبراعة في صناعته عند ذوي العلم، معروف الأُستاذين والشيوخ، ظاهرًا عليه مع ذلك علمهم وفضلهم، ليصح نسبه إليهم مجيبًا عما يسأل إذا عرف ومتوقفًا عما لا يعرف، حتى يتفكر ويبحث ولا يستحي من الازدياد، ولا يمل من الحرص والاجتهاد، غير معجب ولا متكبر، مذكرًا بما كان، مخبرًا بما هو كائن، منذرًا بما سيكون من أحوال من يعالجه من المرضى، ممارسًا وصافًا، عفيف الطرف والبطن والفرج، كتومًا للأسرار قليل المزاح والهزل، غير مغرم بشرب الخمور، ولا مولع بالفسق والفجور، ويكون كثير التدرب والعناية بمزاولة المرضى وخدمتهم، والدخول إلى البيمارستانات والنظر في القوانين الطبية،

٢٨- المرجع السابق، ص ٣٠٤.

والارتياض بالصناعة المنطقية، ومطالعة العلوم الرياضية، مثابرًا على ذلك مجتهدًا حريصًا على القراءة والتصفح، طويل الروح غير ملول ولا ضجر، ولا متعلق القلب بغير هذا، ولا يلتذ بشيء سواه، ولا يقوم عنده شيء من المقتنيات بالجملة مقامه، ولا يقضي زمانًا إذا أمكنه إلا فيه، ويحتاج مع ذلك إلى توفيق إلهي، وحقيق بمن كانت هذه صفته أن يمده الله تعالى بالمعونة ويعضده بالتوفيق، وترمقه الأبصار بالجلالة والوقار، وأن ينصره على السوفسطائيين الموهين المغالطين، فإذا وجد الطبيب كذلك، فهو الذي ينبغي أن يركن إليه، ويعول في علاج المرضى عليه»[٢٩].

وفي الباب الخامس تناول الآداب والوصايا التي ينبغي أن يلزمها الطبيب فقال: «ينبغي أن يكون كثير التودد والسلام بحيث يحبه الناس ولا تسقط هيبته فيهم، ولا يمضي إلى المريض حتى يُستدعى، فإن ظهر له من المريض، أو من أهله زهدٌ فيه فلا يعاود إليهم، ويستقصى عند المريض كل أخبار مرضه منه أو ممن يقوم بأمره، ويبشر المريض بالعافية، ولا يطيل الجلوس عنده، ولا يتحدث إلا بما يحتاج إليه، ويجب أن يكون كثير التردد إلى البيمارستانات لأنه يشاهد فيها من الأمراض ما لم يكن يعرفه، ويوصي في آخر الباب ألا يصف شيئًا من السموم والأدوية القاتلة، وأن يحافظ على أسرار مرضاه والبيوت التي يدخلها»[٣٠].

وفي الباب التاسع حذر الأطباء من الوقوع ببعض الأخطاء فقال: «استعماله ـ يعني الطبيب ـ الغذاء والدواء على غير ما ينبغي في الكمية والكيفية أو الوقت، ويعاقب على ذلك بالتأديب والتعزيز، وأخطاء تأتي من جهة المريض إذا خالف طبيبه، واتبع شهواته، فقتل نفسه بجهله، كما يفعل من اختلط عقله، أو تعمد كالعاشق....ورغم كثرة الأخطاء التي يرتكبها المريض فتودي بحياته، فإن كثرًا من أهل زماننا يجعلون اللوم في هذا تطاول الأمراض وهلاك المرضى على الطبيب»[٣١].

علي بن رضوان[٣٢] (٣٨٨-٤٦٠ هـ) /(٩٩٨-١٠٦٧م)

هو أبو الحسن علي بن رضوان بن جعفر عالم موسوعي، حكيم برز في الطب والرياضيات، والفلك والضوء، والفلسفة. ولد بالجيزة من ضواحي القاهرة، من مؤلفاته: مقالة في شرف الطب، وكتاب التطرق إلى السعادة، والنافع في الطب.

٢٩- المرجع السابق، ص٣١٢.

٣٠- المرجع السابق، ص ٣٠٦.

٣١- المرجع السابق، ص ٣٠٨.

٣٢- اقرأ عن ترجمة علي بن رضوان في القفطي، ص٤٤٣-٤٤٤، ابن أبي أصيبعة، ص٥٦١-٥٦٧.

–تحدث علي بن رضوان في الباب الأول من مقالته في شرف الطب عن فضل الطب فقال: «إن منافع هذه المهنة ومحاسنها كبيرة، منها في البدن، ومنها في النفس، ومنها اكتساب ولاية الله عز وجل، واكتساب المال، واكتساب الرئاسة والكرامة».

–وذكر في الباب الأول من كتابه التطرق إلى السعادة عن تعليم مهنة الطب فقال: «إما إن يجد (المتعلم) معلمًا فاضلًا يتفهم منه ما في كتب أبقراط، فيسرع بذلك تعليمه كما أسرع تعليم جالينوس، وإما أن يعدم المعلم الحاذق فيحتاج أن يتعلم لنفسه من كتب جالينوس، فيطول زمان تعليمه متى استعمل في تعليمه قوانين المنطق، ولأن صناعة الطب صناعة فاعلة لم يكن تعليمها خلوًا من منازلة أعمالها الجزئية كما بين أرسطاليس فيما بعد الطبيعة، إن كل صناعة فاعلة إنما تحصل وتكمل بمعرفة قوانينها الكلية ومنازلة أعمالها، فإذن المتعلم لصناعة الطب مع قراءته كتب أبقراط تلزمه ضرورة أن ينازل بنفسه أعمالها الجزئية، وذلك يتم بمعاينة هذه الأعمال الجزئية بين يدي أفضل من تعلم عليه من أهلها».

وقد وضع شروطًا على من يريد أن يتعلم الطب، فقال: «المتعلم هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خير ونفس زكية، وأن يكون حريصًا على التعلم ذكيًا، ذكورًا لما تعلمه»، وخاطب الطالب فقال: «فامتحن نفسك أو التمس من يمتحنك، فإن كنت تصلح للتعليم فأشرع فيه، وإن كنت لا تصلح فلا تتعب فيما لا تبلغه، وأول ما تمتحن عقلك وفهمك وتواضعك، ولزومك العفاف وصبرك على تعب النسخ والتعليم غير محتشم أن تتعلم ممن هو أقل منك، فقد يرجى لك ما تؤمله منه»[٣٣].

وبيّن أن الطبيب الفاضل يجب أن يتمتع بصفات عديدة، حددها بقوله: «إن الطبيب على رأي أبقراط هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال وهي[٣٤]:

الأولى: أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلًا، وخير الطبع.

الثانية:–أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتومًا لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمس من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصًا على التعلم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، ولا يخطر بباله شيء من أمور النساء، والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاء، فضلًا عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأمونًا، ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواءً قاتلًا ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

وأكد علي بن رضوان ضرورة التشخيص الجيد من قبل الطبيب، فبيّن أن المرض على أربعة أنواع: الأول، قابل للشفاء، وهنا يلعب الطبيب وعلمه وبراعته دورًا كبيرًا، والثاني مرض قتال، وعلى الطبيب التشخيص الجيد والإنذار الصحيح، وربما استطاع عن طريق المداواة أن يطيل حياة المريض، والثالث أن يتخذ للمريض أغذية تناسب حاله، والرابع أن يتلطف

٣٣– ابن أبي أصيبعة، ص٥٦٥. قطاية، الطبيب العربي علي بن رضوان، ص٤٢.

٣٤– ابن أبي أصيبعة، ص ٥٦٤–٥٦٥. الناصر، ص١٢.

بالأدوية التي يعالج بها، وقد قال القدماء إن أكثر الأدوية نفعًا هي المتوافرة والرخيصة.

ويضيف قائلاً: «إذا دعيت إلى مريض فأعطه ما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك، ومعنى معرفة المرض، هو أن تعرف من أي خلط حدث أولًا، ثم تعرف بعد ذلك في أي عضو هو، وعند ذلك تعالجه»[٣٥].

ومنعًا لأي التباس وحرصًا على سلامة المريض، ينصح الطبيب بالتعرف على الأعشاب في منابتها، وفي ذلك قال في كتابه **النافع في الطب**: «وأمر أبقراط وجالينوس وديسقوريدس الأطباء بمشاهدة الأدوية في ميدانها، وانتهائها ومعرفتها عيانًا لا خبرًا، واختبار قواها قبل استعمالها، وذلك لأن التجار والصيادلة رغبتهم من ذلك الربح فقط، فليس يبالون ما باعوا منها، كثيرًا ما يلتمس من أحدهم دواء فلا يكون عنده، فيبيع شيئًا آخر على أنه ذلك الدواء».

ثم يعود ويشدد على مراقبة الأدوية من قبل الطبيب، فهو ينصح بأن يقوم الطبيب نفسه بمعاينة الأدوية لمعرفة جميع أحوالها، إذ قد يتعرض المريض للخطر فيما لو كان الدواء: «مغشوشًا أو أن بائع الأدوية قد غلط أو تعمد إبدال الدواء بغيره، وقد يشتبه دواء مع آخر، فيخلط البائع، فيعطي دواء مكان آخر، وربما تغيرت قوة الدواء مع الزمن، أو قد فسد الدواء، وقد يكون منبت الدواء غير مناسب وغير صالح، إذ توجد منابت توافق الطب وأخرى لا توافقه، أن يفقد دواء ما، فيأتي أحدهم ويدعي أنه هو».

مهذب الدين بن هبل البغدادي (٥١٥ – ٦١٠هـ/ ١١٢١ – ١٢١٣م)

ذكر مهذب الدين بن هبل البغدادي في كتابه المختارات في الطب: «ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر فيما إذا أنفق زمانه إن كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء من أهلها، وطول ملازمتهم، والقراءة عليهم، والعلاج بين أيديهم، والتدريب في الدخول على المرضى في بيوتهم، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق المرضى، وكثرة نظره إلى معالجة الأستاذ، فيشار إليه ويقول عليه، وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته، وأن همته إذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة، وأنه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب التي تستغرق الزمان بالتضييع، والخاطر بالتوزيع، فإن كان ينسب إلى شيء من ذلك، فلا ينبغي أن يوثق إليه، ولا يعول في هذه الصناعة عليه»[٣٦].

ويوصي **البغدادي** بقواعد الحكمة التي يستوجب أن يتحلى بها الطبيب وهي: «أن يكون تعلمه إياها طالبًا بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه، وأن يتوفر الطبيب على من يستطيع أن يفي بواجب تدبيره منهم، وأن يمشي إلى ضعفائهم، ولا يتكبر على فقرائهم، ولا يستنكف عن مداواة من أنهكته الأغلال، وكثرت به الجراحات والمواد استقذارًا، وألَّا يلتمس الأطباء من المرضى إلا أن يعطوا من غير طلب، وأن يستعينوا بما يصل من أغنيائهم على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الأدوية، وأن يلقوا المرضى بالهشاشة والبشاشة والإيناس، وألَّا يصفوا الأدوية لإسقاط الأجنة، ولا ما يمنع الحبل لقطع النسل إلا أن يدعوا إلى ذلك أمر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع، وألَّا يعطوا السموم لغرض وسخط، ولا يتخذوها ولا يعلموها ولا يتعلموها إلا في معرض مداواة من لعله يشفى منه، ويأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار، فإنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من أحوال الناس، وأن يلزموا العفة وغض الطرف، وإذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همتهم مصروفة إلا ما يعود بمصالح المرضى»[٣٧].

٣٥- ابن أبي أصيبعة، ص٥٦٥.

٣٦- البغدادي، المختارات في الطب، ج١، ص٧.

٣٧-البغدادي، ص٣-٥.

الشيزري توفي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)

ألف عبد الرحمن بن نصر الشيزري كتابه «نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة»، وتناول فيه بعض الأمور التي ينبغي للأطباء الجراحين الالتزام بها، وشروط الجراحة، والحالات التي يحذر فيها إجراء الجراحة، فقال: «لا يتصدى للفصد[٣٨] إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين، وأحاط بمعرفة تركيبها وكيفيتها، لئلا يقع المبضع في عِرْق غير مقصود أو في عضلة أو شريان، فيؤدي إلى زمانة[٣٩] العضو وهلاك المفصود، فكثيرٌ هلك من ذلك، ومن أراد تعلم الفصد فليدمن فصد ورق نبات السَّلَق -أعني العروق التي في الورقة- حتى تستقيم يده، وينبغي للفاصد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مُهينة، تُكْسِب أنامله صلابة وعُسْر حِسٍّ، لا يتأتى معها نبش العروق، وأن يراعي بصره بالأكحال المقوية له، إن كان ممن يحتاج إليها، وألا يفصد عبدًا إلا بإذن مولاه، ولا صبيًا إلا بإذن وليه، ولا حاملاً ولا طامثًا، وألا يفصد إلا في مكان مضيء وبآلة ماضية، وألا يفصد وهو منزعج الجنان[٤٠]».

ووضّح الشيزري واجبات المحتسب فقال: «وبالجملة ينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم العهد والميثاق ألا يفصدوا في عشرة أمزجة، وليحذروا فيها حذرًا، إلا بعد مشاورة الأطباء، وهي: في السن القاصر عن الرابع عشر، وفي سن الشيخوخة، وفي الأبدان الشديدة القضافة، وفي الأبدان الشديدة السمن، وفي الأبدان المتخلخلة، وفي الأبدان البيض المُرَهلة، وفي الأبدان الصُّفْر العديمة الدم، وفي الأبدان التي طالت بها الأمراض، وفي المزاج الشديد البرد، وعند الوجع الشديد، فهذه الأحوال يجب أن تكشف على الفاصد عند وجودها، وقد نهت الأطباء عن الفصد في خمسة أحوال أيضًا، ولكن مضرته دون مضرة العشرة المتقدم ذكرها، فالحالة الأولى الفصد عقيب الجماع، وبعد الاستحمام المحلل، وفي حال الامتلاء من الطعام، وفي حالة امتلاء المعدة والأمعاء من الثقل، وفي حالة شدة البرد والحر، فهذه أحوال يتوقى الفصد فيها أيضًا، واعلم أن الفصد له وقتان وقت اختيار ووقت اضطرار، فأما وقت الاختيار، فهو ضحوة نهار بعد تمام الهضم والنقص، وأما وقت الاضطرار فهو الوقت الموجب الذي لا يتسع تأخيره، ولا يلتفت فيه إلى سبب مانع، وينبغي للمفتصد ألا يمتلئ من الطعام بعده، بل يتدرج في الغذاء ويلطفه، ولا يرتاض بعده، بل يميل إلى الاستلقاء، ويحذر النوم عقيب الفصد، فإنه يحدث انكسارًا في الأعضاء، ومن افتصد وتورمت عليه اليد افتصد في اليد الأخرى، بمقدار الاحتمال»[٤١].

الطبيب سعيد بن أبي الخير (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)

هو أبو نصر، سعيد بن أبي الخير بن عيسى المسيحي الحظيري النسطوري المعروف بابن المسيحي، من المتميزين في صناعة الطب.

ذكر ابنُ أبي الخير في كتابه **امتحان الأطباء** صفات الطبيب فقال: «يجب أن يكون الطبيب صحيح الأعضاء، معتدل المزاج، يخالط نظره دائمًا سرور ومرح، وفيه بشاشة وطلاقة ذكيًا ذكورًا، جيد التصور قوي الحدس

٣٨- الفصد: هو شق العرق لإخراج الدم الفاسد من جسد المريض.

٣٩- الزمانة: هو المرض الذي يطول، ومنه أخذ تعبير المرض المزمن.

٤٠- مضطرب أو غاضب.

٤١- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٨٩ – ٩٢.

والتخمين، صبورًا على التعب والنصب في درك الحق من الأمور، كتومًا متحملًا ما يسمعه من المرضى»[٤٢].

الخاتمة

نجد مما سبق أن تراثنا الطبي العربي يذخر بالمؤلفات والنصوص التي تناولت موضوع الرقابة الطبية وآداب الطبيب، وواجباته والتزاماته تجاه المرضى والمجتمع، وتجاه اسمه ومكانته بالدرجة الأولى، فالطبيب الملتزم هو من يفرض محبته وحضوره، على عكس الجاهل الذي لا يهمه من مهنة الطب سوى جمع المال والاحتيال على المرضى، وهؤلاء قد لاحقتهم مؤسسات الحسبة ورئيس المحتسبين، وطبقت عليهم قوانينَ صارمة، كما لاحظنا أن كثيرًا من الآداب التي ذكرها الأطباء العرب ما زالت معتمدة وتطبق حتى يومنا هذا.

المصادر والمراجع

١-**الأهوازي**، علي بن عباس، ١٩٨٥م، **كامل الصناعة الطبية**، الجزء الأول، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت.

٢-**البغدادي، مهذب الدين بن هبل، ١٩٩٦م، المختارات في الطب، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الطب الإسلامي، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا.**

٣-**ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد، ١٩٦٥م، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، شرح وتحقيق نزار رضا.**

٤-**ابن النديم، محمد بن إسحاق، د.ت، الفهرست، تحقيق محمد أحمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.**

٥-**ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد، ١٩٥٧م، الطب النبوي، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.**

٦-**الجرجاني، علي بن محمد الحسيني، ١٩٧٨م، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت.**

٧-**جزماتي، حسام، ١٩٩٥م، صورة الطبيب عند صاعد بن الحسن، المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب، منشورات جامعة حلب.**

٨-**الدجاني، أكرم منيب، ١٩٩٩م، التعليم الطبي في التراث الطبي الإسلامي، المؤتمر السنوي العشرون لتاريخ العلوم عند العرب، منشورات جامعة حلب.**

٩-**الرهاوي، إسحاق بن علي، ١٩٩٢م، أدب الطبيب، تحقيق د. مريزن عسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١.**

١٠-**الزهراوي، أبو القاسم، ٢٠٠١م، المقالة الثلاثون من الموسوعة الطبية التصريف لمن عجز عن التأليف، تحقيق وتعليق د. عبد العزيز الناصر ود. علي التويجري، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط٣.**

١١-**الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، ١٩٤٦م، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.**

١٢-**قطاية، سلمان، ١٩٨٣م، الطبيب العربي علي بن رضوان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.**

١٣-**القفطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، بغداد، مكتبة المثنى، القاهرة مؤسسة الخانجي.**

١٤-**مراد آمنة صبري، ١٩٦٦م، لمحات من تاريخ الطب القديم، مكتبة النصر الحديثة، القاهرة.**

١٥-**الناصر، فيصل** عبد اللطيف، **صفات الطبيب لدى الأطباء القدامى**، الرابط

www.ishim.net' Doctors' Characteristics as inscribed by Islamic scholars

٤٢-الدجاني، ص٤٨.

طرائق البرهان الرياضي في المخطوطات العربية

د. مصطفى موالدي*

المقدمة:

تستند العلوم الرياضية الدقيقة إلى علم المنطق وإلى المنهج العلمي المنظم[1]، الذي يرتكز على أسس وضوابط ومحاكمات عقلية صارمة.

درس العرب العلوم الرياضية وطوروها بدافع البحث عن الحقيقة ومعرفة جوهرها، والاستفادة منها في تنظيم شؤون دولتهم، ولتسيير أمور حياتهم اليومية.

وهذا الدمج بين حبِّ المعرفة والبحث عن الحقيقة؛ وبين استخدام الرياضيات في الحياة الاقتصادية واليومية وتوظيفها في حلِّ بعض المسائل الدينية والروحية: كتحديد اتجاه القبلة، وتحديد مواعيد الصلوات، وتحديد بدايات الأشهر القمرية، ومسائل التقاويم والتوفيق بينها، ومسائل الوصايا، ...، أعطى البحث في العلوم الرياضية دفعاً إضافياً لتطويرها، وتعاظمت تطبيقاتها في العلوم الأخرى: كالفلك وعلم الضوء (علم المناظر) وغيرها.

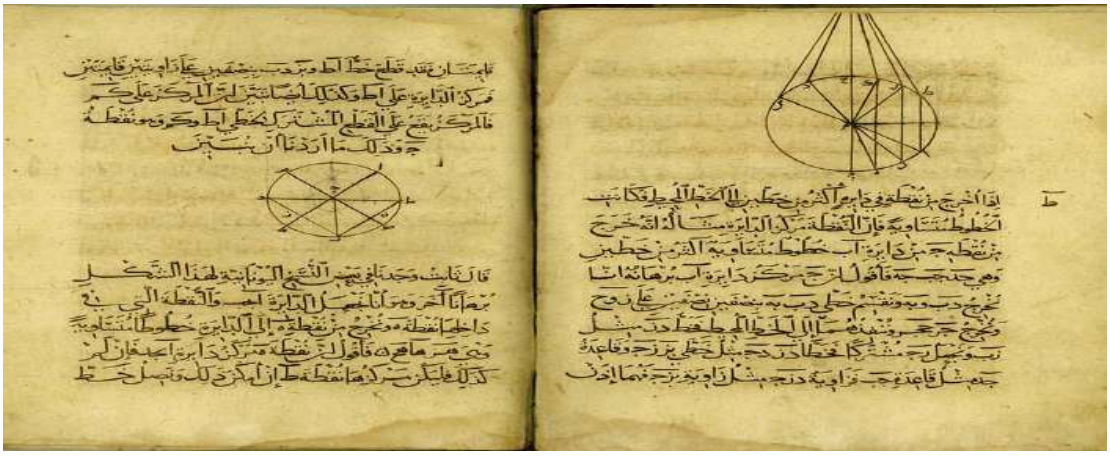

* أُستاذ في معهد التُّراث العلْميّ العربيّ – جامعة حلب.

١ – اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على بحثي بعنوان: «تطور مناهج البحث في العلوم الرياضية»، الذي ألقيته في الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب – جامعة دمشق ٢٨–٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٨م.

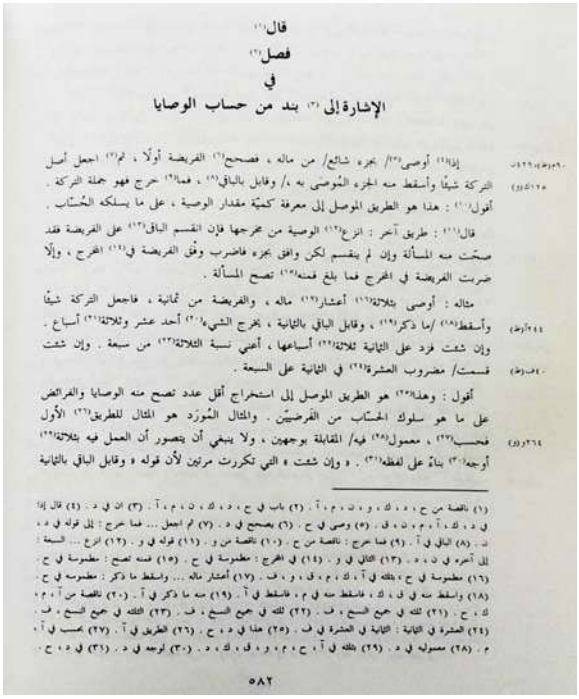

قال[1]
فصل[2]
في
الإشارة إلى[3] بند من حساب الوصايا

إذا[4] أوصى[5]/ بجزء شائع/ من ماله ، فصحح[6] الفريضة أولًا ، ثم[7] اجعل أصل التركة شيئًا وأسقط منه الجزء المُوصى به ،/ وقابل بالباقي[8] ، فما[9] خرج فهو جملة التركة . أقول[10] : هذا هو الطريق الموصل إلى معرفة كميّة مقدار الوصية ، على ما يسلكه الحُسّاب .

قال[11] : طريق آخر : انزع[12] الوصية من مخرجها فإن انقسم الباقي[13] على الفريضة فقد صحّت منه المسألة وإن لم ينقسم لكن وافق بجزء فاضرب وفق الفريضة في[14] المخرج ، وإلّا ضربت الفريضة في المخرج فما بلغ فمنه[15] تصح المسألة .

مثاله : أوصى بثلاثة[16] أعشار[17] ماله ، والفريضة من ثمانية ، فاجعل التركة شيئًا وأسقط[18] /ما ذكر[19] ، وقابل الباقي بالثانية ، يخرج الشيء[20] أحد عشر وثلاثة[21] أسباع . وإن شئت فرد على الثانية ثلاثة[22] أسباعها ، أعني تسعة الثلاثة[23] من سبعة . وإن شئت قسمت/ مضروب العشرة[24] في الثانية على السبعة .

أقول : وهذا[25] هو الطريق الموصل إلى استخراج أقل عدد تصح منه الوصايا والفرائض على ما هو سلوك الحُسّاب من الفَرضيّين . والمثال المُورَد هو المثال للطريق[26] الأول فحسب[27] ، معمول[28] فيه/ المقابلة بوجهين ، ولا ينبغي أن يتصور أن العمل فيه بثلاثة[29] أوجه[30] بناءً على لفظه[31] . « وإن شئت » التي تكررت مرتين لأن قوله « وقابل الباقي بالثانية

(١) ناقصة من ح ، د ، ك ، و ، ن ، م ، آ . (٢) باب في ح ، د ، ك ، ن ، م ، آ . (٣) ان في د . (٤) قال إذا في د ، ك ، آ ، م ، ن ، ق . (٥) وصى في ح . (٦) يصحح في د . (٧) ثم اعمل ... فما خرج : إلى قوله في د ، ن . (٨) الباقي في آ . (٩) فما خرج : ناقصة من ح . (١٠) ناقصة من و . (١١) قوله في و . (١٢) انزع ... السمة إلى آخره في ن ، د . (١٣) الباقي في و . (١٤) في المخرج : مقسومة في ح . (١٥) فمنه تصح : مقسومة في ح . (١٦) مقسومة في ح ، ناقصة في آ ، ك ، م ، ق ، و ، ف . (١٧) أعشار ماله ... واسقط ما ذكر : مقسومة في ح . (١٨) واسقط منه في ق ، ك ، فاسقط منه في م ، فاسقط في آ . (١٩) منه ما ذكر في آ . (٢٠) ناقصة من آ ، م ، ك ، ح . (٢١) الثلثه في جميع النسخ ، ف . (٢٢) ثلثه في جميع النسخ ، ف . (٢٣) الثلثه في جميع النسخ ، ف . (٢٤) العشرة في الثانية : الثانية في العشرة في ف . (٢٥) هذا في د ، ح . (٢٦) الطريق في آ . (٢٧) يحسب في آ ، م . (٢٨) معموله في د . (٢٩) ثلثه في آ ، ح ، م ، و ، ق ، ك ، د . (٣٠) لوجه في د . (٣١) في ق ، د ، ح .

٥٨٢

كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد –حساب الوصايا والفرائض–صفحة ٥٨٢.

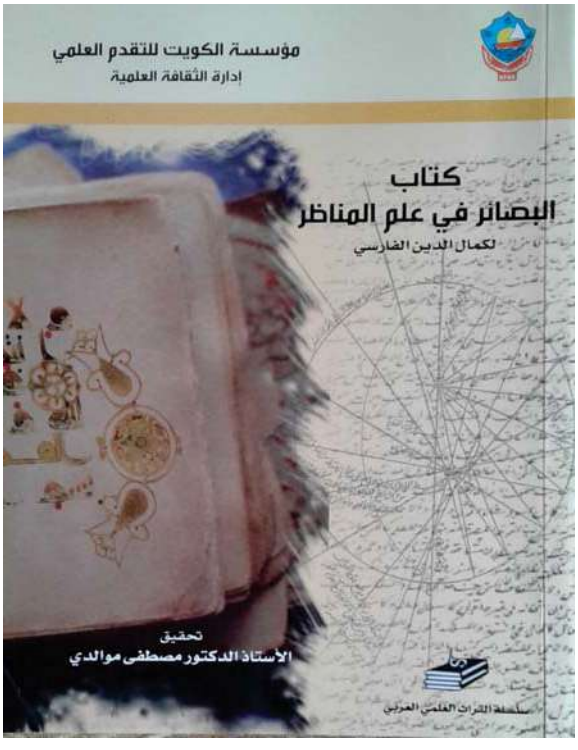

غلاف كتاب البصائر في علم المناظر

لاحظ العرب –منذ البداية – أهمية البرهان الرياضي في دراسة العلوم الرياضية وتطويرها على نحو دفعهم إلى ترجمة ودراسة وتمثل المؤلفات القديمة.

يُعَدُّ البرهان قسماً من أقسام المنطق الأربعة: التصور والحكم والبرهان والمنهج.

إذ وضع الرياضيون العرب مؤلفات خاصة – ولأول مرة في تاريخ العلم حسب معرفتنا– تعالج موضوع البرهان الرياضي –التحليل والتركيب– بشكل مستقل ومفصَّل ودقيق مع تطبيقات توضِّح طرائقه.

سندرس طرائق البرهان الرياضي التي طبقها العلماء العرب على النظريات والمسائل الرياضية في الحضارة العربية من خلال استعراض المؤلفات والمخطوطات التي تعالج موضوع البرهان الرياضي أو من خلال التطبيقات المختلفة، وذلك **وفق المخطط الآتي**:

١– مفهوم المنهج الرياضي وعلاقته بالمنهج الاستقرائيّ.

٢– طرائق البرهان الرياضيّ:

أ – القواعد المتبعة في تقديم البراهين.

ب –طرق البرهان.

١– مفهوم المنهج الرياضيّ وعلاقته بالمنهج الاستقرائيّ:

يعرّف عبد الرحمن بدوي[1] المنهج الرياضيّ بأنَّه: «منهج استدلالي ينتقل من مبدأ عقلي إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة، دون التجاء إلى التجربة»، ويعدّ محمود قاسم[2] المنهج الرياضيّ في جملته منهجاً

١– **بدوي**، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي**، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٨١.

٢– **قاسم**، محمود، **المنطق الحديث ومناهج البحث**، طبع القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٨٥.

استنباطياً «يبدأ بالضرورة من بعض قضايا شديدة العموم نسلِّم بها دون أن نقيم عليها البرهان».

من القضايا العامَّة التي نسلِّم بصدقها ولا يمكن البرهنة عليها[٣]:

البديهيات: وهي قضايا شديدة العمومية، بيِّنة بنفسها وليس من الممكن أن يبرهن عليها؛ لأنَّ كلَّ نتيجة تستنبط من مقدمات، ولمّا كان من المستحيل الصعود في سلَّم الاستنباط إلى ما لانهاية وجب الوقوف عند بعض القضايا التي لايمكن البرهنة عليها وهي البديهيات.

من أمثلة هذه البديهيات «الكلُّ أكبر من الجزء، والكمَّان المساويان لثالث متساويان».

المصادرات أو المسلَّمات: وهي أحكام صادقة يفرضها العالم الرياضيُّ ويسلِّم بها، وإن لم يقم البرهان عليها، وذلك لحاجته إلى تلك الأحكام، فمثلاً في مجال الهندسة وضع إقليدس في كتابه **الأصول** كثيراً من المصادرات منها مصادرة التَّوازي وهي:

«إذا قطع خطٌّ مستقيم خطَّين مستقيمين كانت الزاويتان الداخليتان في أحد الجانبين أقلَّ من زاويتين قائمتين، فإنَّ الخطَّين إذا امتدَّا إلى ما لانهاية يتلاقيان في هذا الجانب الذي تكون فيه الزاويتان الداخليتان أقلَّ من قائمتين».

– **التعريفات:** هي قضايا يضعها الرياضيُّ لتحديد مفهوم الألفاظ والمصطلحات الرياضيَّة مثل العدد والتساوي والجمع والطرح والضرب والقسمة والنقطة والمثلث والزاوية... إلخ.

إنَّ الألفاظ المستخدمة في التعريف الرياضيِّ تكون إمَّا «حدوداً» وإما «علاقات»، ففي علم الهندسة مثلاً، يبدأ بتحديد معاني «الحدود الهندسية» كالنقطة والخطِّ والزاوية، ومعاني «العلاقات الهندسية»، مثل التوازي والتقاطع.

وفي علم الحساب يبدأ بتحديد معاني «الحدود الحسابيَّة» كالعدد الصحيح والكسر والجمع والطرح، ومعاني «العلاقات الحسابية» مثل: يساوي، وأكبر من، وأصغر من.

تستخدم القضايا السابقة أساساً لبرهان النظريات الرياضية. وإنَّ العملية الاستدلالية في الرياضيات تسمَّى «بالاستنتاج» كما تسمَّى العبارات التي يتوصّل إليها على هذا النَّحو بالعبارات المستنتجة أو المستدلِّ عليها من عبارات غيرها وتعدُّ نتيجة لها.

وتمثِّل تلك العملية مراحل الاستدلال داخل البناء المنطقيّ للنظريَّة الرياضيَّة، التي يقوم معيار الصِّدق فيها على أساس صدق الفروض الأولى (البديهيات –المصادرات– التعريفات)، وإنَّ هدف الاستدلال الرياضي تكوين نظام من المبادئ والنظريات.

والبرهنة الرياضية هي السبيل إلى إثبات صحَّة ما يتوصَّل إليه من نتائج من خلال نسق المبادئ الصُّوريَّة التي يتضمَّنها المنهج الرياضيُّ.

٢–طرائق البرهان الرياضيّ:

أ – القواعد المتبَّعة في تقديم البراهين.

ب – طرق البرهان.

أ – القواعد المتبعة في تقديم البراهين:

سنبيِّن أهمَّ القواعد المتبعة في تقديم البراهين من خلال دراسة بعض المخطوطات الرياضيَّة في الحضارة العربيّة:

الإيجاز بشكل عام:

تجنَّب معظم الرياضيين، العرب منهم والمسلمون التطويل في سرد البراهين.

٣– **النشار**، علي سامي، **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص ص ٣٧٨–٣٨٠.

سرعة الحساب:

يؤكِّـد الرياضيـون العـرب والمسلمـون أنَّ سرعة الحسـاب كمال، فلـو لم يكن في أصـل الحساب شرف لما اعتدَّت السرعة فيه كمالاً ويستشـهدون بقوله تعالى: ﴿**وهو أسـرع الحاسـبين**﴾ [نهاية الآية القرآنية رقم (٦٢) من سورة الأنعام].

عموميَّة القوانين:

يحـاول الرياضيون قـدر الإمكان تعميـم القوانين وإجمال القواعد.

اقتصاد الصِّيغ:

يقترح الرياضيون صيغاً أكثر اقتصاداً:

مثال:

$$\frac{33}{60}=\left(\frac{1}{2}\right)+\left(\frac{1}{2}.\frac{1}{10}\right) \quad \xrightarrow{\text{يقترح}} \quad \frac{33}{60}=\left(\frac{1}{4}\right)+\left(\frac{1}{5}\right)+\left(\frac{1}{10}\right)$$

مثال آخر:

$$\frac{38}{60}=\left(\frac{1}{2}\right)+\left(\frac{2}{3}.\frac{1}{5}\right) \quad \xrightarrow{\text{يقترح}} \quad \frac{38}{60}=\left(\frac{1}{3}\right)+\left(\frac{1}{5}\right)+\left(\frac{1}{10}\right)$$

اقتصاد الوقت:

ألـحَّ الرياضيـون على موضـوع اقتصاد الوقت في براهينهم.

اقتصاد الجهد:

يقول أحد الرياضيين حول هذا الموضوع:

«لتصـوُّر الكسور المضافة من الشَّكل الأوَّل نحتاج إلى كلفتـين: كلفـة لتصوُّر الجـزء الأوَّل وكلفة لتصوُّر الجـزء الثاني. أمَّـا بالنسبة لتصـوُّر الكسور المضافة مـن الشَّـكل الثَّـاني فنحتـاج إلى كلفة واحـدة لتصوُّر الجزء الثاني:

$$\frac{1}{a}.\frac{1}{b} \text{ (الشكل الأول)} \quad =\frac{1}{c}.\frac{1}{d} \text{ (الشكل الثاني)}$$

حيث: $d > b$ و $c < a$

المثال الأول:

$$\frac{1}{3}.\frac{1}{4} \text{ (الشكل الأول)} \quad =\frac{1}{2}.\frac{1}{6} \text{ (الشكل الثاني)}$$

المثال ا لثاني:

$$\frac{1}{4}.\frac{1}{5} \text{ (الشكل الأول)} \quad =\frac{1}{2}.\frac{1}{10} \text{ (الشكل الثاني)}$$

ب – طرائق البرهان:

سنعالج في هذه الفقرة طرائق البرهان الآتية:

برهان الخُلف.

طريقتا التحليل والتركيب.

البرهان بالقياس.

وفيما يأْتي الطريقة الأولى:

برهان الخُلف[٤]:

في تلـك البراهين هنـاك فرضيَّتـان متناقضتان؛ إذ إنَّ برهـان صحَّـة إحداهما يؤدي إلى بطـلان الأخرى وبالعكس. وبالنتيجـة فإنَّهـا طريقـة غـير مباشـرة لبرهان صحَّة فرضيَّة.

مثال:

إذا كان العدد (a) أصمَّ والعدد(b)مجذوراً، ولدينا:

$$\sqrt{b}=g \quad \text{و} \quad a.b=c$$

يجب برهان العلاقة الآتية:

$$\sqrt{a}=\frac{\sqrt{a.b}}{\sqrt{b}}=\frac{\sqrt{c}}{g}\approx e$$ **البرهان:**

فإذا كانـت العلاقة الأخيرة غير صحيحة فسيكون لدينا($\sqrt{a}=e$)، وسيؤدي ذلك للقول: إنَّ العدد (a) مجذور، وهذا خُلف؛ لأنَّنا فرضناه عدداً أصمَّ.

مثال:

$$\sqrt{20}=\frac{\sqrt{20.9}}{\sqrt{9}}=\frac{\sqrt{180}}{3}\approx\frac{13+\frac{1}{3}+\frac{2}{3}.\frac{1}{9}}{3}\Rightarrow\sqrt{20}\approx 4+\frac{4}{9}+\frac{2}{9}.\frac{1}{9}$$

---

٤ – **الفارسي**، كمال الدين، **أساس القواعد في أصول الفوائد**، تحقيق مصطفى موالدي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٤، الصفحتان: ٤٢-٤٣.

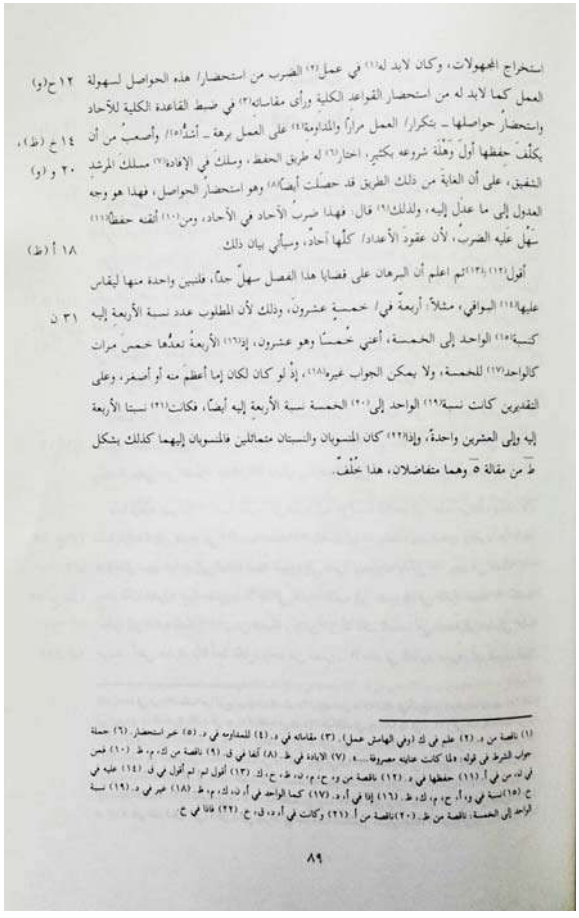

استخراج المجهولات، وكان لابد له[1] في عمل[2] الضرب من استحضار/ هذه الحواصل لسهولة العمل كما لابد له من استحضار القواعد الكلية ورأى مقاساته[3] في ضبط القاعدة الكلية للآحاد واستحضار حواصلها ـ بتكرار/ العمل مراراً والمداومة[4] على العمل برهة ـ أندر[5][6] وأصعب من أن يكلّف حفظها أول وهلة شروعه بكثير، اختار[7] له طريق الحفظ، وسلك في الإفادة[8] مسلك المرشد الشفيق، على أن الغاية من ذلك الطريق قد حصلت أيضاً[9] وهو استحضار الحواصل، فهذا هو وجه العدول إلى ما عدل إليه، ولذلك[10] قال: فهذا ضرب الآحاد في الآحاد، ومن[11] ألفه حفظاً[12] سهل عليه الضرب، لأن عقود الأعداد/ كلها آحاد، وسيأتي بيان ذلك

١٢ ح(و)
١٤ ع (ظ)،
٣٠ و (و)
١٨ أ(ظ)

أقول[13] [14]ثم اعلم أن البرهان على قضايا هذا الفصل سهلٌ جداً، فلتبن واحدة منها ليُقاس عليها[15] الباقي، مثلاً: أربعةٌ في/ خمسة عشرون، وذلك لأن المطلوب عدد نسبة الأربعة إليه كنسبة[16] الواحد إلى الخمسة، أعني خُمساً وهو عشرون، إذ[17] الأربعة تعدُّها خمس مرات كالواحد[17] للخمسة، ولا يمكن الجواب غيره[18]، إذْ لو كان لكان إما أعظم منه أو أصغر، وعلى التقديرين كانت نسبة[19] الواحد إلى[20] الخمسة نسبة الأربعة إليه أيضاً، فكانت[21] نسبتا الأربعة إليه وإلى العشرين واحدةً، وإذاً[22] كان المسويان والنسبتان متماثلين فالمسويان إليهما كذلك بشكل ط من مقالة ه وهما متفاصلان، هذا خُلف.

٣١ ن

(1) ناقصة من د. (2) عليه في ك (وفي الهامش عمل). (3) مقاساته في د. (4) للمداومة في د. (5) خبر استحضار. (6) جملة جواب الشرط في قوله: «ولما كانت عنايته مصروفة ...». (7) الابتداء في ظ. (8) كما في ق. (9) ناقصة من ك، و، ظ. (10) فمن أي لك من أي أ. (11) حفظها في د. (12) ناقصة من و، ح، ه، د، ظ، ح، ك. (13) أقول ثم. ثم أقول في ق. (14) عليه في ح. (15) نسبة في و، أ، ح، ه، ك، ظ. (16) إلا في أ، د. (17) كما الواحد في أ، د، ك، و، ظ. (18) غير في د. (19) نسبة الواحد إلى الخمسة: ناقصة من ظ. (20) ناقصة من أ. (21) وكانت في أ، د، ق، ح. (22) فإذا في ح.

٨٩

كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد –موضوع القياس وبرهان الخلف–صفحة ٨٩

طريقتا التَّحليل والتّركيب:

تُعَدُّ طريقتا التحليل والتركيب طريقتين منطقيتين للاستدلال، وهما قديمتان جداً، وتستخدم الطريقتان في البرهنة على صحَّة قضية ما أو فسادها.

يستعمل منهج التحليل والتركيب في البرهنة على قضايا في مختلف العلوم، منها العلوم الرياضية، فالرياضيُّ يطبق طريقتي التحليل والتركيب عفوياً حين يحلُّ مسألة أو يبرهن على نظرية.

سيشمل بحثنا استعراضاً تاريخياً توثيقياً وتحليلياً لطريقتي التحليل والتركيب في مجال الرياضيات عامة.

سيكون مخطط دراسة الطريقة كما يأْتي:

١ – طريقتا التحليل والتركيب في التراث اليوناني:

١–كتاب الأصول لإقليدس.

٢–كتاب مجموعات رياضية لبابوس الإسكندراني.

٢– طريقتا التحليل والتركيب في التراث العربي:

أ – الهندسة:

١–مقالة في طريق التحليل والتركيب وسائر الأعمال في المسائل الهندسية لإبراهيم بن سنان.

٢–مقالة في التحليل والتركيب لابن الهيثم.

٣–كتاب في تسهيل السُّبل لاستخراج الأشكال الهندسية للسِّجزي.

ب – الجبر:

١–الباهر في الجبر للسموءل المغربي.

٢–أساس القواعد في أصول الفوائد لكمال الدين الفارسي.

٣–مفتاح الحساب لجمشيد الكاشي.

٤–الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي.

٣– مخطط توضيحي للمنهج المنطقي للطريقتين.

١– طريقتا التحليل والتركيب في التراث اليوناني:

لم تشر المصادر اليونانية المعروفة إلى طريقتي التحليل والتركيب – حسب معرفتنا – إلا في مصدرين اثنين:

أولهما: كتاب الأصول لإقليدس:

لقد عرّف إقليدس التحليل والتركيب في المقالة الثالثة عشرة من كتابه[٥]: «ما هو التحليل وما هو التركيب؟

5–DUHAMEL، (J.M.Constant)، *Des méthodes dans les sciences de raisonnement,* Première Partie، Troisième édition، Gauthier – Villars، Paris، 1885، PP.62، 39.

التحليل هو قبول الشيء المبحوث عنه كشيء معطى لاستنتاج نتائج تقود إلى حقيقة معطاة. وبالعكس فالتركيب يكون بدءاً من الأشياء المعطاة وباستنتاج نتائج تقود إلى معرفة الشيء المبحوث عنه».

إن الأشكال الخمسة الأولى[٦] من المقالة الثالثة عشرة من كتاب **الأصول** مبرهنة بهذه الطريقة.

ثانيهما: كتاب مجموعات رياضية لبابوس الإسكندراني (نهاية القرن الثالث الميلادي):

يرجع بابوس[٧] (Pappus) الإسكندراني طريقة التحليل والتركيب إلى أفلاطون، مع أنه لا يذكر أعماله البتَّة. ويشرح بابوس الطريقة في بداية الكتاب السابع من مؤلَّفه **مجموعات رياضية**.

٢ – طريقتا التحليل والتركيب في التراث العربي:

لم يرو الموروث اليوناني عن طريقة التحليل والتركيب ظمأ العلماء العرب لمعرفة منهج التفكير العلمي الذي يُعَدُّ ركناً أساسياً من أركان البحث العلمي المنظَّم الواعي المدروس، لذا اهتم العلماء العرب بهذا الموضوع ووضعوا مؤلفات خاصة به تعالج الموضوع نظرياً وتطبيقياً ولا سيَّما في مجال الهندسة، ومن ثَمَّ طبَّقوا طريقتي التحليل والتركيب في حلِّ المسائل الجبرية. ولذلك سندرس الطريقتين في علمي الهندسة والجبر.

أ – الهندسة:

وضع إبراهيم بن سنان وابن الهيثم كتابين في التحليل والتركيب، ولما للكتابين من أهمية وأولوية في معالجة الموضوع بشكل شامل وعام، آثرنا تلخيص بعض أفكارهما الأساسية.

6- EUCLIDE، *Les Oeuvres D'EUCLIDE*، Traduites par F. Peyrard، Librairie Blanchard، Paris، 1966، PP. 486-490.

7- PAPPUS، *La Collection Mathématique*، Traduction française Paul ver Eecke، 2 Volumes، Paris – Bruxelles، 1933، PP. 477-478.

١ – مقالة في طريق التحليل والتركيب وسائر الأعمال في المسائل الهندسية[٨]: لإبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني (٢٩٦-٣٣٥هـ/٩٠٨-٩٤٦م):

يبين ابن سنان – في مقالته – منفعة التركيب، ثم يتحدث عن العلاقة بين التحليل والتركيب، مميزاً بينهما، ومنبهاً المهندس على أهمية استخراج المسائل بالتحليل قائلاً: «فإنَّ الإنسان لو قرأ جميع كتب المهندسين، من غير أن يستخرج المسائل بالتحليل، فهو بمنزلة من لم يعرف من الهندسة شيئاً».

يبدو لنا أن طريقة التحليل والتركيب غير متبلورة تماماً في عصر المؤلف، ومع ذلك يقدم لنا المؤلف عرضاً متكاملاً للطريقتين نظرياً وعملياً.

٢ – مقالة في التحليل والتركيب لابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٢هـ/٩٦٥-١٠٤١م):

وضع الحسن بن الهيثم مقالة في التحليل والتركيب، وقد آثرنا تلخيص بعض الأفكار الأساسية في تلك المقالة لما لها من أهمية خاصة في معالجة الموضوع بشكل عام وشامل.

يتألف كتاب ابن الهيثم «**مقالة في التحليل والتركيب**»[٩] من خمسة أقسام أساسية، يفتتح ابن الهيثم كتابه بمقدمة موجزة يعرض فيها اعتبارات عامة حول طبيعة التفكير الرياضيِّ، ثم يقدم وصفاً عاماً لطريقة التحليل والتركيب. ويعالج ابن الهيثم في الجزء الثاني من كتابه مسألة تنوع التحليل وتصنيفه إلى أجناس مختلفة، وهي مسألة تناولها بابوس (Pappus) في أسطر قليلة.

٨- **ابن سنان**، إبراهيم، **رسائل ابن سنان**، مقالة في طريق التحليل والتركيب، تحقيق أحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣، ص ٢٧.

٩- **جاويش**، خليل، «التحليل والتركيب في الرياضيات الإسلامية: كتاب ابن الهيثم»، **تاريخ العلوم عند العرب**، تأليف مجموعة من الأساتذة الجامعيين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة»، تونس، ١٩٩٠م، ص ص: ٩-١٩.

يتناول ابن الهيثم من جديد في القسم الثالث من كتابه دراسة التحليل التي رسم خطوطها العريضة في البداية.

ويتطرق في الجزء الرابع من كتابه إلى مسألة مهمة وهي مسألة «آلات التحليل» أو ما يسميه أيضاً «مواد القياس»، وهي تهم كميات أو مقادير «معلومة» درسها إقليدس في «المعطيات».

وفي القسم الخامس يعطي ابن الهيثم أمثلة لطريقة التحليل والتركيب كما ينبغي إجراؤها في المسائل والقوانين.

ولكتاب ابن الهيثم امتيازان على مقدمة بابوس (Pappus) فهو أكثر تطويراً، ويتضمن شرحاً للمنهج التحليليِّ، وتصنيفاً مستقصياً له.

ونجد فيه دراسة مفصلة ومشخصة بأمثلة لكل أجناس التحليل، ولهذا الكتاب مزية أخرى هي إثباته أنَّ التحليل لا يقتصر على المجال الذي طبِّق فيه أولاً وهو الهندسة، بل هو منهج بحث عام صالح في ميادين الحساب والفلك والموسيقا.

ولم يشر ابن الهيثم إلى تطبيق التحليل والتركيب في مجال الجبر، إلا أنَّ كتابه يعدّ من الكتب المهمة في الحضارة العربية للأفكار الأصيلة التي طرحها ابن الهيثم في الكتاب، ولندرة المؤلفات التي انتهت إلينا في هذا الموضوع.

٣ – كتاب في تسهيل السبل لاستخراج الأشكال الهندسية[١٠] للسِّجزي:

يشرح السِّجزي (٣٤٠ – ٤١٥ هـ) استخراج شيء من الأشكال بطريقتي التحليل والتركيب ويعرفُّهما فيقول: «التركيب عكس التحليل: وذلك أن التركيب هو سلوك الطريق نحو النتيجة، بالمقدمات. والتحليل سلوكه نحو المقدمات التي تنتج المطلوب».

من الملاحظ أن تعريف السجزي للتحليل والتركيب أكثر تبلوراً من سابقيه.

ب – الجبر:

نشأ علم الجبر وتطور في ظل الحضارة العربية؛ إذ ارتأى الجبريون العرب ضرورة تطبيق المناهج العلمية، المنطقية المعروفة، ومنها التحليل والتركيب، في حلِّ المسائل الجبرية.

فقد عمدنا إلى إثبات بعض النصوص النظرية والأمثلة المذكورة في المؤلفات الجبرية المدروسة التي تنتمي إلى فترات تاريخية مختلفة فضلاً عن تنوُّع المناهج والآراء.

١ – الباهر في الجبر[١١] للسموءل المغربي (توفي نحو سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م):

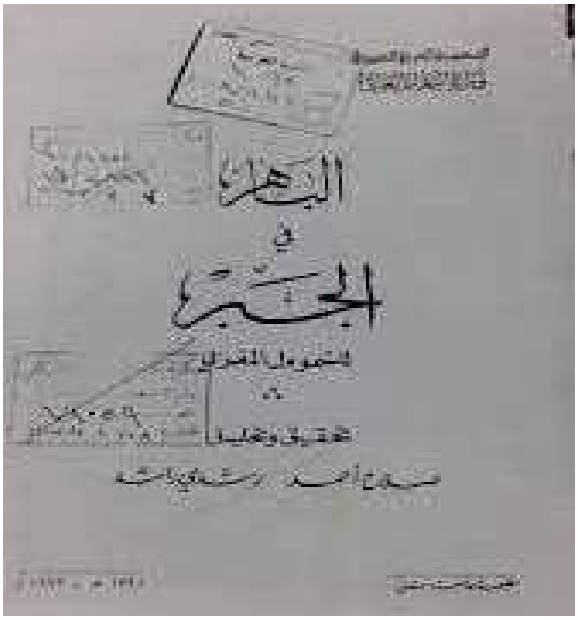

غلاف كتاب الباهر في الجبر

١٠ – **السجزي**، أحمد بن محمد بن عبد الجليل، «كتاب في تسهيل السبل لاستخراج الأشكال الهندسية»، **رسائل ابن سنان**، تحقيق أحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م، ص ص: ٣٤٢–٣٤٣.

١١ – السموءل المغربي، الباهر في الجبر، تحقيق وتحليل: صلاح أحمد ورشدي راشد، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. ص ص: ٧٣–٧٤.

لقد عدَّ السموءل صناعة الجبر جزءاً من صناعة التحليل، ويؤكد فكرته بسرد أحد الأمثلة الرياضية. وباستعراض تلك الأمثلة الرياضية نستنتج أنَّ طريقة الجبر والمقابلة هي نفسها طريقة التحليل عند السموءل.

٢ – أساس القواعد في أصول الفوائد[١٢] لكمال الدين الفارسي (توفي ١٢٦٦ /١٢٦٧–١٣١٩م):

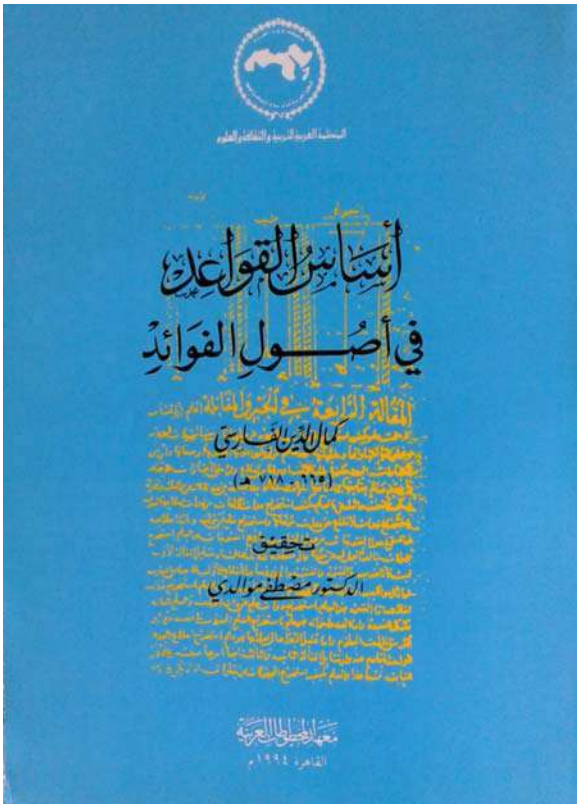

غلاف كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد

يؤكد كمال الدين العلاقة بين الجبر والتركيب، والحساب والتحليل، ونجده يعطي التعاريف الآتية:

«فعلم الجبر والمقابلة هو العلم باستخراج المقادير المجهولة من خواصِّ الأعداد المتناسبة المتوالية من الواحد بالتركيب دون التحليل». (صفحة ٥٠٣).

«استخراج المسائل بالجبر والمقابلة: استعلام الشيء من طريق التركيب، أي من علَّته». (صفحة ٥٦٧).

«فتعريف الجبر والمقابلة: هو أنه كيفية استعلام المجهول من العلم به بكونه جنساً من الأجناس أو أكثر بعينه، وبكونه متَّصفاً بما أعطاه السائل، وسوقه بالتصرفات إلى المعادلة، فأما استعلام الشيء بعكس هذا الترتيب».

«وهو أن يرتقي من المعلول إلى العلة – فهو المسمّى بالتحليل، وسأشير في بعض المسائل الآتية إلى الاستخراج بالتحليل أيضاً، ولا يحتاج فيه إلا إلى إعمال الفن المفتوح من الحساب إلا أنَّ في بعضها صعوبة عظيمة إذا سلك فيها ذلك المسلك». (صفحة ٥٧١).

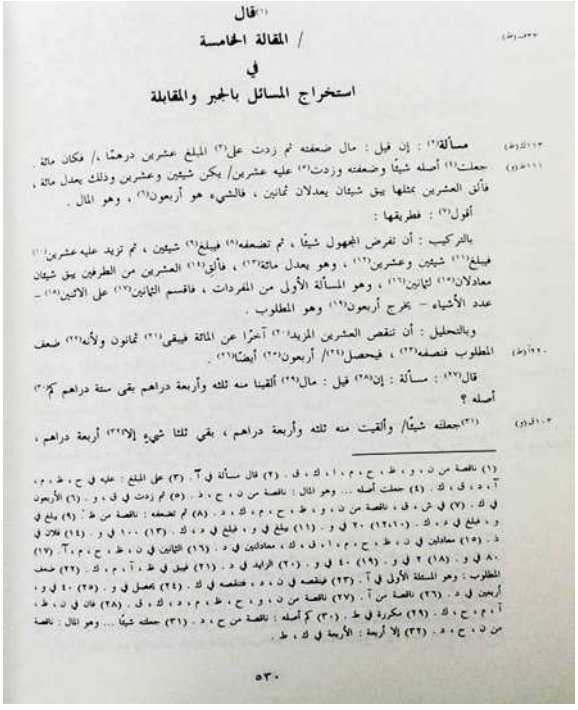
قال
/ المقالة الخامسة
في
استخراج المسائل بالجبر والمقابلة

مسألة[٢] : إن قيل : مال ضعفته ثم زدت على[٣] المبلغ عشرين درهمًا ،/ فكان مائة . جعلت[٤] أصله شيئًا وضعفته وزدت[٥] عليه عشرين/ يكن شيئين وعشرين وذلك يعدل مائة ، فألق العشرين بمثلها يبق شيئان يعدلان ثمانين ، فالشيء هو أربعون[٦] ، وهو المال .

أقول[٧] : فطريقها :

بالتركيب : أن تفرض المجهول شيئًا ، ثم تضعفه[٨] فيبلغ[٩] شيئين ، ثم تزيد عليه عشرين[١٠] فيبلغ[١١] شيئين وعشرين[١٢] ، وهو يعدل مائة[١٣] ، فألق[١٤] العشرين من الطرفين يبق شيئان معادلان[١٥] لثمانين[١٦] ، وهو المسألة الأولى من المفردات ، فاقسم الثمانين[١٧] على الاثنين[١٨] – عدد الأشياء – يخرج أربعون[١٩] وهو المطلوب .

وبالتحليل : أن تنقص العشرين المزيد[٢٠] آخرًا عن المائة فيبقى[٢١] ثمانون ولأنه[٢٢] ضعف المطلوب فنصفه[٢٣] ، فيحصل[٢٤]/ أربعون[٢٥] أيضًا[٢٦] .

قال[٢٧] : مسألة : إن[٢٨] قيل : مال[٢٩] ألقينا منه ثلثه وأربعة دراهم بقي ستة دراهم كم[٣٠] أصله ؟

[٣١]جعلته شيئًا/ وألقيت منه ثلثه وأربعة دراهم ، بقي ثلثا شيء إلا[٣٢] أربعة دراهم ،

(١) ناقصة من ن ، و ، ط ، ح ، م ، ١ ، ك ، ق . (٢) قال مسألة في آ . (٣) على المبلغ : عليه في ح ، ط ، م ، آ ، د ، ق ، ك . (٤) جعلت أصله ... وهو المال : ناقصة من ن ، و ، ط ، ح ، م ، ك ، د . (٥) ثم زدت في ق ، و . (٦) الأربعون في ك . (٧) في ش ، ق ، ناقصة من ن ، و ، ط ، ح ، م ، ك ، د . (٨) ثم تضعفه : ناقصة من ط . (٩) يبلغ في و ، فبلغ في د ، ك . (١٠) (١٢،١٠) ٢٠ في و . (١١) يبلغ في و ، فبلغ في د ، ك . (١٣) ١٠٠ في و . (١٤) فلان في ك . (١٥) معادلين في ن ، ط ، ح ، م ، ١ ، ق ، ك ، معادلين في د . (١٦) الثانين في ن ، ط ، ح ، م ، آ . (١٧) ٨٠ في و . (١٨) ٢ في و . (١٩) ٤٠ في و . (٢٠) الزايد في د . (٢١) فيبق في ط ، آ ، م ، ك . (٢٢) ضعف المطلوب : وهو المسئلة الأولى في آ . (٢٣) فنقصه في ن ، د ، فنقصه في ك . (٢٤) يحصل في و . (٢٥) ٤٠ في و ، أربعين في د . (٢٦) ناقصة من آ . (٢٧) ناقصة من ن ، و ، ح ، ط ، م ، ه ، ك ، ق . (٢٨) فان في ن ، ط ، آ ، م ، ح ، ك . (٢٩) مكررة في ط . (٣٠) كم أصله : ناقصة من ح ، د . (٣١) جعلته شيئًا ... وهو المال : ناقصة من ن ، ح ، د . (٣٢) إلا أربعة : الأربعة في ك ، ط .

٥٣٠

كتاب أساس القواعد في أصول الفوائد –طريقة التحليل والتركيب–صفحة ٥٣٠

١٢– MAWALDI، Moustafa، *L'Algèbre de Kamāl Al – Dīn Al – Fārisi*، Édition Critique، Analyse mathématique et Étude historique en 3 Tomes، Thèse (Université de la Sorbonne Nouvelle)، 1989.

سندرس منهج الفارسي في التركيب والتحليل باستعراض إحدى المسائل الرياضية:

«إن قيل: مالٌ ضعَّفته ثمَّ زدت على المبلغ عشرين درهماً، فكان مئة».

حلُّ المسألة بطريقة التركيب:

تفرض المجهول شيئاً = x

تضعِّف المجهول = 2x

تضيف إلى الناتج عشرين = 2x +20

(وهي المسألة الأولى من المفردات

2x +20=100 ← (2x = 80

إذنْ $x = \frac{80}{2} = 40$

حل المسألة بطريقة التحليل:

العملية الأخيرة: أضفنا العشرين إذنْ يجب طرحها ⟵ 80=100-20

العملية ما قبل الأخيرة: ضعَّفنا المجهول إذنْ يجب تقسيم المقدار على 2 ⟵ 40= 2÷80 إذنْ، المال أو المجهول = 40 .

من خلال تعاريف كمال الدين الفارسي لطريقة التحليل والتركيب وحلوله للأمثلة العديدة جداً في كتابه، أعتقد أن طريقة التحليل والتركيب كانت واضحة وناضجة في تفكيره ولا سيَّما في مجال تطبيقها على الجبر.

٣ – مفتاح الحساب[١٣] لجمشيد الكاشي (توفي سنة ١٤٢٩م)

يشرح الكاشي في بداية الباب الرابع (في الأمثلة) من كتابه طريقة التحليل والتركيب في حلِّ المسائل، فيقول:

غلاف كتاب مفتاح الحساب

«اعلم أنَّ في استخراج المجهولات العددية من معلوماتها طرقاً مختلفة، وهي إمَّا محتاجة إلى فرض المجهول شيئاً مبهماً **كعلم الجبر والمقابلة**، وإمَّا غير محتاجة إليه، ويسمى **بعلم المفتوحات**، وهي كمقدمات الحساب التي سبقت أو كما يحصَّل ببعض من تلك المقدمات، واستعانة ببعض القوانين من النسبة، وهو شامل لمسألة الخطأين أيضاً أفرزت منه لخصوصيتها، بفرض المجهول عدداً ثم عدداً آخر، وربما كان السؤال مغلقاً من جهة العبارة لا نفهم في بدء الحال كيفية المناسبة بين مجهولاته ومعلوماته، فنظن ألَّا يحصل استخراجه بالمفتوحات، أو لا يمكن التصرف فيه بالجبر والمقابلة أو لا ينتهي بعد التصرف فيه إلى المعادلة أو تكون مستحيلة، فينبغي للمستخرج أن يمعن النظر، ويخلص عبارته،

١٣– **الكاشي**، جمشيد، **مفتاح الحساب**، تحقيق وتقديم دراساته نادر النابلسي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٧٧، ص ٤٨٩.

ويعرف المناسبة بين معلوماته ومجهولاته وخواص بعضها مع بعض ولوازمه حتى يسهل عليه استخراج المجهول منه، ويقال لهذا الأمر التحليل والتركيب، وينبغي أن يكون ماهراً مستحضراً لمقدمات الحساب وسائر قوانينه، ويكون صاحب ذهن ذكي وحدس قوي وطبع سليم».

ثم يسرد الكاشي بعض الأمثلة على طريقة التحليل والتركيب. من خلال تعريف الكاشي لطريقة التحليل والتركيب وحلوله للأمثلة التي ذكرها في كتابه أعتقد أن طريقة التحليل والتركيب غير واضحة في ذهنه تماماً، رغم تطبيقه لطريقة التحليل في مثاله الأول.

٤ – الأعمال الرياضية[١٤] لبهاء الدين العاملي (٩٥٣–١٠٣١هـ/ ١٥٤٧–١٦٢٢م):

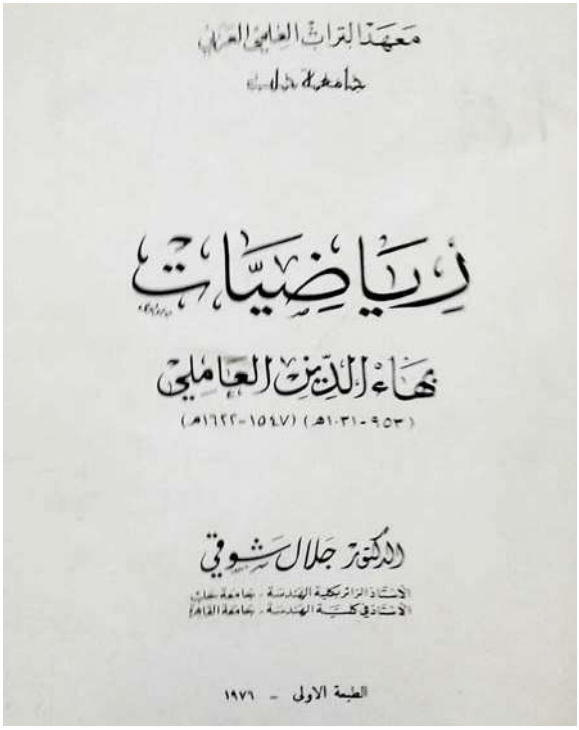
معهد التراث العلمي العربي
جامعة حلب

رياضيات

بهاء الدين العاملي

(٩٥٣-١٠٣١هـ) (١٥٤٧-١٦٢٢م)

الدكتور جلال شوقي

الأستاذ في الجامعة التركية الهندسة - جامعة حلب
الأستاذ في كلية الهندسة - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى - ١٩٧٦

غلاف كتاب رياضيات بهاء الدين العاملي

خصَّص العامليُّ الباب الخامس من كتابه لطريقة التحليل، وأسماها «العمل بالعكس»، وشرحها كما يأْتي: «وقد يسمَّى بالتّحليل والتّعاكس، وهو العمل بعكس ما أعطاه السَّائل، فإن ضعَّف فنصِّف أو زاد فانقص، أو ضرب فاقسم، أو جذَّر فربِّع، أو عكس فاعكس، مبتدياً من آخر السُّؤال ليخرج الجواب».

يسرد العاملي في كتابه مسائل متفرقة يحلُّها بطرق مختلفة: طريقة الجبر، وطريقة الخطأين وطريقة التحليل.

الباب الخامس

في استخراج المجهولات بالعمل بالعكس

وقد يسمى بالتحليل والتعاكس ، وهو العمل بعكس ما أعطاه السائل ، فإن ضعف فضعف ، أو زاد فانقص ، أو ضرب فاقسم ، أو جذر فربع ، أو عكس فاعكس ، مبتدأ من آخر السؤال ليخرج الجواب .

فلو قيل أي عدد ضرب في نفسه ، وزيد على الحاصل اثنان ، ونصف وزيد على الحاصل ثلاثة دراهم ، وقسم المجتمع (١) على خمسة ، وضرب الخارج في عشرة حصل خمسون. فقسمها على العشرة ، واضرب الخمسة في مثلها وانقص من الحاصل ثلاثة ، ومن منصف الاثنين والعشرين ، وجذر التسعة جواب .

ولو قيل أي عدد زيد عليه نصفه وأربعة دراهم ، وعلى الحاصل كذلك بلغ عشرين ، فانقص الأربعة ثم ثلث الستة عشر ، لانه النصف (٢) المزيد ، يبقى عشرة وثلثان ، ثم انقص منه اربعة ، ومن الباقي ثلثه يبقى اربعة ، وأربعة اتساع ، وهو الجواب .

(١) « المجموع » في المخطوط ٧٥٣ .
(٢) في المخطوط ١٢٥٣ : بالنصف .

شرح :

في هذه الطريقة يبدأ الحل من نهاية المسألة ، ونجري الخطوات بعكس مايرد في منطوق المسألة حتى نصل بالتسلسل الى قيمة المجهول .

المثال الاول :

في هذا المثال تنتهي المسألة بالعدد ٥٠ فهو نقطة البداية ، وحيث انه نتج من ضرب عدد قبله في ١٠ ، فيكون العدد السابق على الـ ٥٠ هو ٥٠/١٠ ، وحيث ان هذا نتج من قسمه سابقة على العدد ٥ ، فالاصل اذن $\frac{٥٠}{١٠}$ ، ولما كان قد زيد عليه ٣ ، فأصله ٢٥-٣=٢٢

٧٩

كتاب رياضيات بهاء الدين العاملي – في استخراج المجهولات بالتحليل والتعاكس– الصفحة ٧٩

٣– مخطط توضيحي للمنهج المنطقي للطريقتين:

من خلال دراسة منهجية للطريقتين وتطبيقاتهما في مجال الرياضيات عامةً والجبر خاصة يمكننا تلخيص منهج كلّ طريقة كما يأْتي:

١٤– **العاملي**، بهاء الدين، **رياضيات بهاء الدين العاملي (٩٥٣–١٠٣١هـ) (١٥٤٧–١٦٢٢م)**، تحقيق جلال شوقي، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ١٩٧٦، ص ٧٩.

طريقة التحليل:

ترتكز طريقة التحليل على مبدأ الارتقاء من الفرضية المطلوب برهانها نحو الفرضيات الأولية أو نحو الخواصِّ التي تعرف بأنها صحيحة، إذنْ بوساطة طريقة التحليل نردُّ المسألة المطروحة إلى مسألة ثانية، وهذه إلى مسألة ثالثة وهكذا حتى نصل إلى مسألة نعرف حلَّها، وبالنتيجة يجب علينا تشكيل سلسلة من المسائل بحيث تكون الأولى نتيجة ضرورية للمسألة التي تليها، ومنه نستنتج أنَّ المسألة الأولى هي نتيجة للمسألة الأخيرة، وإذا ما عرفنا حلَّ المسألة رقم /ن/ عرفنا بالضرورة حلَّ المسألة الأولى. **وهكذا نحصل على المخطط الآتي:**

طريقة التحليل

المسألة الأولى (وهي المسألة التي نرغب في حلها) ... هي نتيجة ضرورية للمسألة الثانية.

المسألة الثانية .....

..... هي نتيجة ضرورية للمسألة الثالثة.

المسألة الثالثة .....

..... هي نتيجة ضرورية للمسألة الرابعة.

المسألة رقم (ن – ١) .....

.....هي نتيجة ضرورية للمسألة رقم (ن) (وهي المسألة التي نعرف حلَّها).

إذنْ: المسألة الأولى نتيجة ضرورية للمسألة رقم (ن)، وإذا ما عرفنا حلَّ المسألة رقم (ن) فسنعرف حلَّ المسألة الأولى.

* تعدّ متابعة الحلِّ التحليلي سهلةً؛ لأننا نتبين العلاقة القائمة بين الفرضية المطلوب برهانها والفرضيات التي نتوصل إليها بشكل متتابع.

طريقة التركيب:

طريقة التركيب هي عكس مراحل طريقة التحليل وعن طريقها نستطيع حلَّ المسائل الجبرية.

ترتكز طريقة التركيب على البدء بمعطيات المسألة والانتهاء ببناء الطلب المطلوب برهانه.

إذنْ نستنتج من حلِّ المسألة – التي نعرف حلَّها – حلَّ المسألة التي تسبقها، ومن حل المسألة التي تسبقها نستنتج حلَّ المسألة التي قبلها وهكذا حتى نصل إلى المسألة المعطاة، ومن ثَمَّ نصل إلى حلِّها.

وبذلك **نحصل على المخطط الآتي:**

طريقة التركيب

نستنتج من حلِّ المسألة رقم ن (التي نعرف حلها) .... حلَّ المسألة رقم (ن – ١)

نستنتج من حلِّ المسألة رقم (ن – ١) ..... حلَّ المسألة رقم (ن – ٢)

نستنتج من حلِّ المسألة رقم٣..... حلَّ المسألة رقم (٢)

نستنتج من حلِّ المسألة رقم٢..... ..... حلَّ المسألة رقم (١)

(وهي المسألة التي نرغب في برهانها)

إذنْ نستنتج من حلِّ المسألة رقم (ن) حلَّ المسألة رقم (١).

إذا كنا نعرف من أيّ مسألة – معروف حلُّها – توافقنا المباشرة لنستنتج من حلِّها حلول جميع المسائل الوسيطة المتتالية حتى المسألة المطلوب حلُّها، نستطيع اتباع نهج طريقة التركيب.

البرهان بالقياس:

يكتفي الرياضي أحياناً بالإشارة إلى أنَّ حلَّ مسألة ما مشابه لحلِّ مسألة أخرى، أو لا يعطي كلَّ التفاصيل لبراهينه، ونستطيع أن نستنتج أن الأستاذ يسأل طلابه بشكل غير مباشر بذل حدٍّ أدنى من الجهد.

ويعبّر الرياضي عن هذه الطريقة بتعابير مختلفة:

حلُّ مسألة مشابه لحلِّ مسألة أخرى.

تمَّ البرهان على قياس برهان مسألة أخرى.

«وهكذا» أو قس بطريقة مشابهة لمسائل مشابهة.

نستطيع اعتبار هذه الطريقة من البرهان نوعاً من التمارين لتمرين الطلاب على هذا النوع من المسائل.

الخاتمة:

١- وضع المؤلفات الكاملة في موضوع البرهان – التحليل والتركيب – يعدّ شاهداً على إسهام العرب في وضع الأسس النظريّة للعلوم، وتطبيق طريقتي: التحليل والتركيب في البرهنة على النظريات والمسائل، وامتداد تطبيقهما على العلم الجديد – الجبر – قبل غيرهم.

٢-اختصار البراهين –أحياناً – كسباً للجهد وللوقت.

٣-تقديم أكثر من برهان واحد للمسألة الواحدة –أحياناً– كوسيلة لتدريب المتعلم.

٤-استخدم العلماء العرب البراهين المباشرة والبراهين غير المباشرة.

٥-عدم تقديم براهين للمسائل العملية المقدمة للصُّناع والعامَّة من الناس تسهيلاً لاستخدامها.

المصادر والمراجع العربية

١- ابن سنان، إبراهيم، **رسائل ابن سنان**، «مقالة في طريق التحليل والتركيب»، تحقيق أحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م.

٢- بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، الطبعة الثالثة، وكالة المطبوعات بالكويت، ١٩٧٧م.

٣- جاويش، خليل، «التحليل والتركيب في الرياضيات الإسلامية: كتاب ابن الهيثم»، تاريخ العلوم عند العرب، تأليف مجموعة من الأساتذة الجامعيين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة»، تونس، ١٩٩٠م.

٤- السجزي، أحمد بن محمد بن عبد الجليل، «كتاب في تسهيل السبل لاستخراج الأشكال الهندسية»، رسائل ابن سنان، تحقيق أحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م.

٥- السموءل المغربي، الباهر في الجبر، تحقيق وتحليل: صلاح أحمد ورشدي راشد، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٦- العاملي، بهاء الدين، رياضيات بهاء الدين العاملي (٩٥٣-١٠٣١هـ) (١٥٤٧-١٦٢٢م)، تحقيق جلال شوقي، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ١٩٧٦.

٧- الفارسي، كمال الدين، أساس القواعد في أصول الفوائد، تحقيق مصطفى موالدي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٨- قاسم، محمود، المنطق الحديث ومناهج البحث، طبع القاهرة، ١٩٦٦م.

٩- الكاشي، جمشيد، مفتاح الحساب، تحقيق وتقديم دراساته نادر النابلسي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٧٧م.

١٠- موالدي، مصطفى، «تطور مناهج البحث في العلوم الرياضية»، الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة دمشق ٢٨-٣٠ تشرين الأول ٢٠٠٨م.

١١- النشار، علي سامي، **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.

المراجع والمصادر الأجنبية

1)DUHAMEL،(J.M.C)، Des méthodes dans les sciences de raisonnement، Première Partie، Troisième édition، Gauthier – Villars، Paris، 1885.

2)EUCLIDE، Les Oeuvres D'EUCLIDE، Traduites par F.Peyrard، Librairie Blanchard، Paris، 1966.

3)MAWALDI،(Moustafa.)، L'Algèbre de Kamāl Al Dīn Al- Fārisī، Édition Critique، Analyse mathématique et Étude historique en 3 Tomes، Thèse (Université de la Sorbonne Nouvelle)، 1989.

4)PAPPUS، La collection Mathématique، Traduction française Paul ver Eecke، 2 Volumes، Paris – Bruxelles، 1933.

فنُّ الإدارة في الفكر العربي الإسلامي

نبيل تللو
سوزان أبو حمزة*

فـنُّ الإدارة هو علمُ استخـدام الموارد المتاحة في مشـروع أو مؤسَّسة أو تنظيـم على أفضل الوجـوه الممكنة كمًّا وكيفًا وتكلفة وزمنًـا لبلوغ أغراض مقرَّرة، وبعبارةٍ أخرى هي فنُّ تنسيق عوامل (عناصر) الإنتاج سعيًا وراء تحقيـق أغراض مقرَّرة لمؤسسة أو تنظيـم، وذلك بالإفادة من جهد الإنسان والمـوارد المتاحـة ووسائـل الإنتـاج على أكمل وجـه، وعوامـل الإنتاج هي الأرض واليد العاملة ورأس المال وعمليات التنسيق بينها.

وهـذا العلـم هو مـن العلـوم التي بـرع فيهـا العرب منـذ نشـوء الدولة الإسلاميـة، بـل إنَّهـم سبقـوا الغرب فيمـا يتعلَّـق بالظهـور التاريخي لعلم «إدارة الأعمال»، الذي بدأ على أيدي المديرين المتفقِّهين في الشركات الكبيرة مثل«فريديـرك تايلـور في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، بكتابـه «الإدارة العلميـة» (١٩١٢)، وهـنري فايـول في فرنسـا، بكتابـه «الإدارة الصناعية والعامة» (١٩١٦)، وهذان الكتابان لا يزلان يُعَدَّان من المصادر الأساسية في علـم إدارة الأعمال، وما جـاء فيهما من وظائف وأقسام وآليات عمل الشركة الحديثـة يشبـه إلى حـدٍّ كبير ما جاء بـه رواد الكتَّاب العـرب في شرح آليات عمـل الدواوين، الذين أسهموا فيـه بفيضٍ وغزارة، وهذه المقالة تلقي نظرةً سريعـةً على المخطوطات المحقَّقة المتعلِّقة مباشرةً بصناعة الكتابة وإنشاء وتنظيم الدواويـن، على مدى العصور المتعاقبـة للدولة الإسلامية، راجين أن يتذكَّر كرام القارئات والقراء ما نسوه، وأن يتعرَّفوا ما لا يعرفونه، آملين أن نكون قد قدَّمنا لهم المعلومة المفيدة والمهمة.

* باحثان في شؤون التُّراث والمخطوطات العربيّة.

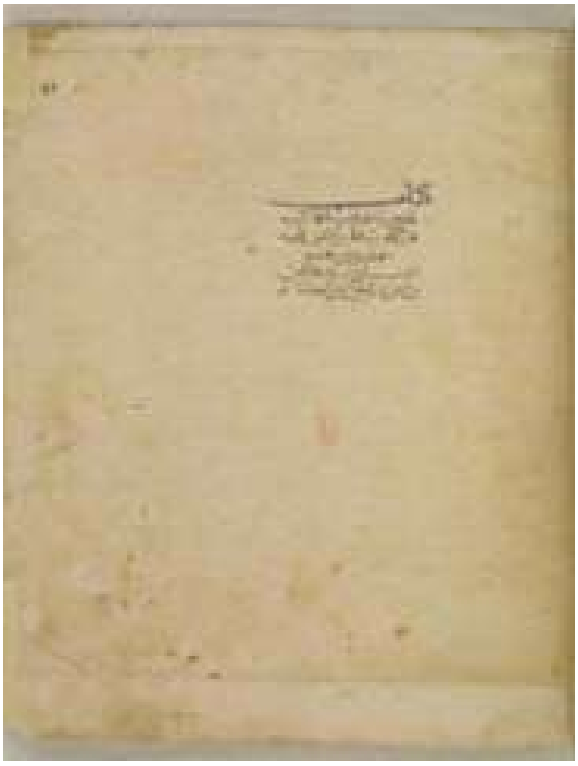

صفحة الغلاف من مخطوط أدب الكاتب لابن قتيبة

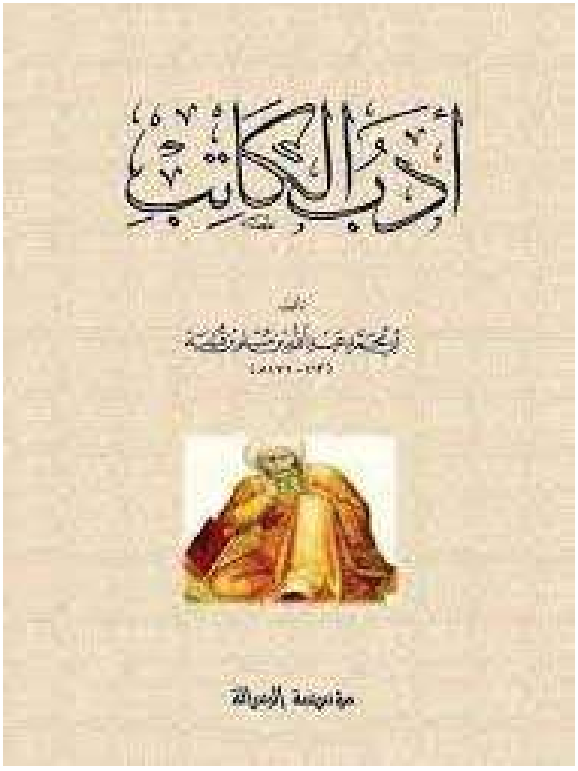

غلاف كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة

عـرف العـرب الكتابـة قبـل الإسـلام، وكانـت شرطًا أساسـيًا لرفـع المكانة الاجتماعية، إضـافة إلى الفروسية والرمي، وكانت موضوعاتها متعدِّدة مثـل العهود والمواثيق التي كانت تعلَّق على الكعبة، ومع انتشـار الإسـلام انتشـرت الكتابـة العربية، تخدمـه ويخدمهـا، وخرجت من الجزيـرة العربية في كلِّ الأنحـاء، وحلَّـت الحـروف العربيـة محـلَّ حروف أممٍ أخرى مثل الفارسـية، فأصـبحت أداة للاتصـال والتوثيق وإدارة شـؤون الدولة العربية الإسـلامية الفتيـة، وبهـا تُوجَّه الرسـائل للدخول في الإسـلام، وتُعقـد الاتفاقـات والمواثيـق، وكانت لغة التجـارة والاقتصـاد، وكان هذا بدايةً لنشـوء مصطلح: «الديوان» و«الدواوينية»، وكلمة الديوان كمصطلح في اللغة العربية يشير إلى المكان الذي يتمُّ فيـه النظر بشـؤون الدولة، وهي فارسـية الأصـل معناها «مكان حفظ السجلات»، ويقابلها في العصر الحديث كلمة «مكتب» التي نشأت كنتيجة للاتصال مـع العالم الغربـي، إذ يجلس الموظَّفـون (الكتَّاب) لإنجاز أعمالهم، ومع تطوُّر العمل الإداري وتعقيده ظهـر في النصـف الثـاني مـن القـرن الثامـن عشر الميـلادي مصـطلح: «البيروقراطيـة» المسـتمد من الكلمة الفرنسية «BUREAU»، وتعني «المكتب»، ويشـير إلى الأعمـال المكتبيـة واسـتخدام سـلطة المكاتب وما رافق ذلك من تعقيدات في إنجاز الأعمال الإدارية.

ولمزيدٍ من التوضيح حول نشوء علم إدارة الأعمال في التاريـخ العربي الإسـلامي، فإنَّنا نقسـمها حسـب العصور، والبداية مع:

غلاف كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري

غلاف كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر

١- العصر النبوي (١ - ١١ هـ - ٦٢٢ - ٦٣٢ م):

تُجمع المصادر على أنَّ الكتابة العربية قد استقرّت مع نزول القرآن الكريم وانتشار الإسلام، فالكتابة والتدوين هما أفضل وسيلة لانتشار الأفكار وديمومتها، وهكذا أوصى النبي (ص) بإطلاق سراح الأسير في معركة بدر إذا علَّمَ عشرةً من صبيان المسلمين الكتابة، فغدت الكتابة العربية وسيلةً من وسائل الدعوة والحكم، وفيها كُتِبَ الوحي، وصدرت المكاتبات عن الرسول إلى أصحابه، ودُوِّنت الدواوين، وضُبطت أمور الدولة، وإلى دولة الرسول يُنسب أول عهدٍ لتشكيل «ديوان الإنشاء»، والديوان كلمة فارسية الأصل تعني مكان السجلات، ومن أشهر كُتَّاب النبي محمد عليه السلام: أبو بكر الصِّدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان وعلي بن أبي طالب وأبو سفيان وغيرهم، ويقول القلقشندي (سيرد ذكره بعد قليل): إنَّه رأى في سير المتأخرين أنه كان للنبي أكثر من ثلاثين كاتبًا.

لا يوجد مخطوطات كُتِبت في عهد الرسول عن صناعة الكتابة وإنشاء الدواوين، ولكنَّ بالإمكان الاستدلال على هذه الوظائف من خلال الأحاديث النبوية الشريفة والتأريخ للحوادث التي حدثت في عصر النبوة، ومن أقوال وسِيَرِ الصحابة والتابعين، وقد جمع هذه الحوادث العلَّامة «محمد الكتَّاني» وإسقاطها على مصطلحاتٍ معاصرة في سِفرٍ ضخم من مجلَّدين عنوانه: «نظام الحكومة النبوية المسمَّى التراتيب الإدارية»، وممَّا جاء فيه سرد للعمليات الكتابية وعلاقتها بالإدارة، فيتحدَّث عن الكتَّاب ونوابهم، وكتابة السِّرّ، والعهود والخراج، وكيفية المخاطبة وذكر العنوان وبدء الرسائل الرسمية وختمها. فإثر هجرة الرسول إلى المدينة، أقام أول مقرٍّ لإدارة شؤون الدعوة في المسجد، ومنه أُديرت الشؤون العامة لهذه الدولة الفتية، فالرسول كان يصدر الأوامر والتعليمات والتوجيهات، وكان يطلب من أصحابه أن يكتبوا عندما يتعلَّق الأمر بموضوعٍ مهم مثل صلح الحديبية، فكان هناك كتَّاب للوحي وآخرون

غلاف كتاب إحصاء العلوم للفارابي

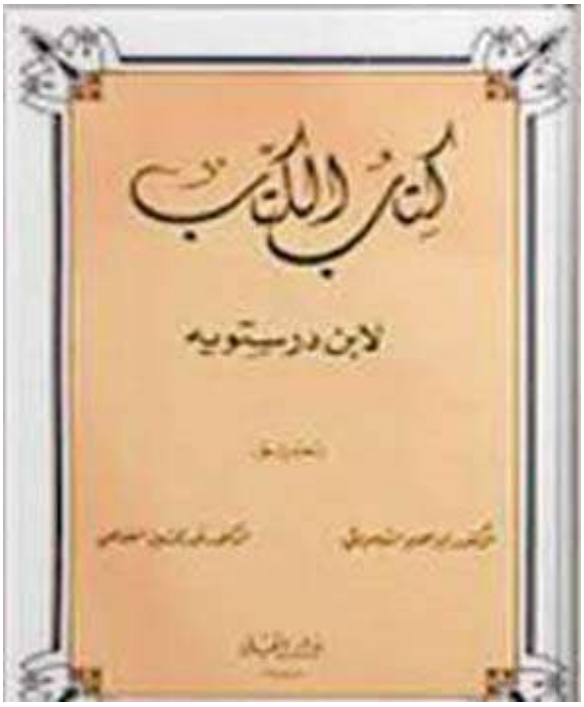

غلاف كتاب الكتَّاب لابن درستويه

للمراسلات والمال والجيش والقضاة وصاحب المظالم وقارض النفقات وقارض المواريث وصاحب العسس والسجان والعيون والجواسيس والمرستان والمدارس والزوايا ونصب الأوصياء والممرضات والجراحين والصيارفة وصاحب بيت المال ومتولي خراج الأرض وقاسم الأرض وصانع المنجنيقات ورواميها وصاحب الدبابات وحافر الخنادق والصواغين وأنواع المتاجر والصناعات والحِرف، فكان ذلك بداية تشكيل ديوان الإنشاء وبعض الوظائف الضرورية والمهمة، وإن لم تكن ذات قواعد وأنظمة ثابتة، ولكنَّها كانت مسندة إلى الأَكْفَاءِ من أصحابه وأعوانه، حتى إنَّ العشر سنوات التي أمضاها الرسول في المدينة قد وصلت فيها الإدارة إلى أحدث ما يُعرف عن الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك، ولكنَّ ذلك تجلَّى بوضوحٍ أكبر في:

٢- العصر الراشدي: (١١ - ٤٠ هـ، ٦٣٢ - ٦٦١ م):

في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، بدأت النظم الإدارية والمالية للدولة الإسلامية بالتشكُّل، ففي عهدي الرسول وأبي بكر لم تظهر الحاجة للكتابة الحسابية والمالية، فالزكاة والغنائم والفيء كانت توزَّع أولًا بأول دون الحاجة إلى تدوين وعمليات حسابية، ولم يكن هناك بيت مال للمسلمين ولا مرتَّبات ولا جيوش ثابتة ولا غيرها ممَّا يحتاج إلى تدوين، أما في عهد عمر فقد تغيَّرت الأحوال نتيجة الأمور التي استجدَّت، ولا سيما بعد الفتوحات الإسلامية وكثرة الأموال وتزايد عدد المسلمين من عربٍ وغيرهم وإنشاء الجيش النظامي، ومِنْ ثَمَّ فرض المرتبات الثابتة للولاة والعمال والجيش، ممَّا دفع عمر إلى تنظيم أمور الدولة المترامية، التي أصبح لها

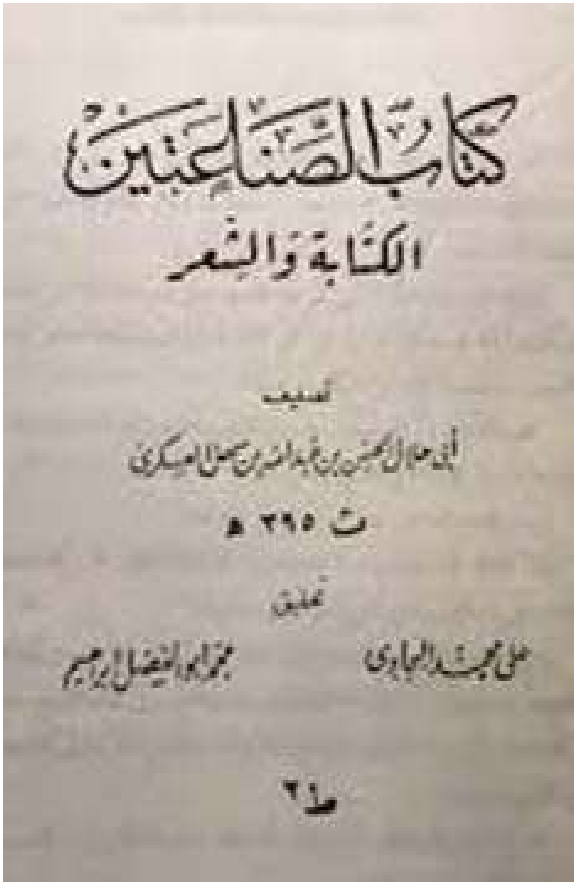

غلاف كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري

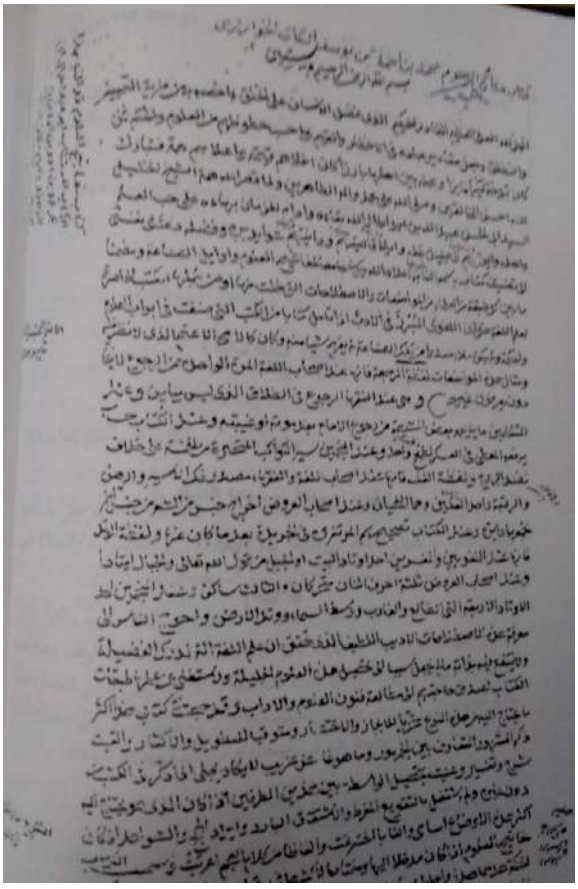

مخطوط مفاتيح العلوم للخوارزمي

واردات ومنصرفات، فاقتضت هذه الحياة الجديدة إنشاء الدواوين، وهي:

– ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل: ويهتم بالمكاتبات وحفظ الوثائق الرسمية.

– ديوان الخراج والجِزية، أو ديوان الجباية: الذي يهتم بتسجيل الأموال الواردة إلى الخلافة وكيفية التصرُّف فيها، وكان له فروع في الأمصار المفتوحة، وكان التدوين فيه، ولا سيما في الفروع، يتمُّ بلغات البلاد المفتوحة، وكتَّابه من أبناء الولايات نفسها.

– ديوان الجُند: ويهتم بتسجيل الجُند وصرف نفقاتهم، وكان العمل فيه يتمُّ باللغة العربية وكتَّابه من العرب.

– ديوان العطاء، أو ديوان المال: وعمله الأساسي توزيع الأموال على الرعية.

ومع أنَّ هذه الدواوين يكاد يتَّفق على تعريفها ومهامها ووظائفها جميع من بحث في هذا الموضوع، هناك دواوين أخرى ذكرها بعضهم وأغفلها آخرون، وأيًّا كان العدد أسهمت جميعُها في تأسيس أركان الدولة الإسلامية المتمثِّلة بالدواوين، التي شهدت توسُّعًا كبيرًا في:

٣– العصر الأموي: (٤١ – ١٣٢ هـ، ٦٦١ – ٧٥٠ م):

توسَّعت رقعة الدولة الإسلامية في عصر بني أميَّة وترامت أطرافها، ما أدَّى إلى توسُّع أعمالها تدريجيًا،

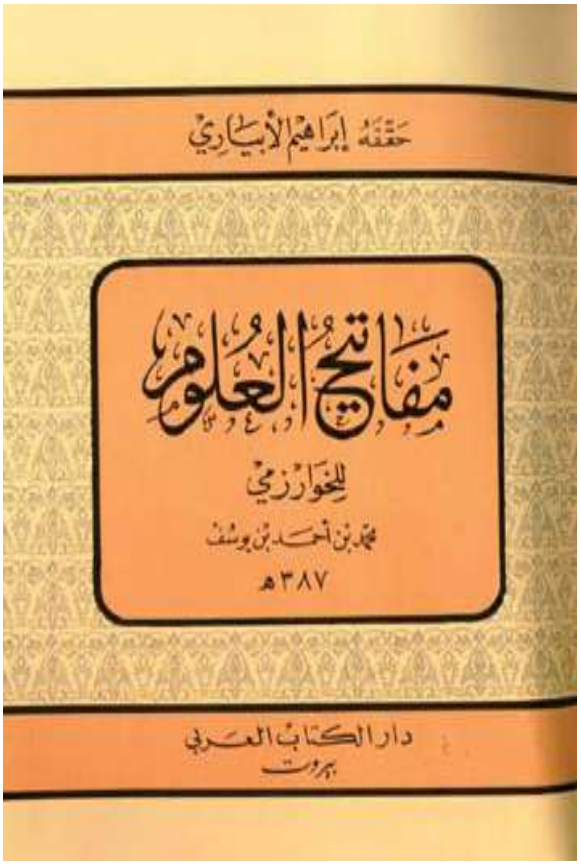

غلاف كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي

غلاف كتاب الفهرست للنديم

وتبع ذلك ازدياد عدد الدواوين وتطوُّر أعمالها ونمو النظم الإدارية، فتعدَّدت مستوياتها وتنوَّعت تخصّصاتها، وأُحدثت فروع للدواوين في الأمصار، وتوسَّعت الدواوين المركزية في عاصمة الخلافة بدمشق.

استمرَّ الأمويون على العمل في نظام الدواوين التي كانت قائمة أيام عمر بن الخطاب، وزادوا عليها، بحيث صارت على النحو الآتي:

– ديوان الإنشاء: تطوَّر وأصبح له نظير في كلِّ ولاية.

– ديوان بيت المال: أُنشئ له دواوين فرعية في الأمصار.

– ديوان الجند: استمر العمل فيه كما كان قائمًا في عهد عمر بن الخطَّاب.

– ديوان الخراج وضريبة الأرض: استمرَّت الكتابة فيه بلغة البلد المحلية.

– ديوان الخاتم: لتثبيت أوامر الخليفة وختمها وحزمها وإرسالها.

– ديوان البريد: يُرسل الكتب إلى الولايات والأمصار، ويتلقَّى ما يصل إلى الخليفة من رسائل، ويجري ذلك بوساطة فرسانٍ كانوا يمرون على محطاتٍ موزَّعة على طرقٍ تصل دمشق بالأمصار.

– ديوان الذراري: وهو ديوان عطاء مختص بذوي الجُنْد.

غلاف كتاب القانون في ديوان الرسائل لابن الصيرفي

مخطوط كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتي

– ديوان الطراز: وهو مسؤول عن المعامل التي تنتج الألبسة الرسمية.

– ديوان الصدقات: ويوزّع الصدقات على المحتاجين حسب شدة الحاجة.

يُشار إلى أنَّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي حَكَمَ بين عامي ٦٥ –٨٦ هـ، ٦٨٥ – ٧٠٤ م، هو الذي أمر بتعريب الدواوين، فلمّا وجد لغة الإدارة الرسمية تُكتب باللغات الأجنبية، طلب تعريبها، وشمل التعريب دواوين العراق والشام ومصر تدريجيًا، وكان يقوم بهذا العمل رومٌ وفرسٌ ومن أهل الذمة.

غير أنَّ التوسُّع الأكبر في عددِ الدواوين ومهامها قد حدث في:

٤– العصر العبَّاسي (١٣٢ – ٦٥٦ هـ، ٧٤٩ – ١٢٥٨ م):

شهد العصر العبَّاسي نهضة في شتَّى مناحي الحياة الثقافية والعمرانية والعلمية، ومنها صناعة الكتابة الدواوينية التي رأت في العصر العبَّاسي قمة نموها وازدهارها، فقد تزامن قيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ، ٧٤٩ م، مع بدء صناعة الورق في مدينة سمرقند غرب الصين، وكانت بغداد المركز الرئيسي لإنتاج الكتب والاتِّجار بها، وتطوَّرت الدواوين تطورًا كبيرًا، وقام على خدمتها عددٌ كبيرٌ من الكتَّاب، وظهر اصطلاح الوزارة مؤسَّسةً سياسية ومنصبًا رسميًا في عهد الخليفة المعتصم، وكان قبل ذلك لقبًا يمنحه الناس

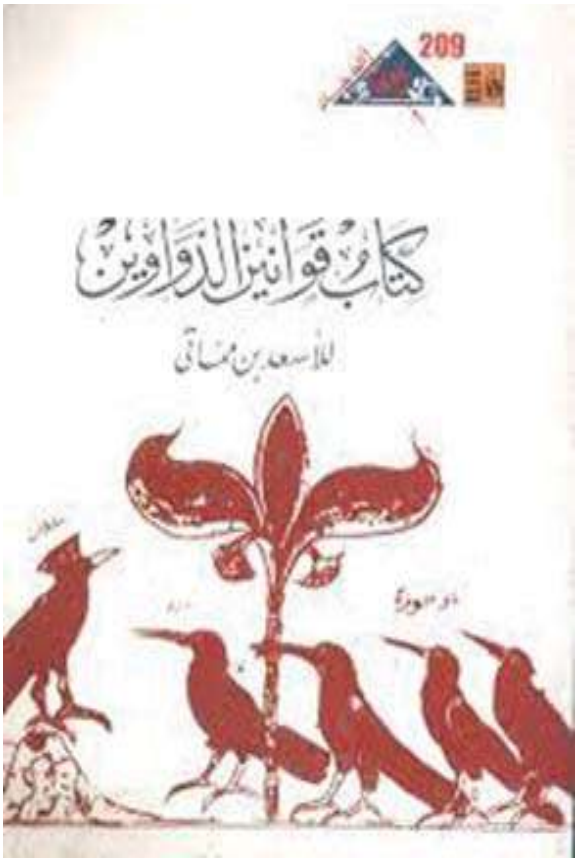

غلاف كتاب قوانين الدواوين

غالبًا لمن يقوم بمعونة الخليفة في إدارة البلاد ويرأس جهازه الكتابي، وتجاور مع اصطلاح الديوان، والوزير كلمة عربية الأصل من فعل وَزَرَ ومعناه ساعد وآزر وساند، وفي هذه الفترة بدأت تظهر أدبيات الكتابة المهنية المتخصِّصة التي نشأت في القرن الثالث الهجري، العاشر الميلادي، ومنها حسب تسلسل سنوات وفاة أصحابها:

– ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ، ٨٢٨ – ٨٨٩ م): من أشهر علماء عصره في اللغة والأدب وعلوم القرآن والحديث، وأغزرهم تأليفًا، وأكثرهم استقلالاً في فكره وجرأةً في قول الحق، وما يهمنا من مؤلفاته – في سياق هذه المقالة – هو كتابه: «أدب الكاتب»، الذي يُعَدُّ أول

صفحة من مخطوط صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي نُسِخت عام ١١٩٣ هـ، ١٧٨٠ م

كتاب منظم في الثقافة اللغوية الضرورية للكتَّاب، والذي قال عنه: إنَّهُ كتاب تقويم لليد واللسان، ففيه يركِّز على المعرفة اللغوية والحساب وعلى تأديب الكاتب لنفسه وتهذيب أخلاقه وصناعته أكثر من تركيزه على النواحي الإدارية والفنية لوظيفة الكاتب، ولذا قسَّمه إلى أربعة كتب: كتاب المعرفة اللغوية، كتاب تقويم اليد لرسم الحروف، كتاب تقويم اللسان للفظ الكلام، كتاب أبنية الأفعال والأسماء. وقد حقَّق الكتاب الدكتور محمَّد أحمد الدَّالي، وصدر عن مؤسّسة الرّسالة في بيروت، ١٩٨٢م.

– الجهشياري (المتوفَّى عام ٣٣١ هـ، ٩٤٣ م): من أهل الكوفة، ولكنَّه نشأ مع أبيه في بغداد، من المؤرخين

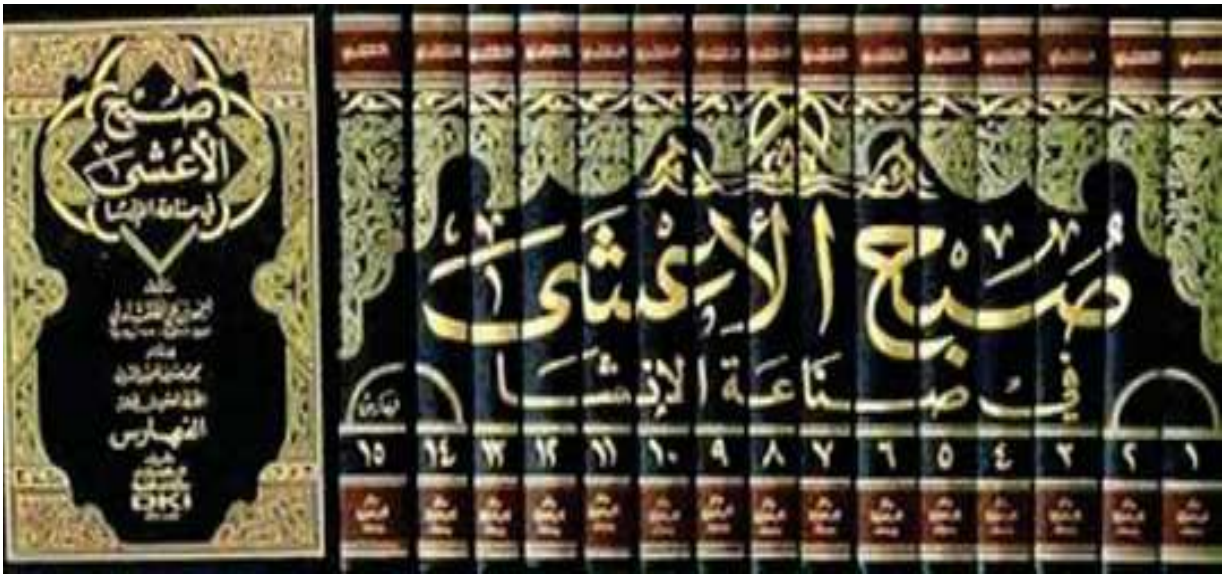

كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا محقَّقًا في ١٥ جزءًا

والكتَّاب المترسِّلين، له مؤلفات كثيرة، أشهرها – في سياق مقالتنا – (كتاب الوزراء والكتَّاب)، وفيه يتتبَّع تاريخ الكتابة، والوزارة في الخلافة الإسلامية حتى ١٩٦ هـ، ٩٠٨ م، ومِمَّا جاء فيما وصل منه معلومات مهمة تدل على تفهم تاريخي حقيقي للتطورات السياسية الجارية، وإدراك عميقٍ للصفات الفكرية للشخصيات التي كتب عن فعالياتها السياسية والإدارية، الذين تولوا الأعمال الكتابية في دواوين الحكومة، سواءٌ في مركز الخلافة أم في الأمصار الإسلامية، وسواءٌ كانوا من العرب أم العجم، منوِّهًا بسياسة الخلفاء تجاه كتَّاب الدواوين والأمور الكتابية.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره مراتٍ عدة، أجودها طبعة الأُستاذ إبراهيم صالح الصَّادرة عن المجمّع الثقافيّ، أبو ظبي، ٢٠٠٩م، فقد حقّق القطعة التي انتهت إلينا منه، وزاد عليها ما نُقل من الكتاب في المصادر المختلفة مِمّا لم يقع في القطعة المخطوطة منه.

– أبو بكر محمد الصولي (المتوفَّى عام ٣٣٤ هـ – ٩٤٥ م) عاش ببغداد، له مؤلفات عديدة، منها – في سياق مقالتنا – كتاب «أدب الكتَّاب»، وهو أيضًا كتابٌ مهم ومرجعي في موضوع صناعة الكتابة، وقد قسمه إلى ثلاثة أجزاء اعتدَّها وافيةً للموضوع، وهي في الكتابة وآلاتها وأدواتها وترتيبها ووجوه الأموال.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره مراتٍ عدة، أجودها طبعة سميح إبراهيم صالح، الصّادرة عن دار البشائر بدمشق، ٢٠٠٥م.

– قُدامة بن جعفر (المتوفَّى عام ٣٣٧ هـ، ٩٤٨ م): وُلِدَ في البصرة ونشأ في بغداد، قرأ واجتهد في صناعتي البلاغة والحساب، وتأثَّر بالمنطق والفلسفة، وبرع في اللغة والأدب والفقه والكلام، ترك مؤلفات عديدة، منها – في سياق مقالتنا – كتاب «الخَراج وصناعة الكتابة» الذي يُعَدُّ أول كتابٍ مدرسي ومهني في أدب الدواوينية وأصحاب الدواوين، وفيه يتحدث عن ثقافة عصره، والضرورات لمن يتولَّى مهمة الكتابة في الدواوين على

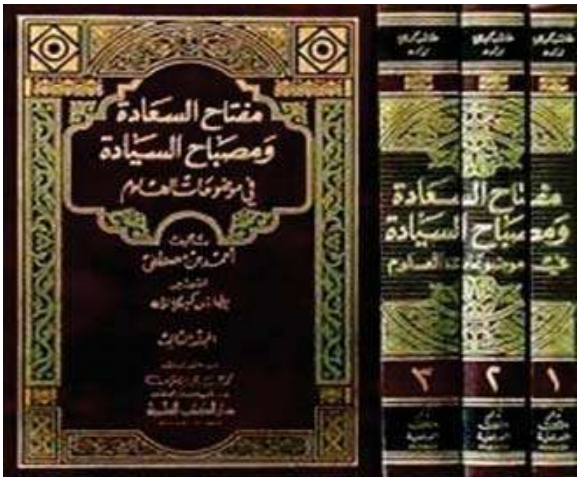

كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش زاده

اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، وجاء في ١١ بابًا حملت العناوين التالية بالتسلسل: ديوان الجيش، ديوان النفقات، ديوان بيت المال، ديوان الرسائل، ديوان التوقيع والدار، ديوان الخاتم، ديوان الفض، ديوان النقود والعيار والأوزان ودار الضرب، ديوان المظالم، ديوان الشرطة والأحداث، ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره مراتٍ عدة، منها بتحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي، منشورات دار الرشيد للنشر ببغداد عام ١٩٨١، بإشراف وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية ضمن سلسلة من كتب التراث.

– الفارابي (٢٥٧ – ٣٣٩ هـ، ٨٧٠ – ٩٥٠ م): نسبةً إلى بلدته التي وُلِدَ فيها «فاراب» في الأراضي التركية أو الإيرانية اليوم، ويُعَدُّ علامة مميَّزة في تاريخ الفكر البشري، فهو في عُرف الفلاسفة المعلم الثاني بعد أرسطو المعلم الأول، وكان نابغة في مختلف ميادين الفلسفة، إضافةً إلى بعض العلوم الذي قدَّمها في كتابه «إحصاء العلوم»، ومنها – في سياق مقالتنا – الفصل الأول في علم اللسان وفروعه من اللغة والنحو والصرف والشِّعر والكتابة والمقالة، شارحًا القانون والقاعدة الكلية، وعلم اللسان عند جميع الشعوب، وعلم الألفاظ المفردة وعلم الألفاظ المركَّبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وقوانينها عندما تكون مركَّبة، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين تصحيح الأشعار.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره مراتٍ عدَّة، منها تحقيق الدكتور عثمان أمين، ونشر مكتبة الأنغلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٦٨.

– ابن درستويه (٢٥٨ – ٣٤٧ هـ، ٨٧٢ – ٩٥٩ م): الذي وُلِدَ في مدينة فسا وعاش في بغداد، تعلَّم على ابن قتيبة، له مؤلفات كثيرة، منها – في سياق مقالتنا – «كتاب الكتَّاب»، وهو كتاب في اللغة والنحو والتصريف، والفصل والوصل والقصر والحذف والزيادة والبدل والنقط والشكل والقوافي ورسوم الخطوط، وصناعة الكتابة كالتواريخ والأيام وأسماء الشهور، والقلم والدواة، وكتابة العنوان والتوقيع، وكلُّ ذلك ما يفيد أدب الكتابة المهنية والفنية لتثقيف أصحاب الدواوين.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره مراتٍ عدة، منها بتحقيق الدكتورين إبراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي، من إصدار مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت عام ١٩٧٧.

– الخوارزمي (المتوفَّى عام ٣٧٨ هـ، ٩٩٧ م): اشتهر بكتابه «مفاتيح العلوم»، الذي يُعَدُّ أقدم كتاب موسوعي عربي، ويتألف من مقالتين، مقالة تخصُّ الشريعة وعلوم العرب، ومقالة تخصُّ علوم العجم من اليونان وغيرهم من الأمم، وجاء على طريقة القواميس الحديثة التي تعطي تعريفًا مختصرًا مفيدًا

لكلمة أو لمصطلح صعب فهمه، وصُنِّفت المصطلحات والمفردات المتشابهة في أبوابٍ متخصِّصة، ومنها – في سياق مقالتنا – الباب الرابع في الكتابة، وجاء في ثمانية فصول، الفصل الأول في أسماء الذكور والدفاتر والأعمال، فيذكر دفتر اليومية (الروزنامج) وقوائم الجرد الشهرية (الختمة)، والسنوية (الختمة الجامعة)، ويتحدَّث عن براءة الذمة أو الصك، والترقين. الفصل الثاني في مواضعات كتَّاب ديوان الخراج، ويسرد مفردات ومصطلحات متنوِّعة ومتعدِّدة عن جباية الأموال: الخراج وهو ما يؤخذ من أرض الصلح، والمكس وهي الضريبة التي تؤخذ من التجار، والنفقات العارضة التي تحدث نادرًا، والمردود وهو ما يرد عليه ولا يُحسب له، والتخمين والإفلاس. الفصل الثالث في مواضعات كتاب الخزن (المخازن)، ويتعلَّق بالحمول والأوزان والمكاييل. الفصل الرابع في ألفاظ تستعمل في ديوان البريد، فيشرح كلمة «إسكدار» وهو مُدْرج يُكتب فيه عدد الخرائط الواردة والنافذة وأسامي أربابها، وهو ما يُعرف اليوم بدفتر البريد. الفصل الخامس في مواضعات كتَّاب ديوان الجيش، فيشرح المفردات المستخدمة في صرف رواتب الجيش وأرزاقهم مثل السلف والمقاصة والتمويل. الفصل السادس في ألفاظ تستعمل في ديوان الضياع والنفقات من ألفاظ المسَّاح، ومنها الأشل الذي يساوي ستين ذراعًا طولًا، والناب الذي يساوي ست أذرع طولًا، والقبضة وتساوي سدس الذراع. الفصل السابع في ألفاظ تستعمل في ديوان الماء، ومنها «الملاح» وهو متعهِّد النهر وصاحب السفينة. الفصل الثامن في مواضعات كتَّاب الرسائل، ويتحدَّث عن الترصيع والاشتقاق والمقابلة، وغيرها من أصول فنِّ الكتابة.

– أبو هلال الحسن العسكري (ت عام ٣٩٥ هـ، ١٠٠٥ م): له: «كتاب الصناعتين: الشعر والكتابة»، وفي بعض أبوابه تفصيل لصناعة الكتابة كمهنة متخصِّصة وأداة اتصال لكتَّاب الدواوين ورجال الإدارة العليا.

الكتاب جرى تحقيقه ونشره عدة مرات، منها بتحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام ١٩٥٢.

– النديم (المتوفَّى عام ٣٨٠ هـ – ٩٩٠م): الذي استهدف بكتابه: «الفهرست» تسجيل الكتب التي ظهرت في جميع العلوم حتى عصره، إضافةً إلى أخبار مصنِّفيها وأنسابهم وأحوالهم، ومنها – في سياق مقالتنا – أسماء الكتَّاب الذين كتبوا في مجال العمل الدواويني.

وإذا كان فِهرست النديم انتهى عند عصره، فقد استمرّت الكتابة الدواوينية في:

٥– العصر الفاطمي (٢٩٧ – ٥٦٧ هـ، ٩٠٩ – ١١٧١ م):

يُعَدُّ كتاب: «القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة» لابن الصيرفي (٤٦٣ – ٥٤٢ هـ، ١٠٧١ – ١١٤٧ م) من أهم الكتب التي كُتِبت في العصر الفاطمي في مجال الديوان والوزارة، وفيه يُخبرنا عمَّا كانت عليه أحوال الكتَّاب وأنواعهم والدواوين واختصاصها وأقسامها في العصر العباسي، وما آل إليه الحال في العصر الفاطمي الذي نشأت فيه الدويلات الصغيرة والأمصار التي بقيت تابعة شكلًا للخلافة ببغداد.

حقَّق الكتاب الدكتور أيمن فؤاد سيد، ونشرته الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة عام ١٩٩٠.

واستمرت الكتابة الدواوينية مزدهرةً في:

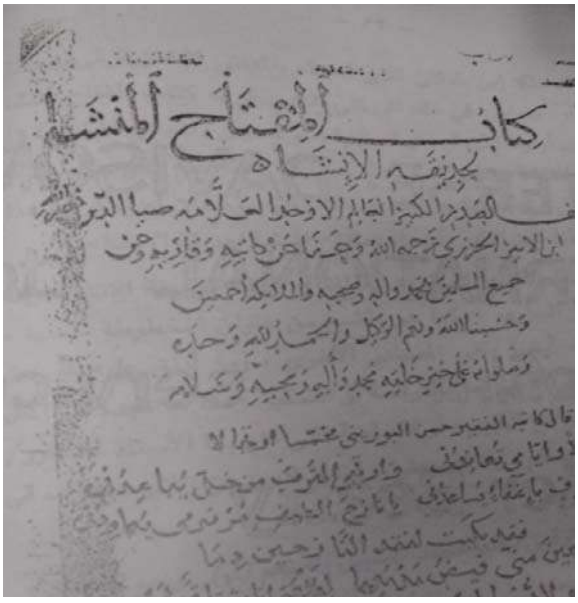
كتاب المفتاح المنشا
لحديقة الإنشاء

الصفحة الأولى من مخطوط كتاب المفتاح المنشا لابن الأثير

٦- الدولة الأيوبية في القرن السابع الهجري، الثاني عشر الميلادي:

اشتهر من كتَّاب هذه الفترة في أدبيات الدواوين «أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري» (٥٥٨ – ٦٣٧ هـ، ١١٦٢ – ١٢٣٤ م)، وهو واحد من ثلاثة أخوة اشتهروا بابن الأثير نسبة لأبيهم محمد أثير الدين، برز كلٌّ منهم في الكتابة والتأليف، ولكنَّ ضياء الدين الذي كان مترسِّلاً ووزيرًا للملك الأفضل نور الدين في دمشق، كان أبرعهم في الكتابة، وله عدة كتب متخصِّصة في الترسُّل وصناعة الكتابة الدواوينية هي: المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ديوان الترسُّل، المعاني المخترعة في صناعة الإنشا، كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، ومضمون هذه الكتب وهدفها هو التعريف بمهنة الكتابة الأدبية والشعرية والإنشائية والدواوينية والتحدُّث، ويُعَدُّ كتابه «كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا» الذي حقَّقه عبد الواحد حسن الشيخ، ونشرته مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية عام ١٩٩٠ م، من أشملها في هذا المجال، فهو كتابٌ مدرسي في أصول المراسلات وكتابة الرسائل الإدارية، وموجَّه إلى الطامحين للوصول إلى ديوان الإنشاء والعمل في خدمة الحاكم، وهذا دليل على ازدهار الكتابة الدواوينية، ويعلي الكاتب فيه من شأن الكتابة وأهميتها، ويصفها بأنها أشرف صناعات الممالك، وأفضل درجات المملكة وأعلاها، وأميز رتبها وأبهاها، ويتحدَّث عن صفات الكتَّاب الذين سيتقلَّدون هذه الوظيفة العظيمة، فيجب أن يُختار لهذه الصناعة ذو العقل الوافر، الحسن الأخلاق، الطيب الأعراق، الصادق في المقال، وغير ذلك من الصفات الجسمية والعقلية والثقافية والمعرفة في الحسابات والتواريخ والتأريخ واللغة والإخبار، والسِّيَر والفقه وعلم النجوم، ومخاطبة كلِّ إنسان بما يليق به، ويجمع بين الألفاظ والمعاني، ولا يخاطب الأعلى بالأدنى، ولا الأدنى بالأعلى، ويتحدَّث عن مراتب الكتب والمخاطبات وكيفية وضع الأسماء في العنوان، وخصَّص فصلاً لمكاتبة الأعاجم وآخر لمكاتبة الملل المخالفة لدين الله تعالى.

وكلُّ هذه التوجيهات لا تكتمل إلا بتوافر الورق بنوعياتٍ وكمياتٍ مناسبة، وكذلك بتوافر أدوات ووسائل البريد البري مثل الخيول والجِمال وقوافل التجارة، والجوي مثل الحَمَام الزاجل، وإقامة المراكز والمحطات لتبادل البريد، كلُّ ذلك هو ما ساعد على انتشار أهم وسيلة من وسائل الاتصالات القديمة والحديثة (المراسلة) وازدهارها في القرون الوسطى.

واشتهر أيضًا من كتَّاب الفترة الأيوبية الوزير الأيوبي «الأسعد بن مماتي» (٥٤٣ – ٦٠٦ هـ، ١١٤٩ – ١٢٠٩ م)، الذي عاش جلَّ حياته في ظلِّ الدولة

الأيوبية، وتولَّى نظارة الدواوين، وقُلِّدَ الوزارة، وله «كتاب قوانين الدواوين» الذي حقَّقه «عزيز سوريال عطية»، وصدر عن الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة عام ١٩٤٣، وفيه يستعرض وظائف الدولة والدواوين، وفضل الكتابة والكتَّاب، وفيما يجب على الكتَّاب، وأسماء المستخدمين من حملة الأقلام، إضافةً إلى ما يرتبط بها من قضايا جغرافية وتاريخية، ومساحة وزراعة. ومن الوظائف التي وردت في هذا الكتاب: الناظر، متولي الديوان، المستوفي، المعين، الناسخ، الجهبذ، الشاهد، وهي ما تتطابق مع كثيرٍ من الوظائف في وقتنا هذا.

وتابعت الكتابة الدواوينية ازدهارها في:

٧- عهد المماليك (٦٤٨ - ٩٢٢ هـ، ١٢٥٠ - ١٥١٧ م):

تمتَّعت مصر والشام بالرخاء الاقتصادي في ظلِّ حكم المماليك، الذين تحقَّقت في عهدهم إنجازاتٌ عديدة كالعمارة التي نلمسها في الأبنية الدينية التي بنوها من مساجد وأضرحة ومدارس وسُبل ومشافٍ، وتنظيم المؤسَّسات الدينية في القضاء والفتيا وخدمة المساجد، وبالرخاء الثقافي بما أنتجه كبار العلماء من ضخام الكتب عددًا وتنوُّعًا، ومنها - في سياق مقالتنا - واحدٌ من أهم الأعمال الموسوعية في التاريخ الإسلامي، وأشملها في تاريخ صناعة الكتابة والنظم الإدارية عند العرب، وهو كتاب: «صبح الأعشى في صناعة الإنشا «لكاتبه» القلقشندي» (٧٥٦ - ٨٢١ هـ، ١٣٥٥ - ١٤١٨ م) الذي وُلِدَ في قلقشند من أعمال مديرية القليوبية بالديار المصرية، التحق بديوان الإنشاء بمصر، وديوان الإنشاء يشبه في عصرنا الحالي إلى حدٍّ بعيد الديوان الملكي أو رئاسة الجمهورية، فعنه تصدر جميع الوثائق الرسمية الخاصة بالدولة، وإليه ترد جميع المكاتبات الداخلية والخارجية، وأُسنِدَت إليه وظائف عِدَّة، كان ملمًا بعلوم كثيرة، متقنًا للفقه والحديث، بارعًا في علوم العربية، ترك مؤلفاتٍ كثيرة، منها كتابنا الذي تناول فيه صنعة الكتابة العربية وفضلها، وصفات كاتب الإنشاء ومؤهلاته، وأدوات الكتابة وتاريخ ديوان الإنشاء في البلدان العربية، وفنون الكتابة وأساليبها، وأوضح الجوانب السياسية والإدارية في مصر وبلاد الشام والدول المجاورة لها، وأحوال إدارة الدولة وما يعرض لها، وأورد أمثلة عديدة على هذا كله، وأثبت وثائق مهمة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والجغرافيا في عصره.

جرى تحقيق الكتاب ونشره مراتٍ عِدَّة، منها طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة المصوّرة عن طبعة المطبعة الأميريّة بالقاهرة ١٩١٣، وصنع لها محمّد قنديل البقلي جزأَيْنِ الأوّل فهارسها، والثاني المصطلحات الواردة في الكتاب.

غير أنَّ ازدهار الكتابة الدواوينية وارتفاع منحاها قد بدأت بالتراجع في الفترة التالية، ليست هي فحسب، بل شمل ذلك مختلف مجالات المعرفة، فلا قانون في الطب لابن سينا، ولا الحاوي في الأدوية للرازي، ولا السموم ودفع مضارها لجابر بن حيَّان، ولا متنبي في الشعر، ولا الجاحظ في الأدب، ولا مفاتيح العلوم للخوارزمي، وتجلَّى ذلك بشكلٍ خاص خلال عهد:

٨- الدولة العثمانية (٦٨٠ - ١٢٨١ هـ، ١٣٤٢ - ١٩٣٤ م):

الدولة العثمانية هي أطول الدول الإسلامية عهدًا، وأطولها فترةً في مرحلة التكوُّن، وأطولها فترةً في مرحلة الانحطاط، وكانت لعدة قرون وجه العالم الإسلامي والممثِّلة له، ونشأت في الوقت الذي كانت

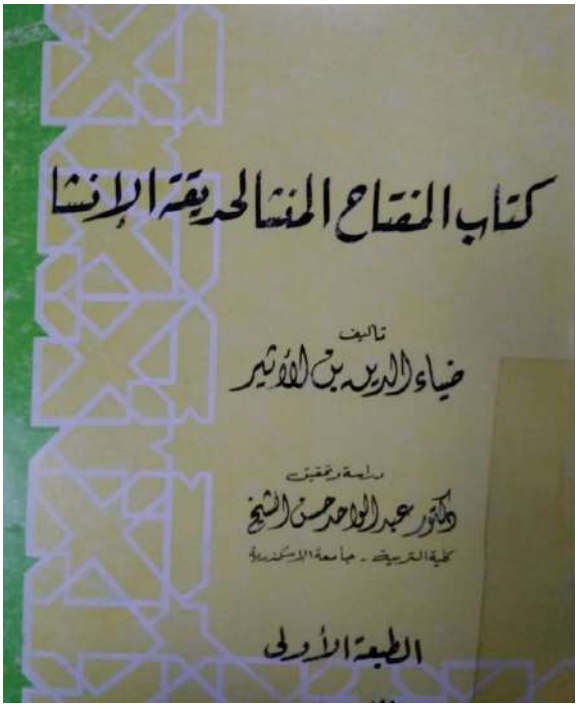

غلاف كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا

فيه أوروبا تتطور وتقوم فيها المؤسسات التي أدَّت إلى نشوء الاستعمار، وما يهمنا – في سياق مقالتنا – نظامها الإداري الذي كان قائمًا على السلطان، ويتبعه شيخ الإسلام والعلماء، ثم الصدر الأعظم الذي تطوَّر إلى رئيس الوزراء، ومناصب إدارية ومالية وقضائية، وظهور نظام الإحصاءات والسجلات التي شملت السكان والأرض من جميع النواحي.

ومع أنَّنا لا نعرف مَنْ كَتَبَ من العرب في الصناعة الدواوينية في هذه الفترة، وقد لا يكون هناك أحدٌ في حدود ما اطلعنا عليه، إنَّ «أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده» المتوفَّى عام ٩٦٨ هـ – ١٥٦١ م، هو من أشهر مؤرِّخي الدولة العثمانية وكبار موسوعييها وكتَّاب السير وتراجم الرجال، وقد أورد في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» تراجم للعلماء حسب موضوعات علومهم، ويبدأ بعلم الكتابة، التي يَعُدُّها واحدة من أصول العلوم السبعة، ويفرِّعه لفرعين: الأول يعالج كيفية الصناعة الخطية، والثاني يعالج كيفية إملاء الحروف، ويبحث في فضيلة العلم والتعليم وفي العلوم الشرعية والعادات والتقاليد الاجتماعية.

صدر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء عام ١٩٨٥ عن دار الكتب العلمية ببيروت.

وعلى الجملة يمكن القول:

– إنَّ صناعة الكتابة العربية الرسمية ليست إلا صناعة للإدارة العامة لشؤون الدولة في وقتنا هذا.

– إنَّ صناعة الكتابة كانت وما تزال الأداة الأهم للاتصال الإداري، وإنَّ ما يُعرف اليوم بالفكر البيروقراطي والأنظمة البيروقراطية قد بدأ مع تأسيس الدواوين في عهد عمر بن الخطاب، تحت ما يُعرف بأنظمة الدواوين والنزعة الدواوينية في تصريف شؤون الدولة.

– إنَّ أدب صناعة الكتابة كان توجيهًا أساسيًّا إلى الناشئين والطامحين للعمل في الدواوين (المناصب الإدارية)، وهو ما يُعرف اليوم بالتدريب المهني والتأهيل الوظيفي، وهذا ما يدلُّ على رفيع مكانة الكاتب وأهميته عند الراعي والرعية.

– المراجع:

– أضواء على صناعة الكتابة الدواوينية عند العرب منذ نشأتها حتى العصر المملوكي، الدكتور سليم الحسنية، منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩٧.

– موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، الدكتور شاكر مصطفى، أربعة أجزاء، دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الأولى١٩٩٣.

تَعَدُّدُ عنوانات الكتاب الواحد

د. محمَّـــد قاســـــم *

العنـوان مفتـاح الكتـاب الّـذي يُنْبِئُ عمّـا حوى بـين صحائفه، وهو العتبة الأُولى الّتي ينبغي أَنْ يتأَتَّى لها المؤلِّفُ ليغريَ القارئ بالولوج إلى مـا أودع في أحشاءِ كتابه؛ قـال الوطواطُ (ت ٧١٨ هـ) عن كتابه «الغُرر والعُـرر»: «ووسمتُـه بغُـرر الخصائـص الواضحـة وعُـرر النقائـص الفاضحـة. اسمٌ يكونُ لحُلَّةِ أَدَبِهِ طِرَازًا مُعْلَمًـا، وبمَكْنُوْنِ أسرارِهِ مُعْلِنًا ومُعْلِمًـا؛ إذ الكتـابُ لا يُعْلَـمُ ما في بَاطِنِـهِ، إلَّا من سمة عنوانِـهِ، كما أَنَّ الإنسانَ يُعْلَمُ ما في قَلْبِهِ من لَفَتَاتِ وَجْهِهِ، وفَلَتَاتِ لِسَانِهِ»اهـ

والغُـرر والعُـرر كتـابُ أدبٍ عامٌّ يشتمـل على بدائع الحِكَـم وروائع الأشعـار ونفائس الأنثار ونوادر الأخبار في مدح الفضائل وذمِّ الرَّذائل، ويَنْدَرِجُ تحت كتـب المحاسن والأضداد أَوِ المحاسن والمَسَاوئ، وتحت فَـنِّ تقبيـح الحسن وتحسين القبيح الّـذي أفرده أبو منصـور الثَّعالبيُّ عبـد الملك بن محمّد بـن إسماعيل الملقَّب بجاحـظ نَيْسابور (ت ٤٢٩هـ) بتصنيـفٍ مُفْرَدٍ سمَّـاه «يواقيت المواقيت في مدح كلِّ شـيءٍ وذَمِّه»، وقد صـار مَـدْحُ ما هو مذمـومٌ، وذَمُّ ما هو ممـدوحٌ فَنًّا يصول فيـه المؤلِّفون ويجولـون، مستعرضـين مواهبَهم الأدبيَّـةَ؛ لِمَا في هذا الفَـنِّ مِن اقتدارٍ على تحريكِ الحقائق وإلباسِها بما شَاءَ صاحبُ البيانُ من سربالِ الحقِّ أَوِ الباطلِ.

---

* مدرِّس النَّحْو والصَّرْف في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة دمشق.

١- غُرر الخصائص الواضحة ١ / ١٠.

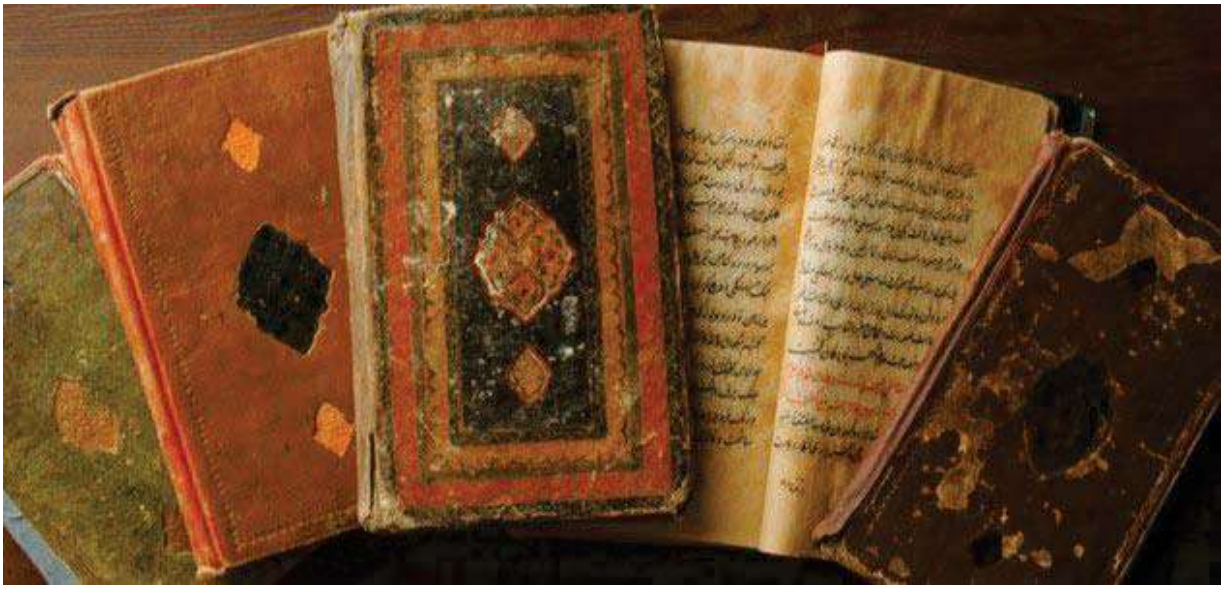

والغُرر والعُرر كتاب أدبٍ عامٍّ كالتذكرة الحَمْدُونيَّة وعُيُون الأخبار والعقد ومحاضرات الأدباء وربيع الأبرار؛ حَشَدَ فيه صاحبُه عيون الأشعار والأنثار والأخبار، في تنسيقٍ بارعٍ، وذوقٍ رائعٍ.

بَنَى الوطواط كتابه على ستّة عَشَرَ بابًا ثمانيةٌ منها للفضائل، ومثلُها للرَّذائل، وجعل كلَّ بابٍ ثلاثةَ فصولٍ؛ الفصل الأوَّل وَقَفَهُ على ما جاء في مدائح الفضيلة من التنزيل العزيز والحديث الشّريف والآثار والأقوال والحِكم والعِبر والعِظات والأخبار والحكايا.

والفصل الثّاني يتناولُ أشهر مَنْ عُرف بهذه الفضيلة وما اتَّفق لهم من أخبار.

واتّجه الفصل الثّالث إلى ذَمِّ ما مُدِحَ من الفضيلة الّتي عُقد البابُ منْ أجلها؛ إذ البدرُ يطرأُ عليه الخُسُوفُ والمحاقُ، وبين الفضيلة والرَّذيلة شَعْرَةٌ، فالشَّجَاعَةُ إذا بُوْلِغَ فيها صارت تهوُّرًا، والسَّخَاءُ إذا تجاوز فيه المرءُ قَدْرَهُ المحمودَ صار سَرَفًا، ولئن حَسُنَتِ الفصاحةُ في موضعٍ إنَّ الصَّمْتَ خيرٌ منها في مواضع.

رأى الوطواط أنَّ العنوان الّذي وَسَمَ به كتابه مُنْبِئٌ عمّا اتَّفَقَ فيه، وقد وُفِّقَ في اختيار عنوانه توفيقًا مّا يُشبه روح عصره الّذي أُولع بفنون البديع وَلَعًا حتّى صار عَلَمًا على اقتدار المؤلِّف ورسوخ كعبه في الصَّنْعة.

و التَّصَرُّف في عنوانات الكتب ظاهرة مستفيضة في التُّراث العربيّ، فكتاب أَبي حيَّان التَّوحيديِّ (ت ٤١٤ هـ) الّذي وضعه في الزِّراية على الوزيرَيْنِ ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ)، والصّاحب إسماعيل بن القاسم (ت ٣٨٥ هـ) اتَّفق له غيرُ ما عنوان[١]: **أخلاق الوزيرَيْنِ**، ومثالب الوزيرَيْنِ، وذمّ الوزيرَيْنِ، وكتاب الوزيرَيْنِ، وأخلاق الصَّاحب وابن العميد، وثَلْب الوزيرَيْنِ، وذكره أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة، فقال[٢]: «على أنِّي عَمِلْتُ رسالةً في أخلاقه – يعني الصَّاحب – وأخلاق ابن العميد».

وكتاب ياقوت الحَمَوِيِّ (ت ٦٢٦ هـ) الّذي وضعه في تراجم الأدباء سمَّاهُ المصنِّفُ أسماءً مختلفةَ الألفاظ متقاربةَ المعاني، فأحال عليه في كتابه «**معجم البُلْدان**»

١– مقدّمة تحقيق أخلاق الوزيرَيْنِ: ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي، ك.
٢ الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٤.

مـرّةً باسـم «كتاب الأدبـاء»[٣]، ومـرَّةً باسـم «أخبار الأدبـاء»[٤]، ومـرَّةً باسـم «**معجم الأدبـاء**»[٥]، وقال في مقدّمة مُصَـنَّفه هذا: «وسَـمَّيْتُ هذا الكتـاب **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**»[٦]، ونقل ابن المُسْـتوفي[٧] (ت ٦٣٧ هـ) عنه أَنَّهُ سـمَّاه «إرشـاد الألبَّاء إلى معرفة الأدبـاء»، ونقـل[٨] الدكتـور إحسـان عبّاس أَنَّ ابـن الشَّـعَّار (ت ٦٥٤ هـ) سـمَّاه «معجم أئمَّة الأدب»، وأَنَّ ياقوتًا سـمَّاه أيضًا «أخبار النَّحْوِيِّيْنَ»، ورأى الدكتور عبّاسٌ أَنَّ التَّسـمية الّتـي رُويت عن ابن المُسْـتوفي هي الّتـي اسـتقرَّ عليها ياقـوتٌ، وأَنَّ تحقيقـه للكتاب كان ينبغـي أَنْ يحملها لـولا أَنَّهُ وَقَفَ على هذه الحقيقة بعد أَنْ نَجزَ طَبْعُ الكتاب.

وكتـاب أبـي بكـرٍ محمَّـد بْـن خَلَـف بْـن المَرْزُبَان الدِّيمرتـيِّ (ت ٣٠٩ هـ) الّـذي وضـعه في الثُّقـلاء لـه عنوانان: **الثُّقلاء**، وذَمّ الثُّقلاء.

فممَّنْ سـمَّى الكتاب «الثُّقلاء» ياقـوتٌ وابن أنجب السَّـاعي والسُّـيوطيُّ[٩]، وممَّـنْ سـمَّاه «ذمّ الثُّقـلاء» النَّديمُ والصَّفَديُّ والدَّاوُوديُّ[١٠].

وإنَّمـا آثـرتُ في تحقيقـي لهـذا الكتـاب عنـوان «**الثُّقـلاء**» لأنَّه جاءَ على الورقتين الأولى والأخيرة من النُّسـخة اليتيمة الّتي انتهت إلينا منه، ولأنَّ الاقتصاد في العنـوان أَشْـبَهُ بمذاهب متقدِّمـي المُصَـنِّفِيْنَ، ولأنَّ إفرادَهم في مصنَّف على حياله مُفْضٍ إلى ذمِّهم والتَّبَرُّم ممّـا يجترحون، ولأنَّ ذكرهم غير مُحَلَّيْنَ بشـيءٍ قاطعٌ بذمِّهم، فإذا صَـحَّ كلُّ أولئـك كان لَفْظُ «ذمّ» في العنوان مُقْحَمًـا اطِّراحُـهُ ممّـا لا يَهْـدُرُ بَيَانًـا أَوْ إيْضـاحًا، ثمّ متـى كان أولئـك الثُّقـلاء البُلَـدَاءُ كُثَفَـاءُ الطَّبْـعِ غَـيْرُ مذمومين[١١]؟!

وممّا يتّصل بابن المرزبان هذا ثلاثة عنوانات لكُتُبٍ له[١٢]:

أخبـار مَنْ قَتَلَهُ الحُبُّ، وكتـاب المُتَيَّمِيْنَ، وكتاب الذُّهُول والنُّحُول، وأخشى أَنْ تكون العنواناتُ الثَّلاثةُ المختلفـةُ لكتـابٍ واحـدٍ عَقَـدَهُ ابـنُ المَرْزُبَـان لأخبار الشُّـعراء الذيـن فَتَكَ بهم الوَجْـدُ حتَّى غَـدَوا صَرْعى الحُـبّ، وكذا لا يبعـد أَنْ يكون كتابـه «أخبار قيس بن الملـوّح» قطعةً من هذا الكتاب الجامع لأخبار العُشَّـاق الّذي أنحلهم الهوى، وأذهلتهم تَبَارِيْحُهُ.

وكتـاب أبي عليٍّ الحسـن بـن أحمد الفارسـيِّ (ت ٣٧٧ هـ) «**الحُجَّة**» نُشرَ مرّتَيْن:

الأُولى بعنـوان «الحُجَّـة في علل القراءات السَّـبع»، صـدر منهـا ثلاثة أجـزاء عـن الهيئة المصريَّـة العامّة للكتاب ١٩٦٥، ١٩٨٣، ٢٠٠٠م.

والثّانيـة بعنـوان «الحُجَّـة للقُـرَّاء السَّـبعة أئمّـة الأمصـار بالحجـاز والعـراق والشّـام الّذيـن ذكرهم أبـو بكر بْنُ مجاهد»، صـدرت منجَّمة عـن دار المأمون بدمشق في سبعة أجزاء ١٩٨٤ – ١٩٩٩م.

وجـاء عنـوان الحُجَّـة في نسـخة مكتبـة مـراد ملّا بإصـطنبول: الحُجَّـة للقَـرَأَة السَّـبعة قُرَّاء الأمصـار

٣ معجـم البلـدان ١ / ٣٩٠، ٤١٥، ٢ / ١٧١، ٣ / ١٤٧، ٤ / ١٢٤، ٥ / ٢١، ٥٨.

٤ معجـم البلـدان ١ / ٣٤٧، ٢ / ١٧٥، ٣ / ٢٩١، ٣ / ٣٥٩، ٥ / ٢٤٠.

٥ معجم البلدان ١ / ١٢٦، ٣٠٨، ٣٢٧، ٤ / ٢٠٢.

٦ معجم الأدباء ١ / ١٥.

٧ تاريـخ إربل ١ / ٣١٩، ٣٢٢، وعنـه في وفيات الأعيان ٦ / ١٢٨، وتاريخ الإسلام ١٣ / ٨٢٣.

٨ معجم الأدباء ٧ / ٢٩٢٥.

٩ معجم الأدباء ٤ / ١٦٣٧، والدّرّ الثَّمين ٢١٢، وبُغية الوعاة ٢ / ١٣٩.

١٠ الفِهْرِسـت ٢ / ٤٦٢، والـوافي ٣ / ٣٧، وطبقـات المفسِّريـن ٢ / ١٤٦.

١١ مقدّمة تحقيق الثُّقلاء ٣٧.

١٢ مقدمة تحقيق الثُّقلاء ٢٦.

بالحجاز والعراق والشّام الّذين ذكرهم أبو بكر بن مجاهد»، وفي صدر الورقة الأولى من هذه النُّسخة وقع: «هذا الكتاب هو الحُجَّة لأبي عليٍّ الفارسيِّ »، وفي آخر الجزء الأوَّل منها وقع «سُمع جميع هذا الجزء، وهو الأوَّل من كتاب الحُجَّة تأْليف الإمام أبي عليٍّ ».

وجاء في آخر نسخة بلديّة الإسكندريَّة: «نَجزَ كتابُ الحُجَّة للقُرَّاء»[١٣].

وعنوان النَّشرة المِصْريَّة مُنْتَزَعٌ من الخطيب البغداديِّ[١٤].

وأَمَّا عنوان النَّشرة الشَّاميَّة فمأخوذٌ من نسخة مراد ملّا مع شيءٍ يسيرٍ من التغيير، وهو عنوانٌ طويلٌ يُشْبِهُ أَنْ يكونَ وَصْفًا لموضوع الكتاب، وكثيرًا ما يتصرَّف العلماء أو النُّسَّاخ أَو أصحاب التراجم في عنوان الكتاب اختصارًا أَوْ زيادةً لعبارةٍ تكشف موضوع الكتاب أو العلم الّذي يندرج فيه.

على أَنَّهُ وقع في مواضع من هذه النُّسخة – أعني نسخة مراد ملّا – عنوانُ الكتاب على غير ما اختاره النَّاشرون، وهو الحُجَّة، عَطَلًا من أَيِّ زيادةٍ تُحلِّيه، ولعلَّه الأشبه بالصَّواب.

وذكر ابن جنِّي[١٥] الكتاب مرَّةً باسم «الحُجَّة في القراءات»، ومرَّةً باسم «الحُجَّة في قراءة السَّبعة».

ويُلْحَظُ ممَّا ذُكر من العنوانات أَنَّ الخلاف يقع فيها بعد لفظ «الحُجَّة»، فجاء بعدها: (في علل القراءات السبع، وللقُرَّاء السَّبعة، وللقُرَّاء، وفي القراءات، وفي قراءة السَّبعة) ممَّا يدلُّ على أَنَّ ما جاءَ بعد لفظ «الحُجَّة» في العنوان زيادةٌ عليه وليس منه، وإنَّما زادها مَنْ زادها لبيان موضوع الكتاب.

١٣ الأصول النَّحويَّة والصَّرفيَّة في «الحُجَّة» لأَبي عليٍّ الفارسيِّ ١ / ١٣٨ – ١٣٩.

١٤ تاريخ بغداد ٨ / ٢١٨ (ط. دار الغرب الإسلاميّ).

١٥ المحتسب ١ / ٣٤، ٢٣٦.

وقد درجتْ عادةُ أصحابِ التَّراجم على إلحاقِ عبارةٍ بعنوان الكتاب الّذي لا يدلُّ على مضمونه = تُوَضِّحُ العِلْمَ المُصَنَّفَ فيه.

من ذلك قَوْلُهم في كامل المُبَرِّد (ت ٢٨٥ هـ): الكامل في اللُّغة والأدب، وكامل ابن عَدِيٍّ الجُرْجَانيِّ (ت ٣٦٥هـ): الكامل في الحديث، وكامل الهُذَليّ المغربيِّ (ت ٤٦٥ هـ): الكامل في القراءات، وكامل ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ): الكامل في التاريخ. فما بعد لفظ «الكامل» زيادة على العنوان البيان العلم الّذي صُنِّفَ فيه الكتاب.

فما جاء بعد لفظ «الحُجَّة » مزيدٌ على العنوان لبيان موضوع الكتاب أَوْ لتمييز الحُجَّة من غيرها ممّا يحملُ العنوانَ نَفْسَهُ في موضوع الاحتجاج للقراءات أَوْ في غيره، كالحُجَّة لمحمَّد بن الحسن الشَّيبانيِّ[١٦]، أَو الحُجَّة لأَبي زُرعة، أو الحُجَّة لأبي الحسن أحمد بن الصَّقر المنبجيّ[١٧] (ت ٣٦٦ هـ)، أَو الحُجَّة المنسوب إلى ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، أَو الحُجَّة في شرح الصَّحيحَيْن للحسن بن الخطير[١٨]، أَو الحُجَّة في فعل المكرمين لإبراهيم بن محمَّد الثَّقفيِّ[١٩].

على أَنَّ أبا عليّ لم يذكر عنوان الكتاب في مقدّمته، وإنَّما وَصَفَهُ وَصْفًا ؛ قال[٢٠]: «هذا كتابٌ نذكر فيه وجوه قراءات القُرَّاءِ الّذين ثبتت قراءاتُهم في كتاب ابن مجاهد» اهـ

على أَنَّ ابن جنِّي نقل عن أبي عليٍّ قَوْلَهُ[٢١]: « لَمْ أُوْدِعْ كتابي في «الحُجَّة» شيئًا من انتزاعِ أَبي العَبَّاسِ»

١٦ صَحَّحَهُ وعلَّق عليه مهدي حسن الكيلاني القادريّ، ونشره في حيدر آباد ١٩٦٥م.

١٧ طبقات القُرَّاء ١ / ٦٣.

١٨ معجم الأدباء ٢ / ٨٦٠.

١٩ معجم الأدباء ١ / ١٠٥.

٢٠ الحُجَّة ١ / ٥.

٢١ الخصائص ٣ / ٣٢٥، وبقيّة الخاطريَّات ٤٦.

اهـ وأَوَّل مَنْ ذكر «الحُجَّة» من مترجمي أَبي عليٍّ النَّديم[٢٢] الّذي قال: «ولـه من الكتب كتاب الحُجَّة»اهـ ولم يزد على لفظ «الحُجَّة»، وانتحى سمته ياقوتٌ[٢٣].

وممَّا زِيْدَ على عنوان الكتاب لبيان العلم المصنَّف فيه «**البحر المحيط**» لأَبي حَيَّان محمَّد بن يوسف الأندلسيِّ (ت ٧٤٥ هـ)، وقد نَصَّ المؤلِّفُ نفسُه في نصِّ إجازته لتلميذه المُخصِّ به الصَّفديِّ[٢٤]: «وأمَّا ما صَنَّفْتُهُ فمِنْ ذلك «البحر المحيط» في تفسير القرآن العظيم»اهـ

على أَنَّ الكتاب طُبع في مطبعة السَّعادة بمصر سنة ١٣٢٨ هـ على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ نجل السُّلطان مولاي الحسن نَجْلِ السُّلطان سيدي محمّد = بعنوان: تفسير البحر المحيط، وإقحام كلمة «تفسير» على العنوان زيادة من النَّاشر لبيان موضوع الكتاب، ولَيْسَتْ منه.

وقد تَرِدُ الحوالةُ على الكتاب عند من نقل عنه بصيغ مختلفة، وهذا غير قادح في اسمه المتَّفق عليه، من ذلك أَنَّ ابن هشام[٢٥] والسُّيوطيَّ[٢٦] والبغداديّ[٢٧] نقلوا عنه، وسمّوه تفسير أَبي حيَّان، وهذا أمر مألوف في نسبة كتب التفسير إلى أصحابها، كقولهم: تفسير الطَّبَريّ، وتفسير الفخر الرَّازيّ، وتفسير الزَّمخشريّ، وتفسير ابن عطيّة، وتفسير القرطبيّ، وتفسير الخازن، وتفسير ابن كثير، وتفسير النَّسَفيّ...

وقد نقل عنه السُّيوطيّ[٢٨] في موضع، وسمَّاه «إعراب القرآن»، وهذا منه إدراج للكتاب في أشهر العلوم الّتي اشتمل عليها، إذ «البحر المحيط» مَعْدُوْدٌ في كتب أعاريب القرآن، ومثل هذا أَنَّ البغداديّ[٢٩] نقل عن «الدّرّ المصون» للسمين الحلبيِّ، وسمّاه «إعراب القرآن»، بل إنَّ أبا حَيَّان[٣٠] نفسه نقل عن «التبيان» لأَبي البقاء العُكْبَريِّ، وسمّاه «إعراب القرآن».

وأشهر مَنْ عُرف بتَعَدُّد عنوانات الكتاب الواحد في تراثنا العربيِّ: **أبو منصور عبد الملك بْنُ محمَّد بْنِ إسماعيل الثَّعالبيُّ النَّيْسَابُوريُّ الملقَّب بجاحظ نَيْسابور المتوفَّى سنة ٤٢٩ هـ**؛ فقد أعاد تأليف جملة من كتبه، وانتخب لها عنوانات جديدةً، وهذا ما أَوْهَمَ بعض القدماء والمحدثين، فجعلوا الكتاب الواحد كتبًا عدَّة، حتَّى وصلت جريدة كتبه عند بعض أصحاب التراجم إلى نحو مئة وثلاثين كتابًا.

فكتاب «**فقه اللُّغة**» الّذي أهداه الثَّعالبيُّ إلى صديقه أَبي الفضل عُبيد الله بن أحمد الميكاليِّ المتوفَّى سنة ٤٣٦ هـ الّذي قال فيه[٣١]: «وأمَّا فنون الآداب فهو ابن بجدتها، وأخو جُملتها، وأبو عُذرتها، ومالك أزمّتها، وكأَنَّما يُوحى إليه في الاستئثار بمحاسنها، والتَّفَرُّد ببدائعها، ولله هو!... فما تُظِلُّ الخَضْرَاءُ، ولا تُقِلُّ الغبراءُ في زمننا هذا أجرى منه في مَيْدَانها، وأَحْسَنَ تصريفًا لعنانها. فلو كُنْتُ في النُّجوم مُصَدِّقًا، لقلتُ: قد تأنَّق عُطارد في تدبيره...»اهـ وقال فيه أيضًا[٣٢]: «والأمير أبو الفضل عُبيد الله بن أحمد

٢٢ الفهرست ١ / ١٨٩.
٢٣ معجم الأدباء ٢ / ٨١٤، ٥ / ٢١٨٩.
٢٤ أعيان العصر ٥ / ٣٤٦.
٢٥ المُغني ٥٠٤.
٢٦ الأشباه والنَّظائر ٤ / ٥٤٤.
٢٧ الخزانة ٧ / ١٢٧.
٢٨ الأشباه والنَّظائر ١ / ٤١٤.

٢٩ الخزانة ٤ / ١٨٨.
٣٠ البحر المحيط ١ / ٣٨٥، ودراسة البحر المحيط لأبي حَيَّان الأندلسيِّ (ت ٧٤٥ هـ) مع تحقيق قطعة منه [من الآية ١٤٣ إلى الآية ٢١٦ من سورة البقرة]، القطعة الثالثة، بحث أُعِدَّ لنيل درجة الماجستير في الآداب، إعداد الطالب محمَّد عبد الله قاسم، وإشراف د. محمَّد أحمد الدَّالي، ثمّ د. إبراهيم عبد الله، جامعة دمشق، ٢٠٠١ / ٢٠٠٢م، ص ٣٤ – ٣٥.
٣١ فقه اللُّغة ١ / ٦.
٣٢ يتيمة الدّهر ٤ / ٤٠٧ – ٤٠٨.

يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادةَ الشَّمْس على البدر، ومكانُهُ منهم مكانُ الواسطة منَ العِقْد، لأنَّه يشاركُهم في جميع محاسنهم وفضائلهم ومناقبهم وخصائصهم، ويتفرّد عنهم بمزيَّة الأدب الّذي هو ابن بَجْدَته، وأبو عُذْرَته، وأخو جُمْلَته. وما على ظهرها اليومَ أحسنُ منه كتابةً، وأتمُّ بلاغةً، وكأنَّما أُوْحيَ بالتَّوفيق والتَّسديد إلى قلبه. وحُبِسَت الفقَرُ والغُرَرُ بَيْنَ طبعه وفكره، فهو من ابن العميد عِوَضٌ، ومن الصَّاحب خَلَفٌ، ومن الصَّابي بَدَلٌ. ثمّ إذا تعاطى النَّظم فكَأَنَّ عبد الله بن المعتزّ، وعُبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وأبا فراس الحَمْدَانيَّ قد نُشروا بَعْدَ ما قُبروا، ورُدُّوا إلى الدُّنيا بعد ما انقرضوا، وهؤلاء أُمراء الأدباء، ومُلُوكُ الشُّعراء» اهـ

= هو كتاب «سرّ الأدب في مجاري كلام العرب» الذي طُبع على هامش كتاب «السّامي في الأسامي» للمَيْدَانيِّ سنة ١٢٧٤ هـ في العجم، بتحقيق أمين محمَّد صابر ومحمد عليّ الخوانساريّ، والخلاف بينهما شيءٌ من التغيير في ديباجة الكتاب ليس غير ممَّا اقتضاه إهداء الكتاب إلى الأمير أبي الفضل عُبيد الله بن أحمد الميكاليّ.

وإنْ تعجبْ فاعجبْ من محقِّق «فقه اللُّغة» الذي لم يفطن أنَّ «فقه اللُّغة» هو الإخراجة الثَّانية لـ «سرّ الأدب في مجاري كلام العرب»، فحين سرد جريدة كتب الثّعالبيّ في مقدّمة التحقيق عدَّه كتابًا مُفْردًا على حياله[٣٣]!

ثمّ حلَّ السُّلطانُ مسعود بن محمود الغزنويّ في نيسابور سنة ٤٢٤ هـ، ومعه وجوه دولته وصدور أعيانها، وكان الحسن بن إبراهيم الصَّيْمَريُّ من جُملتهم، وكان معجبًا بكتاب «فقه اللُّغة»، فاغتنم أبو منصور الفرصة، فاختصر الكتاب، وسمَّاه «خصائص اللُّغة»، وأهداه إلى الصَّيمريّ.

قال المُصَنِّفُ في مقدّمة خصائص اللُّغة[٣٤]: «إنَّ لقاءَ الأجلِّ الأفضلِ الأوحدِ أبي الفتح الحسن بن إبراهيم الصَّيمريّ نسيم الصَّبا على كَبِد المكروب، وتِرْيَاق سُمِّ الهموم على قلب المغموم = قد طال ما اشتقتُهُ حتى رُزِقْتُهُ، وتَمَنَّيْتُهُ حتَّى رأيتُهُ، واقتبستُ من نوره، واغترفتُ من بحوره، واستظهرتُ على كُربة الغربة بحُسْنِ عشرته، وتداويتُ من جروح الزّمان بطيب كرمه، ووجدت ثمرة الغُراب وزُبدة الأحقاب في زبدة يده، وثمار لطفه... وحين كاد غُراب البين يَنْعَبُ بين المُحِبِّينْ، وأوعد الدَّهْرُ بعادته في تفريق المتصافين = أحببتُ أن تصحبه تذكرةٌ منِّي تُجَدِّدُ ذكري بحضرته، وتنوب عنِّي في خِدْمَة مَوَدَّته؛ فألَّفْتُ واختصرت له هذا الكتاب الصَّغيرَ الجِرْم، الكبيرَ الغُنْم، الخفيفَ الحجم في (خصائص اللُّغة)» اهـ

و كتابه «نسيم السَّحَر»[٣٥] قطعةٌ مُهَذَّبَةٌ من كتابه «فقه اللُّغة»، وهو نفسه «خصائص اللُّغة».

وإن تعجبْ فاعجبْ من محقِّق[٣٦] فقه اللُّغة وخصائص اللُّغة الذي لَمْ يفطن أَنَّ «خصائص اللُّغة» هو نَفْسُهُ «نسيم السَّحَر». ولم يتنبّه إلى ما كتبه أستاذه الذي قدم له الكتاب[٣٧]: «وأحيانًا ينقل المادّة العلميَّة من كتاب سابق له، بالنَّصِّ، ويكرِّرُها في كتاب آخر. ويكفي أنْ تقارن باب «تقسيم البياض» في فقه اللُّغة[٣٨] بباب عنوانه: «تقسيم البياض»

٣٣ مقدّمة تحقيق فقه اللُّغة١ / ٢٥.

٣٤ خصائص اللُّغة ٢٧ – ٢٨.

٣٥ طبعه محمّد حسن آل ياسين في بغداد ١٩٥٨م، في العدد الأوَّل من سلسلة الكتاب، ثمّ طبعته ابتسام مرهون الصّفّار في مجلة المورد، بغداد، المجلّد الأوَّل / ١–٢، ١٩٧١م.

٣٦ فقه اللُّغة ١ / ٣١.

٣٧ خصائص اللُّغة ٥ – ٦.

٣٨ فقه اللُّغة ١ / ١١٤.

كذلك، في كتاب «نسيم السَّحَر» ففي الكَتَابَيْن نقرأ عبارات: رجل أَزْهَرُ، وشعر أَشْمَطُ[٣٩]، وفرسٌ أَشْهَبُ[٤٠]، وحمارٌ أَقْمَرُ[٤١]، وكَبْشٌ أَمْلَحُ[٤٢]، وثَوْرٌ لَهِقٌ[٤٣]، وخُبْزٌ حُوَّارى[٤٤]، وعِنَبٌ مُلَّاحِيٌّ[٤٥]، وعَسَلٌ مَاذِيٌّ[٤٦]»اهـ

وقال كارل بروكلمان[٤٧]: إنَّ هذا الكتاب – أي نسيم السَّحر – مُخْتَصَرٌ لكتاب «فقه اللُّغة»، لمُؤَلِّفٍ مجهول.

وعَدَّدَ الصَّفَدِيُّ[٤٨] في جملة كتب الرَّجل: كتاب ثمار القلوب، وكتاب المضاف والمنسوب، ومثله ما وقع عند ابن قاضي شُهبة [٤٩] وابن شاكر الكُتُبِيّ[٥٠]، فجعل الثلاثةُ له كتابَيْن، وهما كتابٌ واحدٌ عنوانُهُ: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.

ومنه كتابُ **الكناية والتَّعريض**:

طبع في مكَّة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣م بعنوان: كتاب النِّهاية في التَّعريض والكناية، وفي مقدّمته[٥١]:

وترجمتُه بكتاب الكناية والتَّعريض. وكَتَبَ ناسخُهُ في آخره: تمَّ كتابُ النِّهاية في فَنِّ الكناية.

وطُبع بعنوان: النِّهاية في الكناية، ضمن أَربع رسائلَ مُنْتَخَبَةٍ، بمطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠١ هـ.

وفي مرآة المروءات[٥٢]: وقد عقدتُ للكناية كتابًا مستقلًّا سَمَّيْتُهُ الكناية.

و اسمه في ثمار القلوب[٥٣]: كتاب الكنايات.

و في كشف الظُّنون[٥٤]: النِّهاية في الكناية.

و في تاريخ الأدب العربيّ[٥٥]: الكفاية في الكناية.

و في إحكام صنعة الكلام[٥٦]: الكفاية في الكناية ووقع فيه مُحَرَّفًا عن وجهه: الكفاية والنهاية؟

و في هدْيَة العارفين[٥٧]: نهاية الكناية.

وفي بعض أصوله الخطّيّة ورد العنوان على النَّحو الآتي[٥٨]: الكنايات والتّعريض في مدح الشَّيْءِ وذَمِّه. كذا. وأخشى أنَّهما كتابان دُمِجَ عنواناهما في عُنْوَانٍ واحدٍ، وهما: الكناية والتعريض، ومدح الشَّيْءِ وذَمُّه.

وفي بعض أصوله[٥٩]: النِّهاية في فَنِّ الكناية.

وفي بعض أصوله[٦٠]: منتخبات في النِّهاية في التَّعريض والكناية.

فهذه نحو عشرة عنوانات لكتاب واحد تسمَّح النَّاس في التَّصَرُّف في عنوانه، وقبل ذلك تسمَّح

---

٣٩ الشَّمَطُ في الشَّعر اختلافه بلونين من سواد وبياض وأشمط وَصْفٌ منه.

٤٠ الشُّهْبَةُ لونُ بياض، يصدعُهُ سواد في خِلاله، وأشهب وَصْفٌ منه.

٤١ القُمْرَةُ: بياضٌ فيه كُدْرة؛ وأَقْمَرُ وَصْفٌ منه.

٤٢ المُلْحَةُ من الألوان بياض تشوبه شعراتٌ سودٌ وأَمْلَحُ وَصْفٌ منه.

٤٣ اللَّهِقُ شديد البياض أو الأبيض الذي ليس بذي بريقٍ ولا مُوهة.

٤٤ الحُوَّارَى الدَّقيق الأبيضُ.

٤٥ المُلَّاحي ضَرْبٌ من العنب أبيض في حَبِّه طُوْلٌ.

٤٦ الماذيُّ العسل الأبيض.

٤٧ تاريخ الأدب العربي ٥ / ١٨٨.

٤٨ الوافي ١٥ / ١٩٥.

٤٩ طبقات النَّحويّين واللُّغويّين ٣٨٧.

٥٠ مقدّمة تحقيق ثمار القلوب ١ / ١٥ – ١٦، وفيها ترجمة الثّعالبيّ من كتابه «عيون التواريخ».

٥١ النِّهاية في التَّعريض والكناية ٣، ٤٧.

٥٢ مرآة المروءات ٧٩ (تحقيق سلّامة عبد الله السُّويديّ).

٥٣ ثمار القلوب ٢ / ٨٦٦.

٥٤ كشف الظُّنون ٢ / ١٩٨٩.

٥٥ تاريخ الأدب العربيّ ٥ / ١٨٩.

٥٦ إحكام صنعة الكلام ٢٣٣.

٥٧ هدْيَة العارفين ٦٢٥.

٥٨ مُؤَلَّفات الثَّعالبيّ المطبوعة والمخطوطة والمفقودة والمنسوبة إليه ضِلَّةً ٨٩.

٥٩ مُؤَلَّفات الثَّعالبيّ ٩٠.

٦٠ مُؤَلَّفات الثَّعالبيّ ٩١.

مُصَنِّفُهُ فسَمَّاه في كتبه : الكناية، والكنايات، والكناية والتعريض. وقد يكون عنوان «الكناية والتعريض» ما استقرَّ عليه المصنِّف في التَّأليف الثَّاني للكتاب.

تقلَّب أبو منصور الثَّعالبيّ في حواضر العالم الإسلاميّ : **نيسابور** عاصمة إقليم خُرَاسان مِنْ عهد الأُمراءِ الطَّاهريِّيْنَ، ثمَّ **بُخارى** عاصمة السَّامَانِيِّيْنَ ومجمع الفضلاء ومثابة المجد، وكعبة الملك، ثمّ **جرجان** التي كان الأمير شمس المعالي قابوس بن وَشْمَكير يحكمها، أهداه أبو منصور كتاب المُبْهج الذي عوَّل في صناعته على خواطره لا دفاتره، وعلى معقوله لا منقوله، ثمّ **أَسْفَرَايين** التي كانت حَرَمًا آمنًا وجنّة عدن عامرة في ظلِّ شيخها أبي العبَّاس الفضل بن عليّ، ثمّ **الجُرْجَانيَّة** عاصمة مأمون بن مأمون خوارزم شاه الذي صنَّف له الثَّعالبيُّ اللّطائف والظّرائف، والإخراجة الثانية من الكناية والتَّعريض، وحلَّ من نفس الأمير مأمون محلًّا أثيرًا، وطاب له العيشُ في ذَرَاهُ، ثمّ **غَزْنة** عاصمة السُّلطان محمود بْنِ سُبُكْتِكِيْنَ الغَزْنَويّ الّذي امتدَّ سلطانُه من الهند إلى بغداد والذي صنَّف له أبو منصور الثَّعالبيُّ لطائف المعارف، ثمَّ **هراة** وقد حلَّ ضيفًا على القاضي منصور بن محمَّد الهرويّ الأزديّ، وأهداه الإعجاز والإيجاز، واللَّطيف في الطِّيْب.

إنَّ تنقُّل أبي منصور هذا، وابتعاده عن خزائن كتبه، وسُنَّته التي جرى عليها في إهداء الصُّدور والأعيان الّذين يُنْزِلُوْنَهُ أَحْسَنَ مَنْزِلٍ في جَنَابِهِمْ، وقصَرَ المُدَّة الّتي تُتاح له لصناعة الكتاب المُهْدَى = كُلُّ أولئك حَمَلَهُ على إعادة التَّأْليف وتغيير العنوان بما يناسب مقام المُهْدَى إليه، فتراه يَلْجَأُ إلى كتاب أنجز تأْليفه قبلًا، فيزيد فيه، أو ينقص منه، أو يبدّل في ديباجته، أو يتخفَّف من شواهده، أَوْ يُنَحِّي عنه غرائبه حتَّى يُهَيَّأَ لَهُ أَنَّهُ خَلْقٌ جديدٌ، فيدفع به إلى المُهْدَى إليه فكُتُبُهُ متواشجةٌ متوالدةٌ يتناسلُ بعضُها مِنْ بعضٍ، وتستقي مِنْ ماءٍ واحدٍ.

فكتابه «أحسن ما سمعت» هو مختصر من كتابه «أحاسن المحاسن»؛ حذف المُؤَلِّفُ منه مُنْتَخَبَات الأنثار، مع شيءٍ غيرِ قليلٍ من شواهد الشِّعر الّتي تَنْحَطُّ مرتبةً عمّا أَبْقَاه منها، وهكذا نجح في استيلاد نسخةٍ مهذَّبةٍ من «أحاسن المحاسن»، وسمَّاها «أحسن ما سمعت».

وكُتُبُ الثَّعالبيِّ: مدح الشَّيْءِ وذمُّه[٦١]، واللَّطائف والظّرائف في الأضداد، ويواقيت المواقيت في مدح كُلِّ شيءٍ وذمِّه، وتحسين القبيح وتقبيح الحسن = توشك أَنْ تكون كتابًا واحدًا حوَّله الرّجل إلى أربعة كتب مُعْتَمِدًا تقنية الطّيّ والنَّشر، يطوي الكتاب طيًّا، ثمّ ينشره بما يزيد فيه، فيغدو كتابًا جديدًا.

والإعجاز والإيجاز، وغُرر البلاغة كتابٌ واحدٌ، والمتشابه لفظًا وخَطًّا منتزعٌ من أجناس التجنيس، والمبهج أكثر ما فيه منسول من الفصول القصار التي اختارها المُصَنِّف لأعيان الكُتَّاب في المئة الرابعة، وأودعها في مُدَوَّنَته الضَّخْمة «يتيمة الدَّهر»، مقتفيًا قَفْوَ صاحبه أبي الفضل عُبيد الله بن أحمد الميكاليّ (ت ٤٣٦ هـ) الّذي اصطنع كتابه «مخزون البلاغة أو المخزون والدّرّ المنظوم واللَّفظ المعدوم»[٦٢]، وهو فُصُوْصُ الفُصُوْلِ المستخرجة من رسائله. والمبهج وسحر البلاغة يمتحان برشاءٍ واحدٍ، ويقتدحان بزنادٍ واحدٍ.

---

٦١ ورد اسمُه في مقدّمة تحقيق فقه اللُّغة ١ / ٢٩: مدح المتنبِّي وذمُّه؟! ثم قال المحقِّق: ويبدو أَنَّهُ جزء من يتيمة الدَّهر! [ملحظ: إشارة التَّعجُّب الأخيرة من المحقِّق لا منِّي].

٦٢ طبع بتحقيق عبد الرازق حويزي، وصدر عن دار الكتب والوثائق القوميَّة، القاهرة، ٢٠٢٠م.

وشعراء المئة الرَّابعة الذين اختار لهم في الإعجاز والإيجاز ما اختاره لهم يَهْجَعُ في كتابه الجهير «يتيمة الدَّهر»، وما أنشده من أشعار تحكي أنوار الأشجار، وأنفاس الأسحار، وغناء الأطيار، وأجياد الغزلان، ومُلَح الرِّياض، وسحر المُقَل المراض في كتابه «مَنْ غاب عنه المُطْرِب»[٦٣] جُلُّهُ مُنْتَزَعٌ مِمَّا أَنْشَدَهُ لشُعراء اليتيمة.

وقد ذكر الثَّعالبيّ نَفْسُهُ أَنَّهُ يُعاود ما كتب؛ من ذلك أَنَّهُ أَلَّف النُّسخة الأولى من اليتيمة سنة ٣٨٤ هـ، ثمَّ أعاد تأليفها[٦٤]، وأتمَّ تحريرها من بين النُّسَخ الكثيرة، بعد أَنْ غَيَّرَ ترتيبها، وجدّد تبويبها، وأعاد ترصيفها وأحكم تأليفها، بل ربَّما دعا النَّاسَ إلى إتمام ما نَقَصَ من تأليفه، فقد قال في أواخر اليتيمة في باب عَقَدَهُ للطَّارئين على نَيْسَابور بعد أَنْ ذَكَرَ طائفةً منهم وفاته أَنْ يستحضر شيئًا من غُرر أشعارهم[٦٥]: «ولكن لم يحضرْني شيءٌ من أشعارهم في هذه الغُربة. وإنْ نَفَّسَ الله المَهَلَ، وعاودتُ الوطنَ، جبرتُ كَسْرَه بما يَصْلُحُ له مِنْ كلامهم. وإنْ عاق محتومُ الأَجَلِ عن ذلك فإنِّي أرغب إلى مَنْ ينظر بعدي في هذا الكتاب من الفُضلاء الذين يَصيدون شوارد الكَلِم، وينظمون قلائد الأدب = أَنْ ينوب عن أخيه فيه، ويُلْحِقَ ما يَجِدُهُ منه بمواضعه مِنْ هذا الباب، إنْ شاء الله تعالى» اهـ

ولعلَّ النُّسخة الثَّانية من اليتيمة هي ما وقف عليه ياقوتُ حين قال[٦٦]: «قرأتُ بمصر في نسخة باليتيمة للثَّعالبيّ عليها خَطُّ يعقوب بن أحمد بن محمَّد بالقراءة عليه، يَرْويها عن مُؤَلِّفها الثَّعالبيّ، فوجدتُ فيها زوائد لا أعرفُها في النُّسخ المشهورة بين أيدي النَّاس منها» اهـ

على الجملة ظاهرة التَّصَرُّف بعنوانات الكتب في التُّراث العربيّ واسعةٌ مستفيضةٌ، وهم ممّا يتسمّحون في ذلك، ولا غضاضة فيه عندهم، أدَّاهم إلى ذلك جملة أسباب، منها زيادات وقعت من بعدُ في العنوان لبيان العلم الذي يندرج تحته الكتاب، ومنها تنقُّل العلماء وارتحالهم في الأمصار واضطرارهم إلى إعادة التَّأْليف بمُسَمًّى جديد بغية إهدائه إلى الصدور والأعيان الذين إليهم يزدلفون، ومنها أنَّ نفوسهم لا تركن إلى ما كتبت، فتعاود تنقيحه، وفي جملة التنقيح تغيير العنوان بما لاح أنَّه أَبْيَنُ وأَكْشَفُ، ومنها رغبة في التَّكَثُّر في عدد المصنَّفات التي ربَّما أنبأت بمنزلة واضعها واتساع بحره الذي يَغْرِفُ منه، ومنها إشارة المؤلِّف إلى الموضوع العام لكتابه بما يخيَّل أَنَّهُ عنوانٌ له.

جريدة المصادر والمراجع

– إحكام صنعة الكلام للكَلَاعيِّ، تحقيق محمَّد رِضْوان الدَّاية، دار الثَّقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

– أخلاق الوزيرين لأبي حَيَّان التَّوحيديِّ، تحقيق محمَّد بن تاويت الطَّنجيّ، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٩١م.

– الأشباه والنظائر للسُّيوطيِّ، تحقيق عبد الإله نبهان، وإبراهيم عبد الله، وغازي طليمات، ومختار الشريف، مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق ١٩٨٥– ١٩٨٧ م. وأعدَّ الفهارس عبد الإله نبهان، ونُشرت في معهد المخطوطات العربيّة في القاهرة ١٩٩٨م.

– الأصول النَّحْويَّة والصَّرْفيَّة في «الحُجَّة» لأبي

٦٣ حقَّقه النّبويّ عبد الواحد شعلان، ونشره في مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤ م، ثمّ حقَّقه عبد المعين الملّوحي، ونشره في دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

٦٤ يتيمة الدّهر ١ / ٢٦ ــ ٢٧.

٦٥ يتيمة الدّهر ٤ / ٤٧٩.

٦٦ معجم الأدباء ٢ / ٧٠١.

عليٍّ الفارسيِّ (ت ٣٧٧ هـ)، محمَّد عبد الله قاسم، دار البشائر، ط١، دمشق، ٢٠٠٨ م.

– أعيان العصر وأعوان النصر لخليل بن أيبك الصّفديّ، تحقيق عليّ أبو زيد أبو زيد، ونبيل محمّد أبو عمشة، ومحمَّد عطا موعد، ومحمود سالم محمد، قدّم له مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨ م.

– الإمتاع والمؤانسة لأبي حيَّان التوحيديّ، صحَّحه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزّين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

– بُغية الوعاة في طبقات اللُّغويِّين والنُّحاة للسُّيوطيِّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، ١٩٦٤ م.

– بقيَّة الخاطريَّات لابن جنِّي، تحقيق أُستاذي محمد أحمد الدَّالي، مطبوعات مَجْمَع اللُّغة العربيَّة، بدمشق، ١٩٩٢م.

– تاريخ الأدب العربيّ لكارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النّجّار، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤م.

– تاريخ إرْبل لابن المُستوفي، تحقيق سامي بن سيّد الصّقّار، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

– تاريخ الإسلام ووَفَيَات مشاهير الأعلام لشمس الدِّين الذَّهبيِّ، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت.

– تاريخ بغداد للخطيب البغداديّ، تحقيق بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

– الثُّقلاء وفضل الكلاب على كثير مِمَّنْ لَبِسَ الثِّياب لأبي بكرٍ محمّد بن خلف بن المرزبان الدِّيمرتيّ، تحقيق محمَّد عبد الله قاسم، دار البشائر، ط١، دمشق، ٢٠١٩م.

– ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثَّعالبيِّ النَّسابوريّ، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر ط١، دمشق، ١٩٩٤م.

– الحُجَّة لأبي عليّ الحسن بن أحمد الفارسيّ، تحقيق بدر الدِّين قهوجي، وبشير جويجاتي، ومراجعة أحمد يوسف الدّقّاق، وعبد العزيز رباح، دار المأمون للتُّراث، دمشق، ١٩٨٤ – ١٩٩٩م، وتحقيق عليّ النّجديّ ناصف، وعبد الحليم النّجّار، وعبد الفتَّاح شلبيّ، ومراجعة محمّد عليّ النّجّار، الهيئة المِصْريَّة العامّة للكتاب، ١٩٦٥ – ٢٠٠٠م.

– خزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب لعبد القادر بن عُمر البغداديِّ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م.

– الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمّد عليّ النّجّار، دار الكتب المصريَّة، ١٩٥٢م.

– خصائص اللُّغة لأبي منصور عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل الثَّعالبيِّ النيسابوريِّ، قرأه وقدّم له خالد فهمي، تصدير رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ١٩٩٩م.

– دراسة البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسيِّ (ت ٧٤٥ هـ) مع تحقيق قطعة منه [من الآية ١٤٣ إلى الآية ٢١٦ من سورة البقرة]، القطعة الثّالثة، بحث أُعِدَّ لنيل درجة الماجستير في الآداب، إعداد الطّالب محمَّد عبد الله قاسم، إشراف د. محمَّد أحمد الدَّالي، ثم د. إبراهيم محمَّد عبد الله، جامعة دمشق، ٢٠٠١ / ٢٠٠٢م.

– الدّرّ الثَّمين في أسماء المُصَنِّفين لعليّ بن أنجب المعروف بابن السّاعي (ت ٦٧٤ هـ)، تحقيق أحمد شوقي بنبين ومحمَّد سعيد حنشي، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، تونس، ٢٠٠٩م.

– طبقات المفسِّرين للدّاودي، دار الكتب العلْميَّة، بيروت.

– طبقات النَّحْوِيِّيْنَ واللُّغويِّين لابن قاضي شُهبة، تحقيق محسن غياض، مطبعة النعمان، ط١، النَّجف، ١٩٧٤م.

– عيون التواريخ لابن شاكر الكُتُبِيِّ، ترجمة الثَّعالبيّ منه حقَّقها، إبراهيم صالح، وجَعَلَها في صدر تحقيقه لثمار القلوب.

– غاية النِّهاية في طبقات القُرَّاء لابن الجزريّ، تحقيق برجستراسر، القاهرة، ط١، ١٩٧٣م.

– غُرر الخصائص الواضحة وعُرر النَّقائص الفاضحة لأبي عبد الله جمال الدِّين محمّد بن إبراهيم بن يحيى بن عليّ الكُتُبِيّ المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ)، تحقيق محمَّد عبد الله قاسم، دار القلم، ط١، دمشق، ٢٠١٨م.

– فقه اللُّغة لأبي منصور عبد الملك بن محمَّد بْنِ إسماعيل الثَّعالبيِّ النَّيْسَابوريِّ، (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق خالد فهمي، وتصدير رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجيّ، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م.

– الفِهْرِست للنَّديم، أَلَّفَهُ سنة ٣٧٧هـ، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، مؤسَّسة الفُرقان للتُّراث الإسلاميّ، ط١، لندن، ٢٠٠٩م.

– كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون للحاجِّ خليفة، إصطنبول، ١٩٤١ م.

– مُؤَلَّفات الثَّعالبيِّ المطبوعة والمخطوطة والمفقودة والمنسوبة إليه ضِلَّةً، محمد جبّار المعيبد، وهلال ناجي، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، ط١، الرِّياض، ٢٠٠٩م.

– المُحْتَسَب في تبيين وجوه شواذِّ القراءات لأبي الفتح عثمان بن جنِّي، تحقيق عبد الحليم النّجّار، وعلي النَّجديّ ناصف، وعبد الفتّاح شلبيّ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

– مرآة المروءات لأبي منصورٍ عبد الملك بن محمَّد بْنِ إسماعيل الثَّعالبيِّ النَّيْسَابوريِّ، (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق سلّامة عبد الله السُّويدي، مركز الوثائق والدّراسات الإنسانيّة، ط١، الدوحة، ٢٠٠٢م.

– معجم الأدباء لياقوت الحَمَوِيّ، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

– معجم البُلْدان لياقوت الحَمَوِيّ، دار صادر، بيروت.

– مُغْني اللَّبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاريّ، تحقيق مازن المبارك، ومحمّد عليّ حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٤م.

– النِّهاية في التَّعريض والكناية لأبي منصورٍ عبد الملك بن محمَّد بْنِ إسماعيل الثَّعالبيِّ النَّيْسَابوريِّ، (ت ٤٢٩ هـ)، مكَّة، ١٣٠١هـ.

– هدِيَة العارفين لإسماعيل باشا البغداديّ، منشورات مكتبة المُثَنَّى، بغداد.

– الوافي بالوَفَيَات لخليل بن أيبك الصَّفديّ، تحقيق ثلَّة من الباحثين، جمعيّة المستشرقين الألمانيّة، بيروت، ١٩٦٢ – ١٩٨٣م.

– وَفَيات الأعيان وأَنْباء أَبْناء الزَّمان لابن خَلِّكان، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.

– يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر لأبي منصورٍ عبد الملك بن محمَّد بْنِ إسماعيل الثَّعالبيِّ النَّيْسَابوريِّ، (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق (؟) مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلْميَّة، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م.

منزلةُ عِلْمِ التَّاريخِ بينَ العُلُوم

د. عبَّاس مِرْهج فرج*

منذ بدء الخليقة كان لقصِّ القصص وسرد الحكايات ورواية الأساطير أهمية كبيرة في حياة الإنسان، ولا سيما حين يتعلَّق الأمر بقصص الأسلاف ومعتقداتهم. من هنا بدأ التاريخ بالظهور إلى حيز الوجود في صورة بدائية أولية، وبدأ الإحساس به يتكوَّن في ذهن البشرية منذ أقدم العصور. لم تبدأ عملية التأريخ بالتدوين مباشرة، وإنما مرَّت بمراحل متدرِّجة من التعبير عن طريق الفن، مثل الرسم والنقش على الحجر، مستخدمًا الإنسان في ذلك ما توفَّر بين يديه من أدوات ومواد وآلات، فترك لنا على جدران الكهوف، وفي المغارات، وغيرها من الأماكن التي سكنها، ما يمكن أن نستدل به على بعض أفكاره، ونظام حياته ومعتقداته. وعندما تقدَّمت البشرية أشواطًا في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها، أخذ التاريخ رويدًا رويدًا يمثِّل أساسًا جوهريًا وموقعًا مرموقًا في موكب البشرية الحافل، ولا سيما مع ظهور الكتابة التي مثَّلت نقلة نوعية في مجال تسجيل الأحداث والأفكار والمعتقدات، فأصبح التاريخ المرآة أو السِّجل أو الكتاب الشامل الذي يقدِّم لنا ألوانًا من الأحداث وفنونًا من الأفكار وصنوفًا من الأعمال والآثار.

فماضي الشعوب وحاضرها حافل بشتى الصور، والحفاظ عليه أمر ضروري ومهم، سواء أكان ذلك في عهود المجد والقوة، أم الغنى والرفاهية، أم عهود الكوارث والآلام والمحن، من هنا كانت مَهمة التأريخ وتسجيل الأحداث الكبرى هاجسًا لدى مختلف الشعوب وفي كل الأزمنة.

* مدرِّس في قسم التاريخ – كلّيّة الآداب الثَّانية (السُّويداء) – جامعة دمشق.

لا بد لنا قبل البدء بالتحدث عن أهمية علم التاريخ ومنزلته بين العلوم من التعريف به لغويًا واصطلاحيًا:

جاء في معجم لسان العرب[١] التّأريخ: تعريفُ الوقت، والتّواريخُ مثله، أرَّخ الكتاب ليوم كذا: وقَّتهُ، وقيل: إنَّ التأريخ الذي يُؤرِّخه النَّاسُ ليس بعربيٍّ محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتأريخ المسلمين أُرِّخَ من زمن هجرة سيِّدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكُتبَ ودُوِّنَ في خلافة عمر، رضي الله عنه، فصار تاريخًا إلى اليوم.

ثم عرَّف ابن خلدون علم التاريخ في مقدَّمته بأنه: «فنٌّ غزيرُ المذاهب، جَمُّ الفوائد، شريفُ الغاية، إذ هو يُوقِفُنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدِّين والدُّنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعدِّدة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يُفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلَّات والمغالط»[٢].

كما أقرَّ ابن خلدون أن علم التاريخ «يحمل تصورًا مزدوجًا: الأول ظاهري، وهو المتداول عند العامة، يتمثَّل في سرد الأخبار، ونقل الروايات من أخبار الأمم الغابرة، وأحوال الدول، ويمتاز بكثرة الأقوال والروايات».

والثاني: «باطني، لا يصل إلى كنهه إلا الثِّقات والمختصّون من العلماء المدقِّقين، لأنه نظر وتحقيق وتعليل للأحداث والوقائع، ومعرفة بمبادئها وكيفياتها وأسبابها»[٣].

١- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ص:٥٨.

٢- عبد الرحمن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق المستشرق الفرنسي كاتر مير عن طبعة ١٨٥٨، المجلد الأول، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢، ص ٨.

٣- المرجع نفسه، ص:٢.

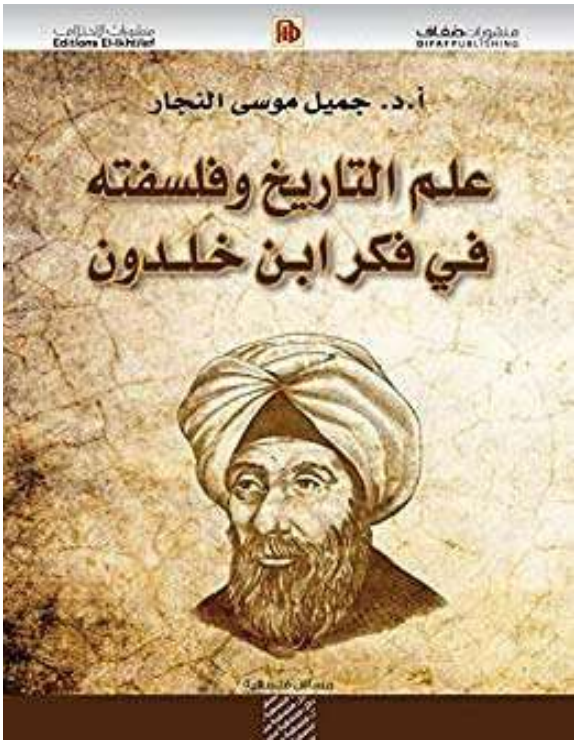

أما الكافيجي فيقول: «أما علم التاريخ فهو يُبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به، من حيث تعيين ذلك وتوقيته، وجملة من العلوم النافعة في المبدأ والمعاد وما بينهما، كما أن فوائده وغرائبه لا تعد ولا تحصى، وهو بحر الدرر والمرجان، لا يحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان، وفيه عجائب الملك والملكوت، وفيه إيصال إلى جانب الحق ذي العظمة والجبروت»[٤].

وقد أشار السَّخاوي للفكرة السابقة نفسها، فقال: «إن التاريخ فنٌّ يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحوالهما المفصَّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان»[٥].

٤- الكافيجي، المختصر في علم التاريخ، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، منشورات عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص ١٤.

٥- السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق، ١٣٤٩ ص٧.

وقد قدَّم المهتمُّون بهذا العلم تعريفات عدة له، فمنهم من عرَّفه بأنه معرفة ماضي البشرية منذ أصولها حتى الوقت الحاضر. ومنهم من قال: إنه كل ما حدث، أو رواية كل ما حدث وتدوينه، أو هو فعالية علمية من فعاليات المعرفة البشرية، تتسع ساحتها لكل شؤون الإنسان[٦]، بينما عرَّفه بعض الباحثين بأنه: التدوين الموثِّق للأحداث الماضية، ووصف الحقائق التي حدثت في الماضي بطريقة تحليلية ناقدة، فهو مختلف الحوادث والأحوال من أعمال وأفكار ومشاعر وغيرها، التي عاشها الإنسان خلال الأزمنة المتتالية، والتي رؤي أنها تستحق البقاء لتستعيدها الأجيال المتلاحقة وتستذكرها[٧].

علم التاريخ، إذن، هو ذاكرة الشعوب، وقصص مدوَّنة وأحداث مسرودة، ومؤلَّفات أدبية تتداول تلك المعرفة التاريخية، وهو كذلك يبحث في حقبة معينة من الزمن عاشتها مجموعة بشرية ما، في مكان معين على سطح الأرض، أو قد يتركَّز حول نمط خاص من أنماط النشاط البشري.

-مكانة علم التاريخ وصلته بالعلوم الأخرى:

لقد اختلف رجال العلم والأدب في نظرتهم إلى علم التاريخ، وفي نسبته إلى فروع المعرفة الإنسانية، حيث ذهب وليم ستانلي جيفونز William Stanley Jevons الأستاذ في جامعة لندن في كتابه «أصول العلم» إلى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علمًا، لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يُخضعها له العلم من المادية والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن دراسته، واستخلاص قوانين علمية ثابتة على نحو ما هو موجود بالنسبة إلى علوم الطبيعة وغيرها من العلوم[٨].

بينما ذهب البعض[٩] إلى أن التاريخ فنٌّ، فالمؤرِّخ فنَّان يُطلِق العنان لطبيعته الفنية وخياله وموهبته الخاصة، فالتصوير الناطق يعبِّر عن ملامح العصر الذي يتحدث عنه.

ويرى آخرون[١٠] أن التاريخ نوع من الأدب؛ فهو يُعنى بالتدوين القصصي لمجرى الأحداث، والقصة بلا شك من قبيل الإنشاء الأدبي. والإنشاء الأدبي فنٌّ، والأمر يحتاج إلى براعة الكاتب ليُبرز لنا القصص التاريخية والأحداث في ثوبها اللائق.

في المقابل يرى عدد من المفكِّرين القدماء والمُحدَثين، من أمثال أفلاطون وهيراقليطس وهيجل وماركس وأوغست كونت وغيرهم، أن التاريخ علم يهتمُّ بتتبُّع تطور المجتمع في الفترات المُتعاقِبة[١١].

فمثلًا ذهب أوغست كونت إلى القول: «إنني سأقدِّم برهانًا فعليًا على وجود قوانين محدَّدة للأحداث المرتبطة بارتقاء وتطور العنصر الإنساني... إن فكرة التطور تعني ظهور عوامل جديدة، وهذه العوامل تظهر نفسها في تقدم اللغة، والدين، والفن، والعقل، وهناك منهج واحد يمكن بوساطته معرفة أصول هذه العوامل هو المنهج التاريخي»[١٢].

٦- دويدري وحيد رجاء البحث العلمي: أساسياته النظرية وممارساته العلمية، دار الفكر ، دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨، ص ١٥١.

٧- الصباغ ليلى، دراسة في منهجية البحث التاريخي، الطبعة الثالثة عشرة، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٧، ص: ١٥.

٨- عثمان حسن، منهج البحث التاريخي، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٦.

٩- كاسير أرنست، في المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة ، مراجعة علي أدهم، د.ت، ص٥٥.

١٠- الجمل شوقي، علم التاريخ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ت، ص٦٨.

١١- المرجع نفسه، ص ٦٩.

١٢- كاسير أرنست، المرجع السابق، ص ٤٣.

وقد عارض كونت الاعتقاد السائد بوجود شيء في عالم الإنسان يمكن إرجاعه للمصادفة، أو أن هناك شيئًا يخلو من النظام الطبيعي وحتميته الصارمة.

وهنا لابد من طرح السؤال الآتي:

إلى أيِّ نوع من أنواع العلوم يُعدُّ علم التاريخ أقرب؟ فالتاريخ ليس كالفلك علم معاينة مباشر، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، وإنما علم نقد وتحليل.

فالتاريخ، إذن، أقرب العلوم إلى الجيولوجيا، فكما أن الجيولوجي يدرس الأرض في حالتها الراهنة، أي كما هي الآن، ليعرف ــ إذا أمكنه ذلك ــ كيف صارت إلى حالتها الحاضرة، كذلك المؤرِّخ يدرس الآثار المختلفة عن الماضي ويحاول أن يفسِّر بوساطتها، وقدر الإمكان ظاهرة الحاضر، وكما أن الجيولوجي يجد مادته الأساسية فيما حُفظ من بقايا الطبيعة من أدلة قليلة تُثبت التطورات الجيولوجية القديمة، كذلك المؤرِّخ يعتمد في معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات أو تقاليد[١٣].

يعني ذلك أن المؤرِّخ يعتمد على ما تمدُّه به هذه الآثار أو السِّجلات أو غيرها من مادة علمية، ثم عليه أن يتحقَّق من صحتها، ويستبعد ما يثبت عدم صحته، أو ما يداخله شك في صحته، فيلقي عليه الضوء ويحاول بفكره أن يستخلص الأسباب والدوافع التي كانت وراء تلك الوقائع والأحداث.

أما فيما يتعلَّق بصلة علم التاريخ بالعلوم الأخرى، فبما أنه فرع من فروع الدراسات الاجتماعية، فهو وثيق الصلة بالعلوم الاجتماعية الأخرى، مثل علم الاقتصاد والجغرافيا وعلم الإنسان وعلم الآثار.

فمثلاً تُعدُّ الظواهر الجغرافية مثل المناخ والنبات وغيرها عظيمة الأثر في الأحداث التاريخية[١٤]، فإذا كانت الجغرافيا تُعنى بالأرض وما يرتبط بها من ظواهر، فإن التاريخ يهتم بالإنسان الذي يعيش على هذه الأرض، وتؤثِّر فيه بظواهره المختلفة وعواملها المتباينة، ففي السهول الخصبة والأودية، مثل وادي النيل ودجلة الفرات وغيرها، قامت أقدم الحضارات

١٣- هرنشو، علم التاريخ، ترجمه وكتب حواشيه وأضاف إليه فصلًا عن التاريخ عند العرب د. عبد الحميد العبداوي، القاهرة ١٩٣٧، ص ٥ وما بعد .

١٤- شوقي الجمل ، المرجع السابق، ص٨٥.

البشرية التي عرفها التاريخ مثل الحضارة الفرعونية القديمة، والحضارة السومرية والأكادية والبابلية والآشورية، إذ أتاحت هذه الظروف الجغرافية للإنسان فرص الاستقرار وبناء المساكن واستغلال موارد البيئة المختلفة للزراعة أو الرعي أو غيرها. ولدينا مثال آخر من التاريخ الحديث يثبت أثر الجغرافيا في مجرى التاريخ، من خلال الدور الذي لعبه مناخ روسيا في هزيمة الجيوش الألمانية في الحرب العالمية الثانية، ويُعدُّ ذلك أكبر دليل على دور الأثر الجغرافي في تغير مجرى التاريخ، فعلى الرغم من الهزائم التي لاقاها الروس على يد الألمان عام ١٩٤٢م، وخسارتهم جزءًا كبيرًا من أرضهم، فقد حلَّ شتاء روسيا القارس البرودة على الألمان، وهم يدقون أبواب موسكو ولينيغراد، فاستعصى عليهم فتحها، واضطروا إلى التراجع، وانتهى الأمر بالتسليم في ٣١ كانون الأول ١٩٤٣، وهكذا تضافرت عوامل الطبيعة وسبَّبت هزيمتهم.

وفيما يتعلَّق بعلاقة علم الاقتصاد بالتاريخ، فقد أدَّت العوامل الاقتصادية دورًا مهمًا في تاريخ الإنسان، إذ كان العامل الاقتصادي في العصور القديمة من أهم العوامل في حياة الإنسان، الذي كان يكافح كفاحًا مريرًا من أجل الحصول على قوت يومه، وأصبحنا ندرس تاريخ الإنسان الحضاري على أنه تدرَّج من مرحلة الجمع والالتقاط إلى الرعي إلى الزراعة إلى الحرف وغيرها، أما في عصرنا الحديث والمعاصر فإننا نشاهد تكالب الدول الاستعمارية من أجل السيطرة على ثرواتنا ونهبها، من هنا نجد أن العامل الاقتصادي قد أدّى دورًا مهمًا في الاستعمار الأوروبي الحديث للبلاد العربية وغيرها، إذ كان من أهم أهداف الاستعمار الاستحواذ على المواد الأولية والأسواق التي تسدُّ حاجات الدول الصناعية، مما يدل على أن سبب الحروب والصراعات هو سبب اقتصادي بامتياز، وله مساهمة كبيرة في صنع الحدث التاريخي.

ومن العلوم الأخرى وثيقة الصلة بالتاريخ علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الآثار (الأركيولوجيا)، ولا شك أنها تفيد المؤرِّخ في إلقاء الضوء على حياة الإنسان الأول وحضارته، وعلى العلاقات والعادات والتقاليد السائدة في المجتمعات الإنسانية.

-تطوُّر علم التَّاريخ عند العرب:

يُعدُّ علم التاريخ من أهم العلوم والمعارف التي اهتم العرب بها، وتدارسوها، وألَّفوا فيها، ويرجع اهتمامهم بها إلى ما قبل الإسلام، إذ كانوا يعتقدون بأهمية الدم في تقرير خلق الإنسان، ويؤمنون بأن أعمال الأجداد والآباء مسؤولة عن مكانة الأبناء في المجتمع، وهذا ما دفعهم إلى الاهتمام بالأنساب، وحفظ شجراتها، والتغني بها.

وحين بُعِث الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ونشر الإسلام، وأنزل الله تعالى القرآن الكريم، كانت فيه آيات بيِّنات تذكر قصصًا وأخبارًا عن «الأولين» و«الماضين»، وتدعو إلى دراسة أحوالهم والتفكر فيها، وأخذ العبرة منها، وقد ذكرت السُّور الكريمة أخبار كثير من الأنبياء، ووصفت أحوال الماضين، وجاءت آيات تبيِّن مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بين الناس، مما دفع مفسِّري القرآن إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية على مر الزمان أحد فروع المعرفة التي ارتبطت بشكل أو بآخر بالقرآن[١٥]. وكان من أسباب اهتمام العرب بالتاريخ

١٥- انظر السيوطي: الإتقان، الجزء الثاني، فصل ٦٥، القاهرة ١٣١٧، ص:١٢٧.

أيضًا السعي إلى معرفة السيرة النبوية، إذ ظهرت دراسات تاريخية سُمِّيت بالسِّيَر، والمغازي، والأخبار، والأنساب، والفتوحات، والتنظيمات، وأيضًا الأمم والأديان القديمة، وأخبار العرب في الجاهلية، والمرويات السياسية والحضارية والاجتماعية والأدبية، ثم ظهرت حاجة الدولة الإسلامية الأولى إلى وضع التواريخ والمواقيت، ووضع تقويم ثابت هو التقويم الهجري، وبذلك أصبح توقيت الأحداث أو تاريخها هو العمود الأساس للدراسات التاريخية، ثم أُنشئت الدواوين، وحُفِظت الأنساب، وهكذا بدأ عصر الاهتمام بالتدوين التاريخي، وهو مرحلة جديدة في علم التاريخ طبعته بطابعها الخاص، وأنتجت إرثًا تاريخيًا وأسسًا وقواعد ومناهج في الكتابة التاريخية جعلت التاريخ من أرقى المعارف وأشرفها.

إن ما أرساه العرب المسلمون من قواعد وأصول وأسس في علم التاريخ كان محط إعجاب العلماء والمفكرين والفلاسفة في العالم وتقديرهم، معترفين بفضل العرب في تأصيل قواعد أساسية لترسيخ عملية التأريخ، وحجز مكانة مرموقة للتاريخ بين المعارف الإنسانية الفاعلة في الميدان الحضاري.

وهكذا اهتم العرب بعلم التاريخ، فتدارسوه وروَوا أخباره ودوَّنُوه، وأُلِّفت الكتب التاريخية، وتناولت جوانب متعددة، فلم تترك جانبًا من جوانب النشاط الإنساني دون أن تُسجِّل تاريخه وتفاصيله.

في المجمل يمكن تلخيص الأسباب التي حملت العرب المسلمين على تدوين تاريخهم بما يأتي:

١-رغبتهم في معرفة ماضيهم وحفظه.

٢-تأثرهم بشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، واهتمام المسلمين بأخباره وأحاديثه، التي كانوا يستندون إليها في تنظيم حياتهم الخاصة الدينية والدنيوية.

٣-الرغبة في حفظ الأنساب والحفاظ عليها، لأن اهتمام العرب بها يرجع إلى أقدم العصور؛ إذ كانوا يحفظونها ويتناقلونها ويتفاخرون بها.

٤- النزاع السياسي بين الأحزاب والفرق الإسلامية المختلفة، ولا سيما بين العرب والعجم بعد أن ظهرت حركة الشعوبية، إضافةً إلى دور الفرق الإسلامية المختلفة مثل السُّنَّة والشِّيعة والخوارج، الذين حرصوا على حفظ الماضي وأعمال كلٍّ منها وتاريخها.

٥-الرغبة في فهم الأدب العربي القديم؛ إذ جمعوا أشعارهم وحِكَمَهم وأمثالهم، واضطروا إلى تفسيرها لفهمها، ذلك التفسير الذي دفعهم إلى معرفة الحوادث التاريخية، ودليل ذلك أن كتب الأدب العربي القديم هي بالفعل ملأى بأخبار العرب وحوادثهم وسير رجالهم.

٦- الرغبة في تَبَوُّؤ مكانة مرموقة، والحصول على مكسب مادي من ملك أو سلطان أو خليفة أو وزير، من خلال التأريخ لمرحلة حكمه وتدوين أخباره وإنجازاته، ولدينا مثال على ذلك ابن الطقطقى، الذي قدَّم كتابه الفخري في الآداب السُّلطانيّة، وهو كتاب مملوء بأخبار العرب وحوادثهم وسِيَر رجالهم، فرغ من تأليفه سنة ٧٠١ هـ. ومن ذلك أيضًا كتاب التّاجيّ في أخبار الدَّولة البُويهيّة الذي كتبه أبو إسحق الصّابي تقرُّبًا من عَضُد الدَّولة البُويهيّ، وكتاب اليميني الذي كتبه أبو نصر محمّد بن عبد الجبّار العُتبيّ في أخبار السُّلطان محمود الغزنويّ الملقَّب بيمين الدَّولة.

٧- تطوُّر العلوم ونضج الحياة العقلية والأدبية، ولا سيما في العصر العباسي، مما أدى إلى ازدهار العلوم على اختلاف أنواعها، وكان لعلم التاريخ النصيب الوافر منها.

مدارس الحركة التاريخية عند العرب[١٦]:

هناك خمس مدارس واضحة المعالم أسهمت في تطور الحركة التاريخية عند العرب وهي:

١- **المدرسة اليمنية**: اهتمت بأخبار أهل الكتاب وتاريخ اليمن، والتاريخ فيها هو قصص وأساطير، يمجِّد مؤرِّخوها تاريخ عرب اليمن، والمؤرِّخون قُصَّاص شعبيون أو رواة، يردِّدون الروايات التاريخية كما هي من دون محاولة لنقدها أو تخليصها من الخرافات. من أشهر رُوَّاد هذه المدرسة وهب بن منبه، الذي يصفه كلٌّ من ياقوت الحموي وابن خلِّكان والذَّهبيّ بصاحب الأخبار والقصص، يستقي مواده من الروايات الشفوية، ومن كتب الأنبياء، وقد اشتُهِر بسعة اطلاعه، ونُسِبت إليه مؤلَّفات كثيرة أشهرها: أحاديث الأنبياء، والعباد، ومبتدأ الخلق، وكتاب الملوك المتوَّجة من حِميَر وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم.

٢- **المدرسة الحجازية**: نشأت في مكَّة والمدينة، وهي مدرسة كُتَّاب السيرة والمغازي، اهتمت بعرض الأحداث التاريخية المهمَّة في حياة الرسول محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، والمسلمين الأوائل، وقد اعتمد أصحابها في تأريخهم على مصدرين:

١-ما كان دائرًا بين العرب من أخبار الجاهلية.

٢- أحاديث رواها الصحابة والتابعون من بعدهم عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وعن ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده ضد المشركين وغزواته، وأخباره عامة إلى حين وفاته.

أشهر رُوَّاد هذه المدرسة عُروة بن الزُّبير، وهو ابن القائد المشهور الزُّبير بن العوام، اهتمَّ في كتاباته بالإسناد، وكتب عن بعث الرسول ونزول الوحي، وبداية الدعوة، وموقف قريش من المسلمين، وكتب أيضًا عن الهجرة إلى الحبشة وأسبابها، وهجرة الرسول إلى المدينة، وتحدَّث عن المغازي، ورسائل النبي عليه الصلاة السلام إلى الجهات المختلفة، ثم عن الآونة الأخيرة من حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد جمع ما هو متداول عن الأحداث التاريخية المرتبطة بالمغازي، وأسهم في وضع بعض الأسس التي تقوم عليها الدراسة التاريخية لهذه المرحلة المهمة من تاريخ الإسلام. وقد أورد كلٌّ من الطَّبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، والبلاذري في كتابه «فتوح البلدان»، والذَّهبي في كتابه «تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحق» بعضًا مما كتبه عروة بن الزُّبير عن المغازي.

٣- **المدرسة العراقية**: نشأت في البصرة والكوفة وبغداد، اهتمَّ رواتها بالحوادث والأمور العامة، فكتبوا عن تاريخ الجزيرة العربية، والشام، والعراق، وتحدَّثوا عن الفتوحات وحروب الرِّدَّة، والشورى والفتنة، والصراعات والخلافات بين المسلمين أنفسهم، والانقسامات السياسية التي اجتاحت الدولة الإسلامية، والمنازعات القبلية، واستخدموا في كتاباتهم وثائق رسمية من رسائل ومعاهدات، كما أن بعضهم اضطر إلى ذكر الروايات المعارضة والمقابلة للرواية الأساسية، مما أسهم في وضع أسس الطريقة النقدية في التاريخ.

٤- **مدرسة التاريخ في مصر والشام**: يُعدُّ رُوَّاد هذه المدرسة من الصحابة الذين رحلوا إلى مصر والشام، ومن أشهرهم في مصر: يزيد بن أبي حبيب الأزدي، الذي اشتُهر بتدوينه تاريخ الفتوحات في مصر، والحروب والفتن التي شهدتها، ويُعدُّ عبد الله بن عمرو بن العاص المؤسِّس الأول لمدرسة مصر للتاريخ الإسلامي، ثم تبعه كثيرون، منهم الليث بن

١٦- الجمل شوقي، المرجع السابق، ص٣٥.

سعد، وعبد الرحمن بن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس، وأبو عمر الكندي مؤلف كتاب الولاة والقضاة، الذي تناول تاريخ مصر منذ الفتح العربي إلى وفاة محمد الإخشيد، والحسن بن زُوْلَاقَ (ت ٣٨٧ هـ) صاحب كتاب «العيون الدُّعْج في حُلى دولة بني طغج»، الذي تحدَّث فيه عن تاريخ الدولة الإخشيديّة.

أما في بلاد الشام فقد اشتهر مؤرِّخوها بمعرفتهم للسِّيَر، وبالكتابة في فتوح الشام وتاريخها، ومنهم الأوزاعي الذي اشتُهر إضافةً إلى ذلك بالحديث والفقه، وله كتاب تناول فيه شرح النظام الحزبي للمسلمين، وتحدَّث فيه عن تاريخ بلاد الشام.

٥- مدرسة التاريخ في قرطبة: برز فيها عدد من المؤرِّخين، الذين كتبوا عن تاريخ الأندلس، ومنهم: أحمد بن محمد الرازي التاريخي، من مؤلَّفاته: مسالك الأندلس وموانيها، وأمهات مدنها وأخبارها. وابن حِبّان القرطبي، الذي قيل: إنه ألَّف نحو خمسين كتابًا، أشهرها «المقتبس في أخبار الأندلس»، و«المتين» في ستين جزءًا. ولسان الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب، من أشهر مؤلفاته «الإحاطة في تاريخ غرناطة».

وقد اشتُهر عدد كبير من الأندلسيين بحبِّ الرحلة والتجول في البلاد الإسلامية وغيرها، ولهم رحلات مشهورة أسهمت في كشف النقاب عن تاريخ العرب وحياتهم في كثير من الأقطار التي انتشروا فيها، إضافةً إلى التعريف بأماكن لم يكن العالم المتحضِّر يعرف شيئًا عنها ، نذكر منهم على سبيل المثال: الرحَّالة ابن جُبير، وابن بطوطة، الذي كتبنا عن رحلاته في مقال سابق، وسواهما ممّن يضيق المجال عن حصرهم وذكرهم بالتفصيل.

٦- نماذج من محتويات الكتب التاريخية:

سنعرض في هذا المقال بعض الصور المتنوعة للتاريخ عند العرب، منها ما ذكره القاضي الجرجاني في الأنساب وفي السيرة، إذ جمعهما في كتاب سمَّاه «**تهذيب التاريخ**»، نقل منه أبو منصور الثعالبي فصلين في كتابه المشهور «**يتيمة الدهر**»، إذ أُعجب الثعالبي بهذا الكتاب، وقال عنه: «إنه تاريخ في بلاغة الألفاظ، وصحة الروايات، وحسن التصرف في الانتقادات»[١٧]، ويبدو من خطبة هذا الكتاب التي سجلها كتاب اليتيمة، أنه كتاب في تاريخ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر آثاره وأخباره، ومعارف أيامه وأحواله، وبيان غزواته، إضافةً إلى قصص من أنباء الأولين، وأخبار الآخرين، وما لهم من آثار في الأرض، وربما أراد بهؤلاء ملوك الفرس، وما كان لهم من عظمة وسلطان، وما تركوه في بلادهم من الآثار،

١٧- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص٧.

فقد جاء في الفصل الأول منه: «**ولولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ، ومتقدِّم من متأخِّر، وما استقرَّ من الشرائع وثبت مما أُزيل ورُفِع، ولا عُرِف ما كان أسبابُها وكيف مسَّت الحاجة إليها، وحصلتْ وجوهُ المصلحة فيها.**

ولا عُرِفت مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حروبه ولا سراياه وبعوثه، ومتى قارب ولايَنَ وساتر وخَافَتَ، وفي أيِّ وقت جاهَرَ وكَاشَفَ، ونبذ أعداءه وحارب؟ وكيف دبَّر أمر الله الذي ابتعثه له، وقام بأعباء الحق الذي طوّقه ثقله[١٨]، وأيَّ ذلك قدَّم وأيَّها أخَّر، وبأيِّها بدأ، وبأيِّها ثنَّى وثلَّث.

وإن الولد البرَّ ليتفقَّد من آثار والده، والصاحب الشفيق ليُعنى بمثله من شأن صاحبه، حتى يُعدَّ إن أغفله مستهينًا به، مستوجبًا لعَتْبه، فكيف من هو رحمة الله المهداة إلينا، ونعمته المفاضة علينا، ومن به أقام الله دنيانا ودِيننا، وجعله السفير بينه وبيننا؟

وأيُّ أمر أشنع، وحالة أقبحُ من أن يَحُلَّ الرجل محلَّ المُشار إليه المأخوذ عنه، ثم يسأل عن الغزوتين المشهورتين من مشهور غزواته، والأثرين من مستفيض آثاره، فلا يعرف الأول من الثاني، ولا يفرِّق بين البادي والتالي»[١٩].

أما الفصل الثاني فقد قصد الجرجانيُّ منه غرْض دين ودنيا: الغرض الدينيّ يتمثَّل في التأريخ للرسول صلى الله عليه وسلم، لأهداف ذكرها الجرجاني، أما الدنيوي كي يكون الكتاب تذكرة له عند الوزير، يتجدَّد به ذكره بحضرته، ويكرِّر به اسمه في مجلسه،

وقد جاء فيه: «**وهذا كتاب قصدت به غرضَيْ دين ودنيا، أما الدِّين فأن أُقَيِّدَ به من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره ومعارف أحواله وأيامه، وذكر ما طمس الله به من معالم الشرك، وأوضح به من معارف الحق، وما خفض بعلو كلمته، وعلى أيدي أنصاره وشيعته، من رايات كانت عالية على الأبد، مكنوفة بحصافة العُدَد[٢٠]، وكثافة العدد = ما يعلم به العاقل المتوسِّم أن تلك الفئة القليلة، والعُدَّة اليسيرة على قلّة الأُهبة، وقصور العُدَّة وخمول الذكر وضعف الأيدي، وعلوِّ أيدي الأعداء، وشدة شوكة الأقران = لا يستمر لها ولا يتفق بها مغالبة الأمم جمعًا، ومقاومة الشعوب طرًا،**

١٨- أي سلم إليه مقادير أموره والقيام بأمره.

١٩- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ص:٨.

٢٠- محاطة ومحروسة بالرأي والعدّة معًا.

وقهر الجنود الجمة، والجموع الضخمة، وإزالة الممالك الممهَّدة، والولايات الموطَّدة، في الدهر الطويل والزمن المديد، مع وفور العُدَّة وانبساط القدرة، واستقرار الهيبة = إلا بالنصرة الإلهية، والمعونة السماوية، وإلا بتأييد لا يخصُّ الله به إلا الأنبياء، ولا ينتخب له إلا الأولياء، وإن اقتصَّ فيه من معاناة أنصاره وأتباعه، والقائمين بإظهار دينه في حياته، وعمارة سبيله بعد وفاته، من مصابرة اللأواء[٢١]، ومعالجة البأساء، وبذل النفوس والأموال، وإخطار المهج والأرواح = ما يزيد القلوب للإسلام تفخيمًا وبحقه تعريفًا، ولما عساها تستكبر من أفعالها تصغيرًا، وفي الازدياد منه ترغيبًا، ولِما أجريه في خلال ذلك من تذكير بآلاء الله، وتنبيهٍ على نعم الله بما أقتصُّ من أنباء الأولين، وأبثُّ من أخبار الآخرين، وأبيِّنُ من الآيات التي أمر الله بالمسير في الأرض لأجلها، وبعث على الاعتبار بها وبأهلها، فقال: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾[سورة يوسف: ١٠٩]، فيحرص العاقل على استبقاء نعمة الله عنده بالشكر الذي ضيَّعه من سلبه الله تلك النعم، ويتحرّز[٢٢] من غوائل الكفر[٢٣] الذي أحلَّ بهم تلك النِّقَمَ[٢٤].

وأما غرض الدنيا فأن أقيم بفِناء الصاحب الجليل – أدام الله بهاء العلم بدوام أيامه – مَن يخلُفُني في تجديد ذكري بحضرته، وتكرير اسمي في مجلسه، ومن ينوب عني في مزاحمة خدمته، على الاعتراف بحق نعمته.

وعلمت أني لا أستخلف من هو أمسُّ به رحمًا، وأقرب منه نسبًا، وهو أرفع عنده موضعًا، وألطف منه موقعًا، وأخص به مدخلًا ومخرجًا، وأشرف بحضرته مقامًا وموقفًا = من العلم الذي يزكو عنده غراسًا، فيُضَعَّفُ رَيْعًا، ويحلو طعمًا، ويطيب عَرْفًا[٢٥]، ويحسن اسمًا.

فاخترت لذلك هذا الكتاب ثقة بوجاهته، وعلمًا بقرب منزلته، وكيف لا يكون عنده وجيهًا مكينًا، ومقبولًا قرينًا[٢٦]، وإنما هو نتاج تهذيبه، وثمرة تقويمه، وحِبَاءُ تمثيله، وريع تحريكه؟!

فلولا عنايته لما صدقت النية، ولولا إرشاده لما اتَّقَدَت الفطنة، ولولا معونته لما استجمعت الآلة. وما يبعد به عن إيثار العلوم وتعظيمها، وعن تقديمها وتقريبها، وهو الذي نَصَبَهُ الله لها مثالًا، وأقامه عليها منارًا، وجعله لها سندًا، ولإحيائها سببًا؟!»[٢٧].

في الختام لا بد أن نقرَّ أن القاضي الجرجاني قد برع في صياغة كتابه، واختار له لغة رفيعة مؤثرة، كان يقف على الروايات فيدرسها، ويختار أصحّها، ويحكِّم عقله في الأخبار المروية، فلا يقبل بكل ما يقال، ويبيِّن الزائف من الصحيح، وقد اتضح منهجه هذا بدءًا من عنوان الكتاب «تهذيب التاريخ»، الذي يدل على الخطة التي انتهجها صاحبه في كتابة تاريخه من انتقاء صحيح المعلومات، واختيار صادق الرّوايات، ونفي ما لا يثبت للعقل صحّته، ويعدّ فقد هذا الكتاب خسارة للمكتبة العربية.

٢١– الشدة في العيش.

٢٢– يحترس ويتجنب.

٢٣– دواهيه ومهالكه.

٢٤– جمع نقمة ، وهي المكافأة بالعقوبة.

٢٥– الرائحة.

٢٦– الصاحب.

٢٧– يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ص:٨–٩.

المصادر والمراجع:

١- ابـن منظـور، لسـان العـرب، دار المعـارف، القاهرة.

٢- الثعالبـي، يتيمـة الدهـر في محاسـن العصـر، تحقيـق مفيد محمد قميحة، الجـزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

٣- الجمـل شوقـي، علـم التاريخ نشأتـه وتطوره ووضعه بين العلوم الأخـرى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، د.ت.

٤- دويدري وحيد رجاء البحث العلمي: أساسياته النظريـة وممارساتـه العلميـة، دار الفكـر ، دمشـق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨.

٥- السخـاوي، الإعلان بالتوبيخ لمـن ذم التاريخ، دمشق، ١٣٤٩.

٦- السيوطـي : الإتقان، الجزء الثاني، فصل ٦٥، القاهرة ١٣١٧.

٧- عبـد الرحمن محمد بـن خلـدون، مقدمة ابن خلـدون، تحقيـق المستشـرق الفرنسي كاتـر مير عن طبعـة ١٨٥٨، المجلـد الأول، مكتبـة لبنـان، بـيروت، ١٩٩٢.

٨- عثمـان حسـن، منهـج البحـث التاريخـي، القاهرة، ١٩٦٥.

٩- كاسير أرنست، في المعرفة التاريخية ، ترجمة أحمـد حمـدي محمود، القاهـرة، مراجعة علـي أدهم، د.ت.

١٠- الكافيجي، المختصـر في علم التاريخ، تحقيق محمـد كمال الديـن عزالدين، منشورات عـالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

١١- الصبـاغ ليلـى، دراسـة في منهجيـة البحـث التاريخـي، الطبعـة الثالثة عشـر، منشـورات جامعة دمشق، ٢٠٠٧.

١٢- هرنشـو، علـم التاريـخ، ترجمـه وكتـب حواشيـه وأضاف إليه فصلًا عـن التاريخ عند العرب د. عبد الحميد العبداوي، القاهرة ١٩٣٧.

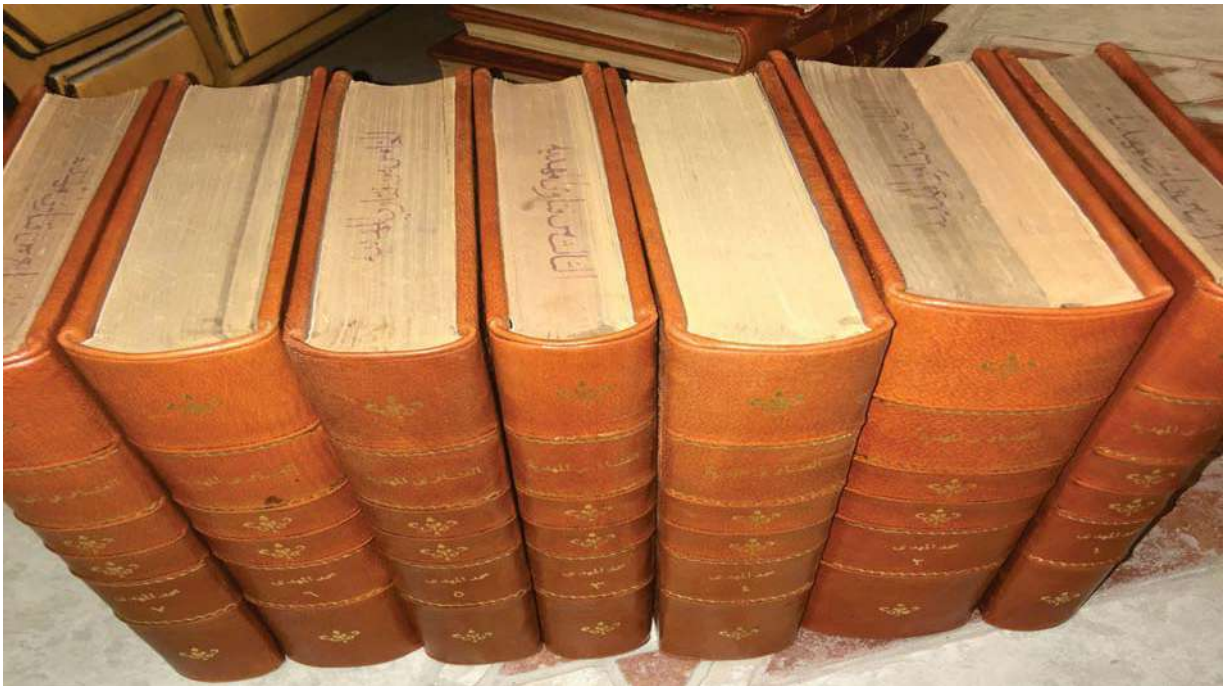

نظرةٌ في كتابِ «ثِمَار القلوبِ في المُضَافِ والمَنْسُوب» لأبي منصور عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل الثَّعالبيّ النَّيسَابُوريّ

(٣٥٠ - ٤٢٩هـ)

د. ليال سعيد أبو العزّ *

إنَّها كنوز العربية، مَعينٌ تراثي ثرٌّ لا ينضب، ننهل منه ألطفَ النُّكت، وأعذبَ اللُّمع الأدبية الشعرية والنثرية، تسحرنا ذائقة أُدبائه وكُتَّابه وفقهائه المرهَفة، التي تنتقي من الأخبار والروايات والأمثال وفنون القول البليغة ما تلين له القلوب، وتستكين له النفوس، وتقنع به العقول، ففيه نتذوَّق السَّمين دون الغثِّ، والعلمَ الحقَّ دون الوهم والباطل، لأجل ذلك كله بقي تراثنا العربي جوهرة المكتبة العربية التي تختزنها وتحرص عليها أشدَّ الحرص، كيلا تضيع هذه الكنوز الثمينة التي قد لا يجود الزمان بمثلها، فكيف نغفل عن هذا التراث الذي مازال يُثري معارفنا، ويحفظ لنا الأدب والتاريخ والفقه والنقد وآثار الثقافة العربية الإسلامية على امتداد تاريخها، وكيف لنا أن نغضَّ الطَّرف عن جليل تلك الكتب، وعزيز تلك المؤلَّفات، فواجبٌ على أهل العربية وعشَّاقها وأبنائها أن يتسابقوا إلى أحضانها يستسقون ماءها السلسال الفُرات، ويتشبَّعون بعبق ذلك التراث الذي يزدحم بالكتب الموسومة بأنها خير هدية تُهدى لأمراء ذلك العصر أو ملوكه أو خلفائه.

* مدرِّسة في قسم اللُّغة العربيّة وآدابها – كلّيّة الآداب الثّانية (السويداء) – جامعة دمشق.

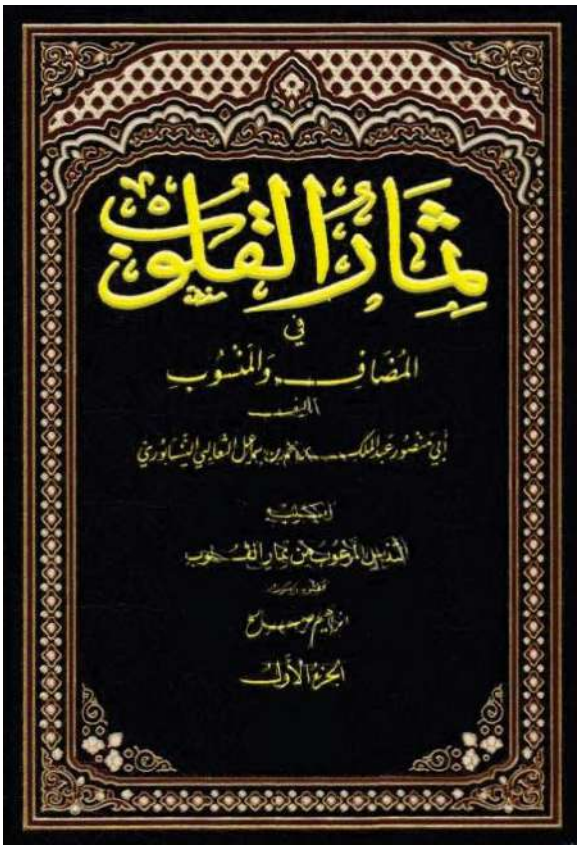

وكان المؤلِّفون يعملون ليلَ نهارَ لجمع العلوم والآداب ومُدارستها وتوثيقها في كتبهم، حتى إننا وجدنا معظمهم قد ترك لنا ما يقارب مئة كتاب، وخير مثال على ذلك الثعالبي، الذي نبتغي أن نستظلَّ بظلال أحد مؤلَّفاته في هذا المقام، وأن نقتطف ثماره اليانعة التي جناها لنا في كتابه الجهير «ثمار القلوب في المُضَاف والمَنسُوب»[١]، هذا المؤلَّف الذي يُهدي للقارئ أطيب ثمار العربية التي أنضجتها لغة القرآن والشعر والفصاحة، ولغة العامة وتجاربها، وقريحة الأدباء والنُّقَّاد، وآراء العلماء والحكماء.

لا بد بداية أن نستأنس ببعض المعرفة عن الثَّعالبيّ صاحب هذا الكتاب، ومناسبة تأليفه إياه، والمُهدَى إليه، كي نحيط علمًا بالوسط الثقافي والزماني الذي خرج فيه إلى النور هذا المؤلَّف الثمين.

-نبذة عن المؤلِّف:

هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المُكنَّى بأبي منصور الثَّعالبيّ النَّيسابوريّ، نُسِبَ إلى الثعالب لأن أباه أو جدّه كان يعمل في خياطة جلودها. وعمل الثعالبي في تأديب الصبيان في نيسابور أوَّل أمره[٢].

وكان الثعالبي مؤلِّفًا غزير التأليف، وشاعرًا صافي الديباجة، وناثرًا لطيف الصنعة والأسلوب، وحافظًا لأخبار العرب وأمثالها وأشعارها، وواسع المعرفة والاطلاع على علوم عصره ومؤلَّفات سابقيه ومعاصريه، وقد عرَّفه ابن خلِّكان نقلاً عن ابن بسَّام بأنه: «كان في وقته راعي تَلَعَات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلِّفين في زمانه، وإمام المصنِّفين بحكم أقرانه، سار ذكره سَيرَ المَثَل، وضُرِبت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب؛ تواليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجامع من أن يستوفيها حدٌّ أو وصف، أو يُوفيها حقوقها نثر أو رصف»[٣].

وقال الباخرزي عنه: «هو جاحظ نيسابور، وزُبْدة الأحقاب والدهور، لم ترَ العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله، وكيف يُنكَر وهو المزن يُحمَد بكل لسان، وكيف يُستتَر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان»[٤].

١- أبو منصور الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق وشرح: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٤.

٢- يُنظر: مقدمة كتاب: أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ص: د.

٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج٣، ص: ١٧٨.

٤- أبو الحسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤هـ، ص: ١٨٣.

وقال عنه الحُصْري: «وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا، وهو فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده، وله مصنَّفات في العلم والأدب، تشهد له بأعلى الرُّتب»[٥].

-أشهر مؤلَّفات الثَّعالبيّ التي أثبتها ابن شاكر الكُتُبيُّ:

هي كثيرة للغاية ذكر منها: يتيمة الدهر، وتتمة اليتيمة، وسحر البلاغة وسر البراعة، والمبهج، وفقه اللغة، والتمثيل والمحاضرة، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، وغُرر المضاحك، والفرائد والقلائد، وبَرْد الأكباد في الأعداد، ومدح الشيء وذمّه، والشمس، وحَلي العقد، ومرآة المروءات، وكتاب أحسن ما سمعت، وأحاسن المحاسن، وأجناس التجنيس، والطرائف واللطائف، والسياسة، والثلج والمطر، والاقتباس من القرآن الكريم، وسجع المنثور، واللُّمع الغَضَّة، وتفضيل المقتدرين وتنصّل المعتذرين، واليواقيت في بعض المواقيت، وتحسين القبيح وتقبيح الحسن، وخاص الخاص، والإعجاز والإيجاز، وأنس المسافر، وعيون النَّوادر، والكناية والتعريض، وأفراد المعاني، والمتشابه لفظًا وخطًا، والنَّوادر والبوادر، والفصول الفارسية، والأنيس في غُرر التجنيس، والمنتحل، وسر البيان، ومن غاب عنه المطرب، وسرُّ الأدب في مجاري كلام العرب، والأحاسن في بدائع البلغاء، ومنادمة الملوك، وعيون المعارف، والطُّرَف من شعر البُستيّ، والمورد، وحُجَّة العقل، وصنعة الشعر والنثر، وسر الوزارة، والأمثال والتشبيهات، ومفتاح الفصاحة، ولباب الأحاسن، ولطائف الظّرَفاء، والخوارزمشيهات، والمديح، والأدب مما للناس فيه أرب، والتفاحة، ونسيم الأنس، واللّطيف في الطيب، وبهجة المشتاق، وخصائص الفضائل، وجوامع الكلم، والمُلَح والطُّرَف، والمشوق، ومَن غاب عن المؤانس، ونسيم السَّحَر، والأصول في الفصول[٦].

أما كتابه الذي بين أيدينا، «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»، فيُعدُّ ثالث مؤلَّفاته أهميةً وشهرةً بعد اليتيمة وتتمتها، إذ يجده القارئ كتابًا جامعًا لفنون القول وأشهر أشعار العرب، ودُرر علم اللغة والبلاغة والفقه والتاريخ، وأقل ما يُقال فيه: إنه يضفر بين الجمال والمعرفة والذوق، لذا سنتوقَّف عند أبواب هذا الكتاب، وطريقة تأليفه وتنسيقه، ونُثبت بعض الملاحظ التي تلفت النظر، وتؤجج الحماس لدى القارئ كي يُطالع هذا الكتاب دون كلل ولا ملل.

لقد ألَّف الثَّعالبيُّ هذا الكتاب القيِّم استجابة لطلب الأمير السيد أبي الفضل الميكالي عبيد الله بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال، الذي تولَّى إمارة نيسابور قبل سنة ٤٠٥هـ.

وملخَّص القصة أنه «اتصل به الثعالبي عندما كان الأمير بفيروزآباد، وأمضى بحضرته أربعة أشهر، توفر فيها على خدمته، ولازم مجلسه في أكثر أوقات الليل والنهار، في سفره وحضره، ينهل من آدابه وأخلاقه، ويتخيّر من مكتبته العامرة طُرفًا يُودعها كتبه، وتوطَّدت بينهما صداقة عميقة كتلك التي كانت تربطه برجالات عصره»[٧]. ثم طلب إليه الأمير أن

٥- أبو إسحاق الحُصْري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٣، ج١، ص: ١٢٧.

٦- يُنظر: مقدمة كتاب: أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، ص: ١١ حتى ١٨، أثبت فيها المحقِّق تحقيقًا لترجمة ابن شاكر الكتبي للثعالبي في كتابه: «عيون التواريخ» نسخة الظاهرية بدمشق، ج١٣- ورقة ١٧٩ ب حتى ١٨١ ب.

٧- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، ص: ٢٩.

يؤلِّف كتابًا في اللغة، شريف الموضوع، أنيق المسموع، فاستجاب الثَّعالبيّ لهذا الطلب، وقد نصَّ على ذلك الثعالبي في مقدمة كتابه: «فإن هذا الكتاب مترجم بـ «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» خدمت به خزانة كتب الأمير السيد أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، عمَّرها الله تعالى بطول عمره، وعلوِّ أمره. وإن كنتُ في ذلك كمُهدي العود للهنود، وناقل المسك إلى أرض الترك، وجالب العنبر إلى البحر الأخضر»[٨].

وهكذا أنجز كتابه الذي يُعدُّ «بحقٍّ دائرة معارف الثعالبي، فهو ثالث كتاب له من حيثُ الأهميةُ بعد اليتيمة وتتمتها، وهو ثاني كتاب له من حيث الحجم بعد اليتيمة»[٩]، إذ يُطالع فيه القارئ ضروبًا مختلفة من المعرفة، والشعر، والنثر، والفقه، وتفسير القرآن، وتعريف بأشهر خصائص البلدان، والتاريخ، وأيام العرب وأمثالها وأخبارها وأنسابها وغير ذلك، فكان كتابًا جامعًا تارة، وانتقائيًا تارة، وراويًا تارة، وناقدًا تارة، ومؤرِّخًا تارة، وطبيًا تارة، وتقييميًا تارة.

-ملاحظ وتعاليق على كتاب: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»

١- إن أول ما يصطدم به القارئ حين يُقبل على كتاب، ويعزم على قراءته هو عنوانه، الذي يمثِّل الاسم والهوية التي تمنح الكتاب شرعية الوجود، ويتصدَّر المؤلَّف لأنه نواة التكوين التي ينفجر متنه منها، ويتراءى عتبة إغواء وإثارة تتكفَّل باستقطاب القرّاء.

إن العنوان «ثمار القلوب في المُضَاف والمَنسُوب» على درجة كبيرة من الوضوح، من جهة تحديد موضوع الكتاب، الذي سيدور في ظلال التراكيب اللغوية العربية المضافة والمنسوبة إلى أشياء محدَّدة.

وجاء مراعيًا لفنون البديع والبلاغة من خلال المحسِّن البلاغي المعروف بالترصيع بين «القلوب» و«المنسوب»، مما يضمن له الجرس الموسيقي اللطيف على الأذن من ناحية، ومراعاة عادة المؤلِّفين في ذلك العصر في عنونة كتبهم من ناحية أخرى، لكنه في الآن نفسه يصف التراكيب المُضافة والمنسوبة المثبَتة في متن هذا الكتاب بأنها من ثمار القلوب، مستبعدًا ثمار العقول والتجارب الإنسانية، وإن كُنَّا عثرنا في ثنايا الكتاب على مقصد الثعالبي حين شرح ثمرة القلب بأنها: «كلُّ ما يحبُّه الإنسان فهو ثمرة قلبه على طريق الاستعارة»[١٠]، وكأن هذه التراكيب المضافة هي مما يُحبَّبُ إلى نفس الإنسان إذا سمعها أو حفظها.

٢- قبل الخوض في متن الكتاب وتفاصيل مادته وطريقة توزيعها، لا بد أن نتعرَّف إلى نسخه المحفوظة، وطبعاته المعتمَدة، وهي كالآتي[١١]:

- نسخة (أ): هي مخطوط من دار الكتب الظاهرية في دمشق، رقمها ٤٣، مقاسها ١٩ × ٣ سم، عدد صفحاتها ٣٥٠ صفحة، وفي كل صفحة ١٩ سطرًا، وهي نسخة تامة، وتعدُّ أكمل النسخ، لأنها تتضمَّن زيادات مهمة لا توجد في غيرها، وكأنها المرحلة النهائية التي ارتضاها الثعالبي لكتابه.

- نسخة (ب): هي مخطوط من دار الكتب الظاهرية بدمشق، رقمها ٦٩٣٧، مقاسها ١٤ × ٢١ سم، عدد صفحاتها ٤٨٦ صفحة، وفي كل صفحة ٢٥ سطرًا، وهي نسخة كاملة كثيرة السقط، عليها أثر معارضة واستدراكات كثيرة، وكأنها المرحلة الأولى من مراحل تأليف الكتاب، فبعض المواد فيها مختصر

٨- نفسه، ج١، ص: ٤٩.
٩- نفسه، ص: ٣١.
١٠- المصدر السابق نفسه، ج: ١، ص: ٥١٥- ٥١٦.
١١- نفسه، ج١، ص: ٣٣ وما بعد.

وبعضها برواية مختلفة تمامًا.

-نسخة (ط١): هي الطبعة الأولى الصادرة عن مطبعة الظاهر أمام محكمة الاستئناف بالقاهرة، سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م، عُنيَ بنشرها المحامي محمد بك أبو شادي، واعتنى بتصحيحها وتعليق بعض الحواشي عليها محمد حسين، لكنها تضجُّ بالكثير من الأخطاء والتصحيفات والتحريفات، فلم يكن المحقِّق دقيقًا وأمينًا في تحقيقه كما يجب.

- نسخة (ط٢): وهي الطبعة الثانية، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر، سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م، وكذلك تشكو هذه الطبعة من الأوهام والأخطاء، فالمخطوطتان عوَّل عليهما أبو الفضل غير جيدتين.

-وأخيرًا الطبعة التي حقَّقها إبراهيم صالح، طباعة دار البشائر، في دمشق سنة ١٩٩٤م، وهي أجود طبعات الكتاب وأحدثها، وعليها مُعَوَّلُ صاحبة البحث.

٣- بنى الثعالبي كتابه على الجمع واستقصاء أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء أخرى يُتمثَّل بها، ويكثر استعمالها في الأدب وفي كلام العامة، وجعَلَها في واحد وستين بابًا، وساق استشهادات عليها من القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر، والنثر.

وذكر في مقدمة كتابه أمثلة على ذلك «كقولهم: غُراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف...

وكقولهم: كثر النَّطِف، وقوس حاجب، وقرطا مارية...

وكقولهم: سيرة أزدشير، وعدل أنو شروان، وإيوان كسرى، ورميُ بهرام.

وكقولهم: سيرة العُمرين، ودرّة عمر، وقميص عثمان، ...

وكقولهم: حنين الإبل، وخيلاء الخيل، وأخلاق البغال، وصبر الحمار...

وكقولهم: أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وعقارب نصيبين، ...

وكقولهم: تفّاح الشام، وأُترُجُّ العراق، وسُكَّر الأهواز، وورد جُور ...

وكقولهم في الاستعارات: رأس المال، ووجه النهار، وعين الشمس، وأنف الجبل، ولسان المال، وناب النوائب، وأُذن الحائط، وقلب العسكر، وكبِد السماء، وصدر الأمر»[١٢].

٣- أما الأبواب المتنوعة التي وزَّع مادة الكتاب عليها، فهي كالآتي[١٣]:

الباب الأول: فيما يُضاف إلى اسم الله تعالى عزّ ذكره، وجلّ اسمه.

الباب الثاني: فيما يُضاف ويُنسب إلى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

الباب الثالث: فيما يُضاف ويُنسب إلى الملائكة والجن والشياطين.

الباب الرابع: فيما يُضاف ويُنسب إلى القرون الأولى.

الباب الخامس: فيما يُضاف ويُنسب إلى الصحابة والتابعين.

الباب السادس: ذكر رجالات العرب مختلفي الألقاب والمراتب مضافين ومنسوبين إلى أشياء مختلفة تُضرب بأكثرهم الأمثال.

الباب السابع: فيما يضاف ويُنسب إلى القبائل.

الباب الثامن: فيما يضاف ويُنسب إلى رجال مختلفين.

١٢- المصدر السابق نفسه، ج١، ص: ٥٠- ٥١.

١٣- نفسه، ج١، ص: ٥١- ٥٤.

الباب التاسع: فيما يُضاف ويُنسب إلى العرب.

الباب العاشر: فيما يضاف ويُنسب إلى الإسلام والمسلمين.

الباب الحادي عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى القرّاء والعلماء.

الباب الثاني عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى أهل المذاهب والآراء والأهواء.

الباب الثالث عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى ملوك الجاهلية وخلفاء الإسلام.

الباب الرابع عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى الكتّاب والوزراء في الدولة العباسية.

الباب الخامس عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى طبقات الشعراء.

الباب السادس عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى البلدان والأماكن.

الباب السابع عشر: فيما يُضاف ويُنسب إلى أهل الصناعات.

الباب الثامن عشر: في الآباء المُضافين الذين لم يَلدوا، والأمهات المُضافات اللواتي لم يَلدن، والبنين والبنات الذين لم يُولدوا.

الباب التاسع عشر: في الأذواء والذوات.

الباب العشرون: في ذكر النساء والمُضافات والمَنسوبات التي يُتمثَّل بها لهنّ.

الباب الحادي والعشرون: فيما يُضاف ويُنسب إليهنَّ.

الباب الثاني والعشرون: في أعضاء الحيوان وما يُضاف ويُنسب إليها ويُستعار منها.

الباب الثالث والعشرون: في الإبل وما يُضاف ويُنسب منها وإليها وإلى غيرها.

الباب الرابع والعشرون: في الخيل والبغال.

الباب الخامس والعشرون: في الحمير وما يُضاف ويُنسب منها وإليها.

الباب السادس والعشرون: في البقر والغنم.

الباب السابع والعشرون: في الأسد.

الباب الثامن والعشرون: في الذئب.

الباب التاسع والعشرون: في الكلب.

الباب الثلاثون: في سائر السباع والوحوش.

الباب الحادي والثلاثون: في السِّنَّور والفأر.

الباب الثاني والثلاثون: في الضَّبِّ والظَّرِبان والقُنفُذ والسَّرطان.

الباب الثالث والثلاثون: في الحيَّة والعقرب.

الباب الرابع والثلاثون: في سائر الحشرات والهَوام.

الباب الخامس والثلاثون: في النَّعام.

الباب السادس والثلاثون: في الطَّير.

الباب السابع والثلاثون: في عِتاق الطير.

الباب الثامن والثلاثون: في الغراب.

الباب التاسع والثلاثون: في الحمام.

الباب الأربعون: في سائر أصناف الطير.

الباب الحادي والأربعون: في البيض.

الباب الثاني والأربعون: في الذُّباب والبعوض وما يجانسها.

الباب الثالث والأربعون: في الأرض وما يُضاف ويُنسب إليها.

الباب الرابع والأربعون: في الدُّور والأمكنة والأبنية.

الباب الخامس والأربعون: فيما يُضاف ويُنسب إلى البلدان والأماكن من فنون شتّى.

الباب السادس والأربعون: فيما يُضاف ويُنسب إليها من الأعراض.

الباب السابع والأربعون: في الجبال والحجارة.

الباب الثامن والأربعون: في المياه وما يُضاف ويُنسب منها وإليها.

الباب التاسع والأربعون: في النيران وما يُضاف ويُنسب منها وإليها.

الباب الخمسون: في الشجر والنبات.

الباب الحادي والخمسون: في اللباس والثياب.

الباب الثاني والخمسون: في الطعام وما يتصل به وما يُذكر معه.

الباب الثالث والخمسون: في الشراب وما يتصل به وما يُذكر معه.

الباب الرابع والخمسون: في السلاح وما يجانسه.

الباب الخامس والخمسون: في الحُلِيِّ وما أشبهها.

الباب السادس والخمسون: في الليالي المضافة.

الباب السابع والخمسون: في الأزمان والأوقات.

الباب الثامن والخمسون: في الآثار العُلْوية سوى ما تقدّم منها.

الباب التاسع والخمسون: في الأدب وما يتعلق به.

الباب الستون: في فنون مختلفة الترتيب على توالي حروف الهجاء.

الباب الحادي والستون: في الجنّات.

٤- إن التأمل في موضوعات تلك الأبواب يكشف عن أنها تندرج تحت موضوعات ومجالات دلالية محدّدة يمكن أن نُجملها فيما يأتي:

أ-المجال الديني: «من خلال ما هو مضاف ومنسوب إلى الله جلَّ ذكره، والأنبياء سلام الله عليهم، والرسول محمد ﷺ، والصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وعالم الملائكة والجن والشياطين، والإسلام والمسلمين عامة، والباب الأخير الخاصّ بالجنَّات، إذ أول ما ابتدأ كتابه بما يُضاف إلى اسم الله تعالى عزّ ذكره، وآخر ما اختتمه بباب الجنَّات»، مما يدلُّ على عنايته بهذا الجانب جلَّ العناية.

ب-مجال الزمن: من خلال أبواب القرون الأولى، والليالي المضافة، والأزمان والأوقات.

ت-المجال الاجتماعي: من خلال الأبواب الخاصة برجالات العرب مختلفي الألقاب والمراتب مضافين ومنسوبين إلى أشياء مختلفة تُضرب بأكثرهم الأمثال، والقبائل، والعرب، وملوك الجاهلية وخلفاء الإسلام، والآباء المضافين الذين لم يَلدوا، والأمهات المضافات اللواتي لم يلدن، والبنين الذين لم يُولدوا، والنساء المضافات والمنسوبات التي يُتمثّل بها لهنَّ، وما يُضاف ويُنسب إليهن.

ث-عالم الحيوان والطيور والحشرات والهوام والإبل والوحوش: وذلك فيما يقارب عشرين بابًا، خصَّ بعضها بأبواب مسمّاة باسمها، وبعضها الآخر باسم الجنس عامة.

ج-مجال المكان والبلدان: من خلال الأبواب الخاصة بالبلدان والأماكن، والدور والأمكنة والأبنية، وما يُضاف ويُنسب إلى البلدان والأماكن من فنون شتى، وما يضاف وينسب إليها من الأعراض.

ح-المجال الطبيعي والجغرافي: كما في الأبواب الخاصة بالجبال والحجارة، والمياه وما يُضاف ويُنسب منها وإليها، والشجر والنبات، والنيران وما يُضاف ويُنسب إليها.

خ-مجال الأدب وأصحابه، والسياسة، والفقه: كما في الأبواب الخاصة بما يُضاف ويُنسب إلى القرَّاء والعلماء، وأهل المذاهب والآراء والأهواء، والكتاب والوزراء في الدولة العباسية، وطبقات الشعراء، والأدب وما يتعلَّق به.

د-ما يتعلَّق بحاجات الإنسان: كما في الباب

الخاص باللباس والثياب، والطعام وما يتصل به وما يُذكر معه، والشراب وما يتصل به وما يُذكر معه، والسلاح وما يجانسه، وأشهر الصُّنَّاع والصناعات في باب أهل الصناعات.

٥- إن التنوع الذي وجدناه في المجالات والموضوعات التي دارت حولها التراكيب اللغوية المضافة والمنسوبة، كما رأينا أعلاه، يُوحي بأنها مستمَدَّة ومأخوذة من مصادر متنوعة اعتمد عليها الثعالبي في هذا الكتاب، مثل:

مؤلَّفات الجاحظ، وعلى رأسها الحيوان والبيان والتبيين، والكامل للمبرِّد، ومؤلَّفات حمزة الأصفهاني، وكتب ابن أبي عون، وأمثال أبي عبيد، والمفضَّل بن سلمة، ودواوين الشعراء، مثل ديوان ابن المعتزّ، ومؤلَّفات القاضي الجرجاني، ومقامات الهمذاني ورسائله، ورسائل الخوارزمي، والصَّابي، والصَّاحب بن عبَّاد، وبعض مؤلفات الصُّولي، والمرزباني، والمدائني، وسهل بن المرزبان، إضافةً إلى نقله من كتبه هو نفسه، مثل: كتاب «المُبهِج» و«حشو اللوزينج»[١٤].

٦-من لطيف أسلوب الثعالبي في ذكر التراكيب المضافة والمنسوبة أنه لا يكتفي بمجرَّد النقل والرواية وتجميع الأخبار، وإنما يُبدي رأيه الخاص، ويعبِّر عن وجهة نظره مما يروي. الأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في مَثَلِ «لطمة موسى»، الذي يُضرب مَثَلًا مما يسوءُ أثره، إذ نجد الثعالبي قد ساق حكاية من أساطير الأوّلين عن موسى حين طلب من الله أن يُعلمه بميعاد موته، ليستعدَّ له، فلما أرسل له ملك الموت على صورة آدميٍّ ظلّ يحاجُّه ويُلاجُّه إلى أن لطمَه لطمةً، فذهبت إحدى عينيه، فعلّق الثعالبي في ختام الرواية بقوله: «**أنا بريءٌ من عهدة هذه الحكاية**»[١٥].

وقد نجد الثعالبي يقدّم تعليلات للتراكيب التي يذكرها من باب الاجتهاد والتَّكهُّن، كما في تركيب «ديك الجنّ» حين قال:

«ولستُ أعرف السبب في تلقيبه بديك الجن، ويُشبهُ أن يكون قال بيتًا يشتمل على ذكر ديك الجنّ، فلُقِّبَ بذلك، كما لُقِّب كثير من الشعراء بأقوال تجري لهم مجرى الشّواذّ والنوادر»[١٦].

٧- لم يرتِّب الثعالبي التراكيب المُضافة والمَنسوبة التي أوردها في هذا الكتاب ترتيبًا ألفبائيًّا، ولا حسب الأكثر شهرة، ولا حسب الأفصح، ولا ترتيبًا زمنيًا حسب الأقدم، وإنما رتَّبها ترتيبًا عشوائيًا.

وكان يبدأ الباب بذكر كل التراكيب المُضافة التي تندرج تحت عنوان هذا الباب، ثم يُفرِد فقرة خاصة لكل واحد منها على حدةٍ من أجل استكمال الشرح والتفسير والاستشهاد، فيكون بذلك قد اتَّبع أسلوب الإجمال ثم التفصيل.

٨-وكثيرًا ما تتوشَّى الأشعار، التي يسوقها الثعالبي كشواهد على استخدام التراكيب المُضافة في الشعر العربي بآراء وتقييمات ذوقية، وأحيانًا نقدية، إذ يُفاضِل بينها أيُّها أحسن؟ وأيُّها أشهرُ؟ وأيُّها أبلغ؟ كما في الأبيات التي ساقها عن بنت المنيَّة، فقال: «هي الحمَّى»، ويُقال: إنَّ أبلغ ما قيل في وصفها قول عبد الصمد بن المعذّل:

«وبنتُ المنيَّة تنتابني
هُدُوًّا وتطرُقُني سَحْرَه»

ثم قال: «ولم يزل شعر ابن المعذَّل أمير ما قيلَ في

١٤- يُنظر: أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، ج١، ص: ٣٢- ٣٣.

١٥- يُنظر: المصدر السابق نفسه، ج١، ص: ١١٨- ١١٩.

١٦- نفسه، ج١، ص: ١٤٤.

الحُمَّى حتى جاءت ميميَّة أبي الطيب فأربتْ عليه، وقد جعلها بنت الدهر في قوله:

أبنتَ الدهر عندي كلُّ بنت
فكيفَ وصلتِ أنت من الزّحام!»[١٧].

–ومن ذلك أيضًا تعليقه على الأبيات التي ساقها شواهد على قولهم: : «واو عمرو»[١٨]: التي تُضرب مَثَلًا لمَا لا يُحتاج إليه، فقال:

أول من ضَرَب المَثَلَ بها أبو نُوَاس، إذ قال لأشجع السّلميّ: (من الحفيف)

أيُّها المُدَّعي سُلَيمًا سَفَاهًا
لستَ منها ولا قُلامةَ ظُفرِ
إنما أنتَ من سُلَيم كواوٍ
أُلحقت في الهجاءِ ظُلمًا بعمرِو

وقال ابن بسّام:

خَلِّ عنّا فإنَّما أنت فينا
واوُ عمرٍو وكالحديثِ المُعاد

وأحسنُ ما سمعتُ فيه قول أبي سعيد الرُّستُميّ للصَّاحب بن عبّاد، من قصيدة (من الطويل):

أفي الحقِّ أن يُعطى ثلاثون شاعرًا
ويُحرَمَ ما دون الرِّضا شاعرٌ مثلي
كما ألحقت واوٌ بعمرٍو زيادةً
وضويقَ «بسم الله» في أَلفِ الوَصْلِ

ومنها أيضًا تعليقه على قول بعضهم عن «لسان حسّان»، الذي يُضرَب به المَثَل في الذَّلاقة والطُّول والحِدّة، فأوردَ قول بعضهم: من ظريف أمر حسّان أنه كان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جدًّا، ويغبِّرُ في وجوه الفحول، ويدّعي أن له شيطانًا يقول الشعر على لسانه كعبارة الشعراء في ذلك؛ فلما أدرك الإسلام، وتبدّل المَلَكُ بالشيطان، تراجع شعره، وكاد يَركُّ قوله، هذا ليُعلَمَ أنّ الشيطان أصلحُ للشاعر وأليقُ به، وأذهب في طريقه من المَلَك. وأنا أستغفر الله من هذا القول، فإني أكرهُهُ[١٩].

٩–ومما أضفى على كتاب الثعالبي أثرًا جماليًا، وزاد من حماس القارئ لمتابعته بابًا بابًا، أنه مفعم بالتشابيه اللطيفة والاستعارات المُوحية، وأنه يفيض بالكنايات والمجازات التي ولَّدتها لغة العرب ويقظة قريحتهم، فقد ساق الثعالبي كثيرًا منها، نذكر على سبيل المثال قولهم:

– «خطُّ الملائكة»: يُكنّى به عن الخطِّ الرديء ... ولمَّا كان خطّهم غير بيِّن للناس – وأجود الخطِّ أبينُه – قيل في الكناية عن الخطِّ الرديء: «خطّ الملائكة»[٢٠].

–«حَلوبة المسلمين»: من طريق الاستعارة: وهي فيئُهم وخَراجهم؛ يُقال: درَّت حَلوبة المسلمين، إذا جُبيت حقوق بيت المال»[٢١].

–«بَرْدُ الورد»: يُقال للبَرْد المستطاب: بَرْد الورد، وهو بَرْد الربيع، كما يُقال للبَرْد الكريه: بَرْد العجوز؛ وشتَّان ما بينهما!

ويُقال: «بَرْد الربيع مُورِق، وبَرْد الخريف مُوبِق»[٢٢].

–ومنها أيضًا قولهم: رأس المال، رأس العصا، وجه النهار، عين العلا، أنف الكرم، فم الفتنة، لسان الحال، جرح اللسان، أسنان المُشط، أُذن الحائط، أعناق الرياح، أيدي سَبَا، ظُفْر الزمان، كَلْكَل الدهر، سويداء القلب، ثمرة القلب، كبدُ السماء، حبل الوريد[٢٣].

١٧– يُنظر: نفسه، ج١، ص: ٤٣٠– ٤٣١.
١٨– نفسه، ج١، ص: ٢٦٥– ٢٦٦.
١٩– ينظر: أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، ج:١، ص: ٣٥٧– ٣٥٨.
٢٠– نفسه، ج١، ص: ١٣٤.
٢١– المصدر السابق نفسه، ج١، ص: ٢٨٧.
٢٢– نفسه، ج٢، ص: ٨٤٧.
٢٣– نفسه، ج١، ص: ٤٩٢.

ومنها أيضًا: لُعاب الشمس، نجوم الشيب، أنفاس الرياح[٢٤]، ريق الدنيا، صابون الهموم[٢٥].

١٠-لا تنبع أهمية التراكيب المُضافة والمنسوبة الواردة في هذا الكتاب، من مجرد أنها تجميع لأقوال العرب وأخبارهم، وتقييدها في كتاب يحفظها من النسيان والهجر، وإنما من كونها تنضح بعلم وحقائق ومعارف صحيحة توصَّل إليها العرب عن طريق الملاحظة والتجربة والحكمة، إذ نجد مثلًا أنه في الأبواب الخاصة بالبلدان يذكر لنا ما تشتهر به تلك البلدان حسب طبيعتها الجغرافية، وطبيعة مناخها وسكَّانها، مثل قولهم:

-كَتَّان مصر، تُفَّاح الشام، عُود الهند، سيوف الهند، بُرُود اليمن، ثياب مَرو، طرائف الصين[٢٦].

وفي الأبواب الخاصة بالحيوانات يذكر لنا أيضًا ما قيل وعُرِف من طبائع تلك الحيوانات وصفاتها، مثل قولهم:

-حرص الكلب، بخل الكلب، حنين الإبل، نواصي الخيل، خُيَلاء الخيل، أسنان الحمار، صبر الحمار، لسان الثور، جرأة الأسد، نكهة الأسد، داء الذئب، لؤم الذئب، نوم الذئب، حُمق الضَّبع، قُبح الخنزير، عين الظَّبي، رَوَغان الثعلب، عُقوق الضَّبِّ، خُبث العقرب، عضُّ النملة، شِراد النَّعام، زَهْوُ الذُّباب، وغير ذلك كثير.

وفي بعض الأقوال ينعطف باتجاه التاريخ، فيسرد لنا تاريخ الخبر والحكاية، كل ذلك يجعل هذا الكتاب قيِّمًا على الصعيد اللغوي والأدبي بالدرجة الأولى، وعلى الصعيد المعرفي بالدرجة الثانية.

هذه جملة من الملاحظ التي تتبدَّى لقارئ هذا الكتاب القيِّم، والمتأمِّل في حسن صنعته، وغنى موضوعاته، وعلوِّ مقاصده، وفي ختامها نسوق بعض الأمثلة التي انتقيناها من التراكيب المُضافة والمنسوبة اللطيفة التي يحظى فيها القارئ بفائدة جمة، وطرافة سرد تجلب المسرَّة، مثل قوله:

-«قوس الله»: هي التي يُقال لها: قوسُ قُزَح، ويُشبَّهُ بها ما يقلُّ لُبْثُه، ولا يدوم مُكثُه، كما قال العلويُّ الحمَّانيُّ:

فشبَّهتُ سرعةَ أيامهمْ
بسرعة قوسٍ يُسمَّى قُزَحْ
تلوَّن معترضًا في السماء
فما تمَّ ذلك حتى نَزَحْ

وفي الخبر، «لا تقولوا: قوس قُزح، ولكن قولوا: قوس الله: فإن قزح من أسماء الشياطين».

«ويجوز أنها سُميَّت بهذا الاسم، وأُضيفت إلى الله تعالى لأنّها من فعل الله، وقد سمّاها الوأواء الدِّمشقيُّ»: قوس السماء في قوله:

أَحسِنْ بيوم ترى قوسَ السماء به
والشمسُ مُشْفِرةٌ، والبرقُ خلَّاسُ
كأنها قوس رام، والبروق لها
رشقٌ السِّهام، وعين الشَّمس برجاس

وسمَّاها سيف الدولة: قوس السحاب في قوله:

تطرِّزها قوس السحاب بأحمر
على أصفر في أخضر إثر مُبْيَضِّ[٢٧]

-«وصيُّ آدم»[٢٨]: إذا كان الإنسان فضوليًّا داخلًا فيما لا يعنيه، متكلِّفًا ما لا يلزمه من التَّطفُّل على أمور

٢٤- نفسه، ج٢، ص: ٩٢٥.
٢٥- نفسه، ج٢، ص: ٩٣٨.
٢٦- يُنظر: نفسه، ج٢، ص: ٧٦٤.
٢٧- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: إبراهيم صالح، ج١، ص: ٧٧- ٧٩.
٢٨- نفسه، ج١، ص: ٩٧.

الناس، والتهالك في الاشتعال بها، قيل: فلانٌ وصيُّ آدم، وقد تُوضع هذه الصفة مكان المدح، كما قال الشاعر:

وكأن آدم حين حُمَّ حمامُهُ
أوصاكَ وهو يجودُ بالحَوْباءِ
ببنيهِ أن ترعاهم فرعيْتَهمْ
وكفيتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناءِ

-«تُحفَة إبراهيم»: هي اللحم، وقد استشهد الثعالبيّ للدلالة على استخدام هذه الاستعارة بما جاء في القرآن الكريم، وبما رُوِي من أقوال العرب، فذكر حادثة الشَّعبيِّ الذي زار صديقه، فقال له الرجل: «لا نتفرَّقُ إلا عن ذَواقٍ! قال الشعبيُّ: فأتحفْني بما عندك، ولا تتكلَّفْ لي ما لا يحضُرُك، فقال: أيُّ التحفتين أحبُّ أليك؟ تحفةُ إبراهيم أم تحفةُ مريمَ؟ قال الشَّعبيّ: أمّا تحفة إبراهيم فعهدي بها الساعة، وأريد تحفة مريم، فدعا له بطبقٍ من رُطبٍ.

وقد نُسب اللحم إلى إبراهيم لما جاء في قصته في القرآن الكريم: ﴿**فما لبثَ أن جاء بعجلٍ حَنِيْذٍ**﴾[سورة هو: ٦٩]، ﴿**فقرَّبه إليهم، قال: ألا تأكلون**﴾ [سورة الذاريات: ٢٧].

ونُسبَ الرُّطَب إلى مريم لقوله تعالى في قصتها: ﴿**وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾[سورة مريم: ٥٤][٢٩].

-«طُفَيل العرائس: ويُقال له: طُفيل الأعراس أيضًا؛ وهو من غطفان، ويُقال: إنه من موالي عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه، وكان يتتبَّع الأعراس، فيأتيها من غير أن يُدعى إليها. وهو أول من فعل ذلك، وإليه يُنسب الطُّفَيليُّون، وكان يقول: وددتُ أن الكوفة بركة مصهرجة، فلا يخفى عليّ من أعراسها شيء»[٣٠].

-ميتة أبي خارجة: سُمِعَ أعرابيٌّ يقول وهو متعلِّق بأستار الكعبة:

اللهمَّ ميتةً كما مات أبو خارجة، فقيل له: كيف كانت ميتةُ أبي خارجة؟ فقال: أكل بَذَجًا، وشرب مشعلًا، ونام شامسًا، فأتته منيتُهُ شبعان ريّان دفآن»[٣١].

-«حُمق هبنَّقة: من حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من وَدَعٍ وعَظْم وخَزَف، وهو ذو لحية طويلة، فسُئل عنها، فقال: لأعرف بها نفسي، ولئلَّا أضلَّ؛ فبات ذات ليلة، وأخذ أخوه قلادته فتقلَّدها، فلما أصبح رأى القلادة في عنق أخيه، فقال له: يا أخي إن كنتَ أنتَ أنا فمَن أنا!.

... ومن حمقه، أنه ضلَّ له بعيرٌ، فأخذ ينادي: مَن وجد بعيري فهو له؛ فقيل له: فلِمَ تنشدُه؟ قال: فأين حلاوة الوجدان!.

وكان يرعى غَنَمًا له، فيرعى السِّمان منها [في العشب]، وينحِّي المهازيل، فقيل له في ذلك، فقال: لا أفسدُ ما أصلحَ الله، ولا أصلحُ ما أفسدَ الله!»[٣٢].

-«حمار القصَّار»: «يُضرَب به المَثَل فيمن يحصل على الخَسْف وسوء القِرى، فيُقال: كان يوم فلان كيوم حمار القصَّار، إن جاع شَرِبَ، وإن عَطِشَ شَرِبَ»[٣٣].

-«كلب القصَّاب»: «يُضرَب مَثَلًا للفقير يُجاور الغنيَّ، فيرى من نعيم جاره وبؤس نفسه، ما تتنغَّصُ معه معيشتُهُ»[٣٤].

٢٩- المصدر السابق نفسه، ج١، ص: ١٠٦.

٣٠- نفسه، ج١، ص: ٢٠٥.

٣١- نفسه، ج١، ص: ٢٤٨.

٣٢- المصدر السابق نفسه، ج١، ص: ٢٥٤.

٣٣- نفسه، ج١، ص: ٣٨٥.

٣٤- نفسه، ج١، ص: ٣٨٥.

–«أبو الذِّبَّان: كُنِّي بذلك عبد الملك بن مروان لشدة بَخَرِه وموت الذِّبّان إذا دنت من فمه.

ويُحكى أنه عضَّ يومًا تُفّاحة، ورمى بها إلى بعض نسائه، فدَعَت بسكّين فقطعت موضع عضّته، فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: أُميطُ عنها الأذى، فطلَّقها من وقته»[٣٥].

–«زَهْو الذُّباب: قال الجاحظ: يُقال: أزهى من ذُباب، لأنه يسقط على أنف المَلِك الجبَّار وعلى موق عينيه ليأكله، ثم يُطرَد فلا يَنطرد.

وحُكيَ أن ذُبابًا وقع على أنف المنصور وهو يخطُبُ، فحرَّك رأسه ليطرده – وكان الخلفاء لا يحرِّكون أيديهم على المنابر– فطار حتى سقط على رأسه، فحرَّكها فطار حتى وقع على عينه، فحرَّك رأسه فطار حتى وقع على عينه الأخرى، حتى أضجره، فذبَّه بيده، فلما نزل سأل عمرو بن عبيد: لِمَ خَلَقَ الله الذُّباب. فقال: ليُذِلَّ به الجبابرة! ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وإن يسلبْهُمُ الذُّبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ضعُف الطالبُ والمطلوب**﴾»[سورة الحجّ: ٧٣][٣٦].

– «ابنا سمير»: العرب تقول: «لا أفعل ذلك ما سَمَرَ ابنا سميرٍ، وهما الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي»[٣٧].

– «ابنة الجبل»: «من أمثال العرب: هو ابنة الجبل، ومعناه الصدى يجيبُ المُتكلِّم بين الجبال، يقول: هو مع كل صوتٍ، كما أن الصدى يُجيبُ كلَّ ذي صوتٍ بمثل كلامه.

ويُقال: كبنت الجبل، مهما تَقُل تَقُل؛ (يُضرب مثلًا للإمّعة التابع).

٣٥– نفسه، ج١، ص: ٣٩٣.

٣٦– المصدر السابق نفسه، ج٢، ص: ٧٢٥.

٣٧– نفسه، ج١، ص: ٤٢٤.

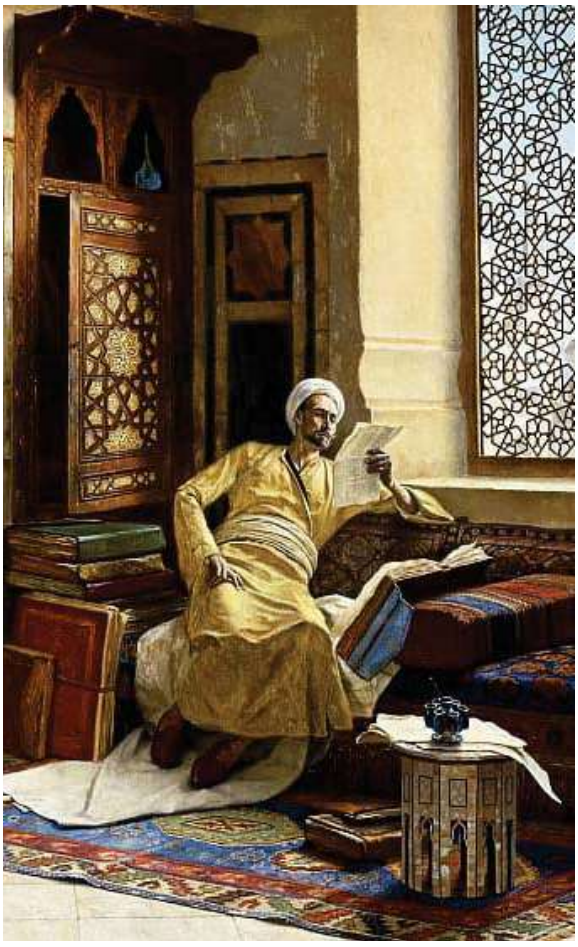

ويُقال: إنّ ابنة الجبل الحَيَّةُ أيضًا...»[٣٨].

نكتفي بهذه الباقة المنتقاة من ثمار الثعالبي وزهور العربية، التي تأنس بها النَّفس، ويميل إلى سماعها القلب، وفي المجمل ندين للثعالبي على ما قدَّمه في هذا المؤلَّف من تجميع لأقوال العرب، وأمثالهم السائرة، وأشعارهم البليغة، وأخبارهم الطريفة، فلم يكن هدية لأبي الفضل الميكالي فحسب، وإنما هدية لأبناء العربية وأهلها على مرِّ العصور، فنأمل أن نكون قد عرَّفنا بهذا الكتاب، وبالجهد الذي بذله الثعالبي في إنجازه خير تعريف يوفي المؤلِّف حقَّه، ويروي للمتلقِّي ظمأه.

٣٨– نفسه، ج١، ص: ٤٢٨.

نَظَرَاتٌ في دِيوَانِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي (ت ٣٥٤هـ)

بشَرْحِ الوَاحِدِيّ (ت ٤٦٨هـ)

د. إبراهِيم محمَّد المحمود *

* باحث في شؤون التُّراث العربيّ وتحقيق نصوصه.

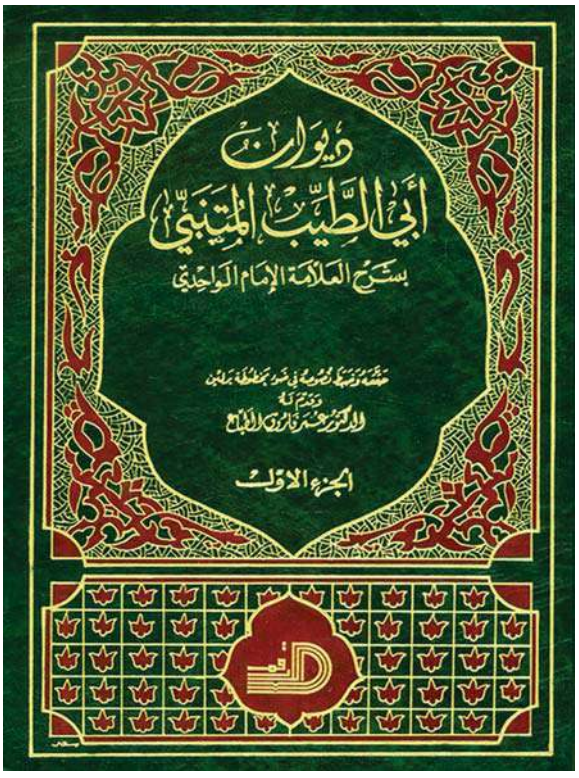

ديوَانِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي (ت ٣٥٤هـ)
بِشَرْحِ الوَاحِدِيّ (ت ٤٦٨هـ)

أبـو الطَّيِّـب المُتَنَبِّـي[١]: أَحْمَدُ بـنُ الحُسين بن الحَسَن بن عَبْد الصَّمَد الجُعْفِيُّ الكِنْدِيُّ الكُوفِيُّ (٣٠٣–٣٥٤هـ). الشّاعـرُ المفَنُّ الَّـذي اكتَنَزَ شِعْـرُهُ بالجَمَال والجَـلَال، واغتَنَـى باللُّغـة والبَلاغـة وكَثير مـن فُنون العربيَّة؛ فقد «**اشتغلَ بفُنُونِ الأَدَبِ ومَهَرَ فيها، وكانَ من المُكْثرينَ من نَقْلِ اللُّغة والمطَّلعينَ على غَريبِها وحُوشِيِّهـا، ولا يُسألُ عن شَـيْءٍ إلَّا واستَشْهَدَ فيه بكَلامِ العَرَبِ من النَّظْمِ والنَّثرِ**[٢]».

وما يَـزالُ مالِئُ الدُّنيـا وشاغلُ النّاسِ يَمْـلأُ الآفاقَ بشِعْـرِه، ويَشْغَـلُ الخَلْـقَ في تَفْسيرِ ظواهِـرِه، وتَأْويلِ مُشْكِله. ولم يُشرَحْ ديوانُ شاعرٍ في الجاهليَّةِ والإسلامِ كما شُرِحَ ديوانُ المتنبي[٣].

ولا يَخْفَـى على كَثيرٍ من أَهْـلِ الأدَبِ واللُّغة تلك المكانةُ السَّامقَـةُ الَّتي كانَـتْ لأَبي الطَّيِّب المُتَنَبِّـي، وذلك الإبْدَاعُ والجَمَالُ في شِعْرِه. وقد طَرَقَ شاعرُ العَرَبيَّة مُعْظَمَ أغراض الشِّعْر، فَنَظَمَ في المَدْحِ والرِّثَاءِ والهِجَاءِ وغَيْرِ ذلك.

وأمَّـا **شَـرْحُ ديـوَانِ المُتَنَبِّـي لِلْواحِـديِّ** عَلـيِّ بـنِ أَحْمَـدَ بْنِ مُحَمَّـدِ بْنِ عَلـيٍّ النَّيْسَابُـوريِّ الشَّافعيِّ (ت٤٦٨)[٤] فهو شَـرْحٌ جَليلٌ يُمَثِّلُ مَرْحلةً وُسْطَى بينَ الشُّـرُوحِ المُطَوَّلـة كالفَسْر، وبَيْنَ الشُّـرُوحِ المُقْتَضَبَة أو تلكَ الَّتـي اقتصَرَتْ على تَفْسيرِ الأَبْيـاتِ المُشْكِلَة، كَتَفْسيرِ أَبْيَـاتِ المعاني لأبي المُرْشِدِ المَعَرِّيّ، وقد سارَ الواحِـديُّ في شَرْحِـه لِديـوَانِ الشَّاعـرِ علـى التَّرتيـبِ التّاريخيِّ للقصائد، لا على التَّرْتيبِ الأَلفْبائيِّ للقَوَافي.

وشَرْحُ الواحِديِّ شَـرْحٌ غَنِيٌّ نَفيسٌ ليسَ بالمُفَصَّل المُتَطـاول، ولا هو بالوَجيـزِ المُتَضائل، وهذا مَنْهَجُهُ الَّذي أَلْمَحَ إليه في مُقدّمَته؛ إذ قال: «**ومِن حقِّ المصنِّفِ أنْ يكونَ كلامُهُ مقصورًا على المقصودِ بكتابه، وما يتعلَّـقُ به مـن أسبابه، غيرَ عـادلٍ إلى ما لا يحتاجُ إليه، ولا يعرِّجُ عليه**». وهو كما قال؛ إذ شَرَحَ الأبياتَ الواضِحَةَ المعـاني شَرْحًا يَسيرًا، وثَمَّـةَ عَدَدٌ يَسيرٌ من الأبيـات كانَ قـد تَجاوَزَهـا لِوُضُوحها. وأمَّـا الأبياتُ التـي تَحْتاجُ إلى إيضاحٍ وتأويلٍ فقد بَسَطَ الكلامَ فيها، ونَقَلَ أقوالَ الأئمَّة فيها، مع شَيْءٍ من النَّقْدِ فيما ذَهبُوا إليـه، وغَيْرِ قَليلٍ من الثَّناء على ما ظَهَرَ له ممَّا لم يَظْهَرْ لِغَيْرِه في تَفْسيرِ الأبياتِ على الوَجْهِ الَّذي يُرْضَى.

١– انظـر ترجمته في: يتيمة الدهر ١ / ٩٣١، وتاريخ بغداد ٥ / ٤٦١، وتاريـخ دمشق ١٧ / ٦٧، ونزهة الألبـاء ٩١٢، ووفيات الأعيان ١ / ٠٢١، وتاريخ الإسلام ٨ / ٥٦، وسير أعلام النبلاء ٢١ / ٥٥٢، والوافي بالوفيات ٦ / ٨٠٢، ولسان الميزان ١ / ٠٤٤، والأعلام ١ / ٥١١، وغير ذلك كثير.

٢– وفيات الأعيان ١ / ٠٢١.

٣– انظر الصبح المنبي ١ / ٤٢٤.

٤– صاحـب التصانيـف المشـهورة: أسبـاب النـزول، وتفاسـير القـرآن الكـريم: البسيـط، والوسيـط، والوجيز، وغير ذلـك كثير. من مصـادر ترجمتـه: معجـم الأدبـاء ٩٥٦١، ووفيات الأعيـان ١ / ٠٢١، وتاريـخ الإسلام ٠١ / ٤٦٢، وسـير أعلام النبـلاء ٨١ / ٩٣٣، والوافي بالوفيات ٠٢ / ١٠١.

وقَد اشْتَمَلَ شَرْحُ الواحِديِّ إلى جانبِ تَفْسيرِ مَعاني أبياتِ أبي الطَّيِّبِ على جُمْلةٍ صالحةٍ من مسائلِ العربيَّةِ، وشواهدَ شِعْريَّةٍ مَشْهُورةٍ في مُعْظَمِها، وبَعْضُها نادرٌ لا تَكادُ تَجِدُهُ إلَّا عِنْدَه، أو عِنْدَ صاحبِ التِّبْيانِ الَّذي اقْتَفَى قَفْوَ الواحديِّ في شَرْحِه؛ سَواءٌ أَذْكَرَ ذلكَ عنه تَصْريحًا أمْ سَكَتَ عَنْه، وكثيرًا ما فَعَل.

وقد حَفِظَ لنا هذا الشَّرْحُ أَيْضًا نُقولًا كثيرةً عن ابْنِ جِنِّي (ت٣٩٢ هـ)، وابنِ فُورَّجَة (ت٤٥٥هـ)، ومِن هؤلاءِ مَنْ لم تَصِلْ إلينا شُرُوحُهم لأَبْياتِ أبي الطَّيِّب؛ كأبي بَكْرٍ الخُوَارِزْمِيِّ (ت٣٨٣هـ)، وأبي الفَضْلِ العَرُوضِيّ (ت بعد ٤١٦هـ)، وابنِ دُوسْت (ت٤٣١هـ).

ولشَرْحِ الواحديِّ نَشْرتانِ مُتداولتانِ بينَ النّاسِ: أَقْدَمُهُما نَشْرةُ برلين بعنايةِ ديتريصي (١٨٦١م)، ثم نَشْرةُ دار الرائد العربي (١٩٩٩م) الَّتي نَشَرَها مُحَقِّقاها عن النَّشْرةِ الأولى، وكلاهُما لم يُنشَرْ عن أَصْلٍ مخطوط[٥]. ومِنْ توفيقِ اللهِ إيَّايَ أني وَقَفْتُ حديثًا على مخطوطٍ لهذا الشَّرْحِ حَمَلَني على المُضِيِّ قُدُمًا في إخراجِه بِحُلَّةٍ جَديدة.

هذا وكنتُ قد مضيتُ في تحقيقِ هذا الشَّرحِ قبلَ أن أَطَّلِعَ على نَشْرةِ دارِ الرّائدِ العربيِّ ببيروت، ثمَّ إنِّي لما رأيتُ هذه النَّشرةَ التي صدرتْ عامَ ١٩٩٩، وعُنِيَ بتحقيقِها الدكتور ياسين الأيّوبيّ والدكتور قُصَيّ الحسين؛ أصابَني الفُتورُ بادئَ ذي بَدْء؛ لأنَّ ما انتهى إليَّ قبلَ ذلك أنَّ نشرةَ ديتريصي هي الوحيدةُ المعتمدةُ لهذا الشرح. ثمَّ صحَّ منِّي العَزْمُ مرّةً أخرى على مُتابعةِ عملي لما رأيتُ ما اعترى نشرةَ دار الرّائد من تحريفاتٍ وتصحيفاتٍ وأسقاطٍ وسهاء.

وما أَثبتُّهُ من استدراكاتٍ هي محصّلةُ معارضةِ النُّسختين من دونِ النَّظرِ في الأصلِ المخطوطِ الّذي ظفرتُ به فيما بعدُ. وقد كشفَ الأصلُ أيضًا عن فُروقٍ أخرى ذاتِ شأنٍ سيراها الناظرُ في شرحِ الدِّيوانِ بعد نَشْرِه بإذنِ الله.

ومِمَّا حَمَلَني على تحقيقِ هذا الشَّرحِ بعد نشره أشياءُ، منها:

– أنه صَدَرَ ١٩٩٩، وقد صدرَ بعد هذا التاريخ كثيرٌ من الكتبِ التي بُنِيَ عليها هذا السِّفْرُ الجَليلُ يأتي على رأسِها كتابُ (الفسر)، وهو أكثرُ المصادرِ التي نَقَلَ عنها الواحديُّ مُصرِّحًا وغيرَ مُصرِّح، فلم تُوثَّقْ نُقولُ ابنِ جنِّي من كتابه، ولم يَجْرِ تَتَبُّعُ كلامِ الواحديِّ فيه. وما أكثرَ الكلامَ الذي وجدتُهُ في الواحديِّ هو في أصلِه كلامُ ابنِ جنِّي!

– نُقُولُ ابنِ فُورَّجة –وما أكثرَها!– لم تُخرج من كتابَيْه: التّجنِّي على ابنِ جنِّي، والفَتْحِ على أبي الفَتْح.

– ليس هناك تتبُّعٌ للرِّواياتِ التي يذكُرُها الواحديُّ في شعرِ المتنبِّي، وما أكثرَها! وقد حرصْتُ على تخريجِها من المصادرِ التي عنيت بشرحِ شعرِ أبي الطَّيِّب.

– ثمّةَ دواوينُ شعريةٌ كثيرةٌ طُبعتْ بعد ١٩٩٩ حتى يومِ النّاسِ هذا، وقد عزوتُ كثيراً من الشِّعرِ مما لم يُخرَّجْ من مَظانِّه، والمحققانِ الكريمانِ مَعْذوران في ذلك.

– ثمّةَ أسقاطٌ تنوَّعَتْ بينَ الحرفِ والكلمةِ والسَّطر، بل وصلَتِ الأسقاطُ لتَشملَ أَسْطرًا متتابعة. إضافةً إلى اضطراباتٍ في ترتيبِ بعضِ الأبياتِ وشُروحِها.

هذا وثَمَّةَ ملاحظاتٌ مفصَّلةٌ ستأتي تباعًا بعد قليل.

وجديرٌ بالذِّكر أنَّ هذه الملاحظَ قد عُلِّقتْ على قسمٍ من طبعةِ الرّائد، لا على الكتابِ كلِّه؛ إذ إنِّني وقفتُ على المطبوعةِ كما ذكرتُ بعدَ مدَّةٍ لا بأسَ بها من عملي في تحقيقِ الكتاب، وما يزالُ أمامي تحقيقُ الجزءِ الأخيرِ من هذا الشرح. على أنَّ هذه الملاحظَ لا تَغُضُّ من الجهدِ الكبيرِ المبذولِ في خدمةِ الكتاب.

٥– ذكر المحققان في مقدمة تحقيقهما ص ١٣ أنّ شرح ديوان المتنبي للواحدي طبع طبعة حجرية في الهند عام ١٨٥٤م، وطبع في بولاق أيضًا عام ١٢٧٨ هـ.

وقـد خصصـتُ **القسمَ الأوّلَ** من هذه الملاحـظِ للأسقاطِ الواردةِ في طبعةِ الرائد وهـي ثابتة في طبعة ديتريصي، وأفردتُ **القسمَ الثاني** للأخطاءِ في قراءة النصِّ وما اكتنفَ ذلك من تصحيفاتٍ وتحريفاتٍ وزياداتٍ وخَلْطٍ بينَ الشِّعر والنَّـثر، وجعلتُ **القسمَ الثالثَ** للأخطاءِ في ضبطِ الألفاظ، وقَصَـرْتُ **القسمَ الرابعَ** على ملاحظاتٍ عامّةٍ تَخُصُّ عملَ المحقِّقَيْنِ من حيثُ التَّخريجُ وخدمةُ النَّصّ.

أولًا: الأَسْقاط

رقم الصفحة	السطر	ملاحظات
٤٥٨	٩	سقط كلمة «يحوم» من قوله: حَامَ الطَّيْرُ حولَ الماءِ [يَحُومُ] حَوْمًا.
٥٣٦	٢	سقطـت كلمـة «نطق» الثانية في قوله : «يَقُول: إنَّمَا يَتَفَكَّرُ لِيَعْلَـمَ ويَجْتَهَدَ في الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ، فإذَا نَطَقَ نَطَقَ بِالحِكْمَةِ».
٦١٨	١٠	سقطت «لا»: في قوله : «حتى [لا] تَمُسّاها».
٧١٨	٣	سقطت كلمة «مشتبكة» من قوله «ذُو طَرِيقٍ [مُشْتَبِكَةٍ] مُخْتَلِطَة».
١٠٢٣	٩	سقط سطر كامل من انتقال النظر. وهو قوله: «والصَّحِيحُ بخشيتك». والذي في مطبوعة ديتريصي: «والصَّحِيحُ [في هـذا البَيْتِ رِوَايَة من روى: «فَمَا خَاشِيكَ لِلتَّثْرِيبِ رَاجٍ»، أَيْ: من خشيتك لم يخف أن يثرِّب ويعثِّر] بخشيتك».
١٠٢٨	١١	سقطت بعد بيت أبي تمام كلمتان هما [ومثله كثير].
١٢٤٥	١٣	سقطت كلمة «ويُهْلِكُوكَ» في قوله : «يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَغْلِبُوكَ [ويُهْلِكُوكَ]».
١٢٧٧	٧	سقط سطر كامل [بيت شعر] من انتقال النظر.
١٣١٠	٧	سقطت كلمة «تمطر» في قوله : «فَكأَنَّكَ غَيْثٌ [تُمْطَرُ] علينا».
١٣٧٨	١٠	سقط من بيت كثير معظمه (إنَّه×مَتَى تُذْكَرَاهُ الْحَاجِبِيَّةَ)، وهو قوله: مَتَى تُذْكَرَاهُ الحَاجِبِيَّةَ] يُحْزَنِ فَلَا تُذْكَرَاهُ الحَاجِبِيَّةَ [إنَّهُ
١٤٣٨	٩	ولمْ يَعْـرِفِ ابـنُ جِنِّي مَعْنى هذا البَيْـتِ، ولا ابنُ فُورَّجَةَ أَيْضًا؛ فإنَّهُ تَخَبَّـطَ في تَفْسيرِ هذا البَيْتِ في كِتَابَيْهِ جَمِيعًا؛ لأَنَّهُ لمْ يَعْلَمْ أَيْش [الدَّاءُ الَّذي غَفَلَ عنهُ بُقْراطُ فلمْ يَذْكُرْهُ في طِبِّه]. سقط ما بين حاصرتين، وهو مثبت في المطبوعة.
١٥٠٣	٣	سقط البيت الثامن من القصيدة، وهو مرتبط بما قبله؛ إذ قال: وقدْ بَيَّنَ هذا المعنى في البَيْتِ الثّاني، فَقال: [سَقَتْها الغَمَامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِه فَلَمّا دَنَا منها سَقَتها الجَماجِمُ]
١٥١٠	٤	سقطت «كأنك» من قوله: «لأنّكَ [كأنَّكَ] تَعْرِفُ ما تَصِيرُ إليه».

١٥٨٠	٧	سقط [البيت ٢٥ مع شرحه]. وهو قوله: [وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْوًا * ذَاتُ خِدْرٍ أَرَادَتِ المَوْتَ بَعْلا يقـول: المـرأةُ الشَّريفةُ إذَا لمْ تَجِدْ لها كُفْوًا من النّاسِ أَرادَتْ أنْ يكونَ الموتُ لها كَالبَعْلِ؛ لأنَّها إذَا عاشَتْ وَحْدَها لمْ تَنْتَفِعْ بالدُّنْيا وبِشَبابِها، فاخْتارَتِ الموتَ على الحيَاة].
١٧٣٥	٣	سقط كلمة «غلبها» من قوله: «وقَبْلَ الوُصولِ [غَلَبَها] بُعْدُ الطَّريقِ».
١٧٥٢	١٠	سقط شرح البيت السادس كاملًا. وهو قوله: فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ [أي: لو كانَ الّذي أَشْكُوهُ من الغَدْرِ بي كانَ من امْرَأةٍ عَذَرْتُها؛ لأنَّ شِيمةَ النِّساءِ الغَدْرُ، ولكنَّهُ من رَجُلٍ. والمُعَمَّمُ: كِنايةٌ عن الرَّجُل؛ لأنَّ المرأةَ لا تَتَعَمَّمُ].
١٧٧٠	٨	سقط شرح البيت ١٥ مع البيت ١٦. وهو قوله: [أي: وبمثْـلِ هـذا الرَّأْيِ أَطاعكَ النّاسُ والرِّجالُ الّذيـنَ كأنَّهم أُسُودٌ مع أنَّ الأُسُودَ لَيْسَ من خُلُقِها الدُّخُولُ تَحْتَ الطَّاعة. إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالأَبُ القَا طِعُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الأَوْلَادِ].
١٨٧٤	٩	سقط ما بين حاصرتين كالمُقامِرِ يَضْرِبُ بالقِمَارِ: إمَّا [لِلغُرْمِ، وإمَّا] لِلغُنْمِ.

ثانيًا: الأَخْطاء في قراءة النَّصّ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٥٤	٣	النِّجَاد: حمَّالة السيف، كذا ضُبطت.	النِّجَاد: حِمَالة السَّيْف.
٤٥٨	١٦	لا عليك فيه.	وضـع نقطة لازمة بعـد لا عليك. لأن الواحدي قد شرع في شرح كلمة «فيه».
٤٥٩	١	زاد المحققـان بين حاصرتين كلمـة [القاطعة]، ولم يبيِّنا مسوِّغ الزيادة أو مصدرها.	النص مستقيم من غير زيادتها.
٦٨١	٢،١	جَرَاعَة	جَرَاءَة
٧٩٠	٩	والنّاسُ أبدًا يَنْحنونَ نَحْوَه.	والنّاسُ أبدًا يَنْحَوْنَ نَحْوَه.
٨٠٠	٧	«ثَنَاكَ» في بيت المتنبي: مَا دَارَ فِي الحَنَـكِ اللِّسَانُ وَقَلَّبَتْ × قَلَمًا بِأَحْسَنَ مِنْ ثَنَاكَ أَنَامِلُ	صوابها – في الواحدي– نَثَاكَ، ويؤيِّده شرحُ اللفظة في السطـر ٩. و«ثنـاك» رواية المعجـز ٢ / ٢٨٨. قال ابن فورجة في الفتح ٢٦٤: «ولقائل أن يقول: لو أراد ذلـك لقال: «ثنائك»؛ لأن مدحه إيـاه ثناءٌ، وليس ثناءً قـط؛ لأن النَّثـا: الخبر، خيرًا كان أو شـرًّا؛ إلا أنه لم يقصر ممدودًا في شعره بتَّةً إلا في موضع واحد».

٨٣٧	٩	لم يُدَوَّرْ قول ابن الرومي: كَضَمِيرِ الْفُؤَادِ يَلْتَهِمُ الدُّنْيَا * وَيَحْوِيهِ دَفَّتَا حَيْزُومِ	كَضَمِيرِ الْفُؤَادِ يَلْتَهِمُ الدُّنْـ × يَا وَيَحْوِيهِ دَفَّتَا حَيْزُومِ
٨٥١	٦	«والقُوَى: جَمْعُ القوي».	«والقُوَى: جَمْعُ القُوَّة».
٨٨٩	٥	لم يُدَوَّرْ في قول المتنبي: كُلُّ شِعْرٍ نَظِيرُ قَائِلِهِ فِيكَ × وعَقْلُ المُجِيزِ مِثْلُ المُجَازِ	كُلُّ شِعْرٍ نَظِيرُ قَائِلِهِ فِيْ × كَ وعَقْلُ المُجِيزِ مِثْلُ المُجَازِ
٩١٢	١٥	يجُوزُ عندَ الكُوفِيِّينَ وعِنْدَ البَصْرِيِّينَ، إذَا سُمِّيَ بِأَعْجَمِيٍّ ثُلَاثِيٍّ انْصَرَفَ	يَجُوزُ عِنْدَ الكُوفِيِّينَ. وعِنْدَ البَصْرِيِّينَ إذَا سُمِّيَ بِأَعْجَمِيٍّ ثُلَاثِيٍّ انْصَرَفَ
٩٤٠	٥	لم يُدَوَّرْ في قول المتنبي: لَيْتَ لِي مِثْلَ جَدِّ ذَا الدَّهْرِ فِي الأَدْ * هُرِ أَوْ رِزْقِهِ مِنَ الأَرْزَاقِ	لَيْتَ لِي مِثْلَ جَدِّ ذَا الدَّهْرِ فِي الأَدْ × هُرِ أَوْ رِزْقِهِ مِنَ الأَرْزَاقِ
٩٤٦	١٣	لنجم ..	رواية البيت في ط. ديتريصي: إلى النجم
٩٤٦	٨	زيدت «لا» قبل لأن هدب	زيادة لا لزوم لها، وهي ليست في ط. ديتريصي
٩٦٩	١١	العِشْق	العِتْق
٩٨٧	٦	وكانَ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ الأَعْوَرُ يَقُولُ: القِيَادَةُ في غَيْرِكَ كَسْبٌ، وأَنْتَ تَتَكَرَّمُ بِهَا تَظُنُّهَا كَرَمًا.	وكانَ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمَ الأَعْوَرَ. يَقُولُ: القِيَادَةُ في غَيْرِكَ كَسْبٌ، وأَنْتَ تَتَكَرَّمُ بِهَا تَظُنُّهَا كَرَمًا.
١٢٨٦	٤	الشاكد: المُعْطِي. ابْتَدَأَ يقول:...	الشَّاكِدُ: المُعْطِي ابْتَدَاءً. يقول: ....
١٢٩٦	١١	كَانَ الرَّدَى أَسْرَعَ إليه	فكَأَنّ الرَّدَى أَسْرَعَ إليه
١٢٩٩	١٢	بيت أبي تمام: لو اسـ (م) تطاعوا	صوابه: لو اسطا (م) عوا
١٣٢٣	٤	عَملَتْه رُدَيْنِيَّة	عَملَتْهُ رُدَيْنَةُ
١٣٢٣	٧	يُرِيدُ فَرَسًا أُنْثَى لها مُهْرٌ كَرِيمٌ خَالٍ، ذلكَ المُهْرُ في الشَّرَفِ دُونَ عَمِّهِ.	يُرِيدُ فَرَسًا أُنْثَى لها مُهْرٌ كَرِيمٌ، خَالُ ذلكَ المُهْرِ في الشَّرَفِ دُونَ عَمِّهِ.
١٤٠٦	١٣	وأَمْرَكَ، أيْ: مِنْ أَمْرِكَ	تحريفٌ، صوابُه ما ورد في: المعجز ٣ / ٣٢٥، والتبيان ٢ / ٩٣: وأَمْرَك: نُصِبَ بفعلٍ مُضْمَرٍ، أيْ: مُرْ أَمْرَكَ.

١٧٣٩	٧،٨	تَجُرُّ القَنَا الخَطِّيَّ حَوْلَ قِبَابِهِ * وَتَرْدِي بِنَا قُبُّ الرِّبَاطِ وَجُرْدُهُ أي: تَخْدُمُهُ أَيْنَما نَزَلَ ونُصِبَتْ قِبَابُه.	صُحِّف «نَجُرُّ» إلى «تَجُرُّ»، فصُحِّف في الشرح « نَخْدُمُهُ» إلى «تَخْدُمُهُ». ووجه الكلام: نَجُرُّ القَنَا الخَطِّيَّ حَوْلَ قِبَابِهِ * وَتَرْدِي بِنَا قُبُّ الرِّبَاطِ وَجُرْدُهُ أي: نَخْدُمُهُ أَيْنَما نَزَلَ ونُصِبَتْ قِبَابُه.

ثالثًا: الأخطاء في ضَبْطِ النَّصّ

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٣٧	٤	سكرانٍ	سكرانَ
٥٤٢	١	وقال يَمْدحُ عليًّا بن منصور الحاجب	نصب «عليّ» من غير تنوين، وكذا هو في المطبوعة على الصواب
٦٨٢	٨	أناملهُ	أناملهْ
٦٨٢	٥	الطلَبات	الطلِبات
٧٥٨	٧	ريبَ	ريبُ
٧٨٨	٦	والشَّاكِلُ: الَّذي يُشْكِلُ الكِتَابَ.	يَشْكُلُ
٩٠٨	٤	صَافَحَ مِنْهَا الْجُسُومُ	= الْجُسُومَ
١٠٠١	١٢	بعد غَيْرِ هَجْرِك	بُعْدٌ غَيْرُ هَجْرِك
١٠٠١	٥	وأراد: بمعنى أذاب	وأرارَ: بمعنى أذاب
١٠٣٨	٤	ويروى حِيرَهُ.	والصواب ويُرْوَى: «حِبْرَهُ».
١٠٤٢	١١	مخزم	صوابه محزم
١٢٠٦	١٤	واحِدُها: لُغْدُود	واحِدُها: لُغْدُودٌ.
١٤٠٧	٦	فلوْ هَلَكْتَ بَطُلَ ذلكَ كُلُّهُ	فلوْ هَلَكْتَ بَطَلَ ذلكَ كُلُّهُ
١٤٥٨	٩	أَخْرَجَهُ مَخْرَجَ «لابنٍ» وَ«تامرٍ»	صوابه: أَخْرَجَهُ مُخْرَجَ
١٥٠٤	٤	سُلبَتِ الليالي	صوابه: سَلَبَتَ الليالي؛ وفقًا للرواية التي يفسرها الواحدي
١٧٩٨	٩	خطأ في ضبط الشعر: أَبْلَى الأَجِلَّةَ مُهْرِي	أَبْلَى الأَجِلَّةَ مُهْرِي

رابعًا: ملاحظاتٌ عامّةٌ على عمل المُحقِّقَين

رقم الصفحة	السطر	الملاحظة	الاستدراك
٤٥٢	٧	قول الشاعر: وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ العُمْرِ فَائِتٌ .... ذكر المحققان في الحاشية أنهما لم يجدا صاحبه.	هو صدر بيت للمتنبي في ديوانه ٤٥٩. وعجز البيت قوله: فَجُدْ لِي بِحَظِّ البَادِرِ المُتَغَنِّمِ
٤٥٥	حاشية ٢٣	ذكر المحققان أن أبيات علي بن جبلة الأربعة لم يرد منها إلا الأول والثاني في الديوان.	قد وردت جميعها فيه.
٤٥٦	حاشية ٢٦	وهذا كَقَوْلِ الطَّائِيّ: مَضَوْا وَكَأَنَّمَا المَكْرُمَاتُ لَدَيْهِم لِكَثْرَةِ مَا أَوْصَوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ ثُمَّ قَلَبَهُ فَقال: كَرَمٌ تَدِينُ بِحُلْوِهِ وَبِمُرِّهِ فَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنَ التَّوْحِيدِ وقد ذكر المحققان أن البيت الثاني في ديوان أبي تمام ١ / ٣٩٣، وهي قصيدة مدحية. وهي إحالة غير صحيحة.	الذي في هذا الموضع من شرح الواحدي لا يشترك مع ما أحالا عليه إلا في كلمة «التوحيد». والواضح من السياق أن أبا تمام قلب المعنى من المدح إلى الذّمّ. والبيت في ديوانه ٤ / ٣٤٥، والمستوفى من شعره ٢ / ٣٤٤، برواية: لُؤْمٌ تَدِين.... وهو في أخبار أبي تمام ٥٠، برواية: بُخْلٌ تَدِين...، ولعلّ ما يرجح في نفسي أن كلمة «كرم» في المطبوعة قد حُرّفت عن: لؤم.
٤٥٨		عَقَدُوا النَّوَاصِيَ لِلطِّعَانِ فَلَا تَرَى * فِي الخَيْلِ إِذْ يَعْدُونَ إِلَّا أَنْزَعَا ذكر المحققان أنهما لم يجدا البيت.	هو في: الفسر ٢ / ٩٤٩، والتبيان ١ / ٣٦١. والتبيان من مصادرهما.
٥٦٣	٩	ورد شرح البيت ٣٠ قبل البيت، وليس كذلك في المطبوعة	
٦٣٠	٨	شعر سيق على أنه نثر، ونحو ذلك ص ٦٣١ س١، و٦٣٨ س١٨، و٩١٣ س ١،٢	

٩٣٧	٤،٥	أثبت شرح البيت الثاني من القصيدة قبل البيت نفسه	موضع الشرح بعد البيت
٩٩٠	حاشية ٢	ذكر المحققان أنهما لم يجدا صاحب الرجز الوارد في المتن	ليس رجزًا، بل هو عجز بيت من الطويل، وهو بيت حماسيّ لم يُسَمَّ قائلُه. وروايته: «بِأَنَّ بَنِي أَسْتَاهِهَا..»، بالجمع. وصدر البيت: وَلَا غَرْوَ إِلَّا مَا يُخَبِّرُ سَالِمٌ .... والبيت في: المذكر والمؤنث ١ / ١٧٩، والحماسة ٣٥٥، وشرحها: للفارسي ٣ / ١٤٦، وللتبريزي ٢ / ١٤٤. وعجزه في: المآخذ ٥ / ١٥٥ عن الواحدي.
١٢٨٤	٥	كَقَوْله: تَجَمَّعَتْ في فُؤَاده همَمٌ * ملْءُ فُؤَاد الزَّمَان إِحْدَاهَا فَإِنْ أَتَى حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ * أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَان أَبْدَاهَا كتب المحققان في الحاشية «لم نجد قائلهما».	هما للمتنبي في ديوانه ٥٥٥.
١٢٩٢	١٠	قدم البيت الثالث من القصيدة عن موضعه. وموضعه في المطبوع بعد شرح البيت الثاني	
١٤٠٥	حاشية ٣	البيت غير مَعْزوٍّ في الوساطة ٣٥٢	بل هو مَعْزوٌّ في الوساطة ٣٥٢ لعِمران بن حِطان
١٤١١	٦	وتَأْخُذُهُ عِنْدَ المَكَارِمِ هِزَّةٌ	صدر بيت من الشعر مر على أنه نثر. وعجز البيت قوله: كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ البَارِحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ
١٥٩٦	٩	خلل في ترقيم الأبيات وتقديم المتأخِّر منها على المتقدِّم.	
١٦٤٠	١	نقلت القصيدة رقم ٢٣٧، وهي من السيفيات إلى الكافوريات في الجزء الرابع، مع أنها في موضعها في ط. ديتريصي والمخطوط	

فهرس المصادر والمراجع

١- أخبار أبي تمام للصولي، تحقيق بياتريس جريندلر، المكتبة العربية، ٢٠١٥م.

٢- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٣- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي، تحقيق د. بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.

٤- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، تحقيق د. بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٥- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

٦- التِّبيان في شرح الديوان المنسوب لأبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السَّقّا وصاحبَيْه، دار المعرفة، بيروت.

٧- الحماسة لأبي تمام، تحقيق عبد الله عسيلان، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، ط١، ٢٠١٤م.

٨- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة.

٩- ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي، تحقيق د. عبد الوهاب عزّام، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٠- ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي بشرح الواحدي، تصحيح فريدرك ديتريصي، نشرة برلين، ١٨٦١م. ونشرة أخرى تحقيق د. ياسين الأيوبي، ود. قصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١١- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٢- شرح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي (معجز أحمد) المنسوب إلى أبي العلاء المعري وليس له البتّة، تحقيق د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٣- شرح ديوان الحماسة للتبريزي، دار القلم، بيروت.

١٤- شرح كتاب الحماسة لزيد بن علي الفارسي، تحقيق د. محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت.

١٥- الصُّبح المُنبي عن حيثيّة المتنبِّي ليوسف البديعي، المطبعة العامرة، ط١، ١٣٠٨هـ.

١٦- الفتح على أبي الفتح لابن فورَّجة، تحقيق عبد الكريم الدجيلي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٨٧م.

١٧- الفسر لابن جنِّي، تحقيق د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

١٨- لسان الميزان لابن حَجَر العسقلاني، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١٩- المآخذ على شُرَّاح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي لابن مَعْقِل الأزدي، تحقيق د. عبد العزيز المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

٢٠- المذكر والمؤنث لأبي بكر بن الأنباري، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٨١م.

٢١- المستوفى من شعر أبي تمام صنعة د. محمد مصطفى أبو شوارب، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، ط٢، ٢٠١٧م.

٢٢- معجز أحمد= شرح ديوان أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي.

٢٣- معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٢٤- نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء لابن الأنباري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٩٨٥م.

٢٥- الوافي بالوَفَيَات للصفدي، تحقيق ثلّة من الباحثين، جمعيّة المستشرقين الألمانية، بيروت، ١٩٦٢ - ١٩٨٣م.

٢٦- وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، مصوَّرة عن دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

٢٧- يتيمة الدهر في محاسن العصر للثعالبي، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

كليلة ودمنة شعرًا

بيـــان الصفـــدي *

كتـاب «كليلـة ودمنة» في صـدارة الكتب التي ذاعت شـهرتُها قديمًا وحديثًا، ففـي بداية دخولنا ميـدان الطباعة في تاريخنا المعاصـر كان مـن أوائل الكتب التي طبعت في مطبعة بولاق المصـرية، بمديرها السوري الحلبي نقولا مساكبي، ويبدو أن ما في هذا الكتاب من متعة وعمق ورمزية أغرى علـى الـدوام ملايـين الناس بالاطّلاع عليه، ولا سـيَّما حين تنبَّهت الكتب المدرسـية إلى أثر قصـص الكتـاب في تربيـة التلاميذ، فأُخِذتْ منه قصـص، وكان يقرَّر أحيانًا كتابَ مطالعـةٍ أو قراءة حرَّة في المدارس العربية.

* شاعر وباحث وناقد.

وكان من شهرة كتاب «**كليلة ودمنة**» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية أن نظمه كثيرون شعرًا، مثل أبان بن عبد الحميد اللاحقي وسهل بن نوبخت وابن الهبارية وابن مماتي، لكن لم ينته إلينا من عمل أبان إلا سبعون بيتًا مبعثرة، ولو لم يذكرها الصولي في كتاب «**الأوراق**» لضاع كلُّ أثر لما فعله كغيره، ومن صنيع أبان هذه الأبيات:

هذا كتابُ أدبٍ ومِحْنَهْ
وهو الذي يدعى (كليلهْ دمنهْ)
فيه دلالاتٌ وفيه رُشدُ
وهــو كتــابٌ وضعته الهندُ
فوصفوا آدابَ كلِّ عالمِ
حكايــةً عن ألسـن البهائمِ
وإنَّ من كان دنيءَ النفسِ
يرضى من الأرفع بالأخسِّ
كمَثَل الكلبِ الشقيّ البائسِ
يفرح بالعظم العتيق اليابسِ
وإنَّ أهلَ الفضل لا يُرضيهمُ
شــيءٌ إذا ما كان لا يعنيهمُ
كالأسد الذي يصيد الأرنبا
ثم يــرى العَيْرَ المُجِـدَّ هَرَبا
فيرسلُ الأرنبَ من أظفارهِ
ويتبــعُ العَيْــرَ على إدْبارهِ
والكلبُ من رقَّته تُرضيهِ
بلُقْمــــة تقذفهـــــا في فيـهِ

(الأوراق للصولي. ص٤٦)

إن هذه الأبيات تدلّ على لغة رفيعة، وتدل على ما وصلت إليه لغة الشعر القصصي على يد هذا الشاعر، وقد ذكر مؤلف كتاب «أخبار الشعراء» والمشهور بـ «**الأوراق**» أنه «نظم كليلة ودمنة شعرًا في ثلاثة أشهر، وفي أربعة عشر ألف بيت». وذكر حمدان ابنه أنه كان يصلي ولوحٌ موضوع بين يديه، فإذا صلى أخذ اللوح، فملأه من الشعر الذي صنعه، ثم يعود إلى صلاته» (الأوراق للصولي. ص١)

ويبدو أنه قام بهذا العمل بناء على طلب يحيى البرمكي الذي ألزمه الإقامة في دار «لا يخرج منها حتى ينقل كتاب كليلة ودمنة من الكلام إلى الشعر فنقله، فوهب له عشرة آلاف دينار. قال ويقال : إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب كليلة ودمنة». (الأوراق للصولي. ص٢)

وفي خبر آخر أنه قام بعمله حتى يسهل على الوزير يحيى البرمكي حفظ الكتاب. (راجع أخبار الشاعر في كتاب الأوراق). ومعروف عن هذا الشاعر المتوفى عام ٢٠٠ هجرية أنه مكثر، ويصوغ الكلام الموزون بسهولة عجيبة، وعرف بميله إلى الأدب الشَّعبيِّ من خلال تأليفه سيرتيْ (أردشير) و(أنوشروان) وكتاب له عن (مزدك).

لكن الجميل أن حكايات (**كليلة ودمنة**) قد أتيح لها أن يكتبها شاعر كبير آخر، وانتهت إلينا شعرًا في مخطوط «نتائجُ الفطنة في نَظْم كليلة ودمنة» لابن الهبَّارية المتوفَّى سنة ٥٠٩ هجرية، ويشير نعمة الأسمر محقق الكتاب أن هناك اثنين نظما الكتاب أيضًا هما أبان اللاحقي كما أسلفنا ومحمد الجلال (نتائج الفطنة. مقدمة المحقق)

طبع «**نتائج الفطنة في أمثال كليلة دمنة**» طبعة يتيمة عام ١٩٠٠ في لبنان بعناية نعمة الله الأسمر، وانتهى إلينا للمؤلِّف أو الناظم نفسه كتابه ذائع الصيت «**الصادح والباغم**»، وقد اطلعت على طبعة له في القاهرة عام ١٨٧٤، لكنه طبع ثانية في بيروت عام ١٨٨٦ كما يذكر الأسمر في ترجمة الناظم.

ويبدو أن ابن الهبَّارية كان يميل إلى تحويل الحكايات النثرية إلى منظومات، إذ نظم أيضًا حكاية حي بن يقظان، وبدأها بقوله:

حيُّ بنُ يقظانَ ما حيُّ بن يقظانا

سبحان موجدُ ذاك الشيخِ سبحانا

لقد أحدث كتاب «**كليلة ودمنة**» حركةً جديدة في أدبنا الشعبي، فظهرت بعده كتب عديدة مشابهة وإن كانت أقلَّ قيمةً مثل (**عفراء وثعلة**) لسهل بن هارون، و(**النمر والثعلب**) لعلي بن داود، و(الصاهل والشاحج) و(القائف) لأبي العلاء المعري، (**وسلوان المطاع في عدوان الأتباع**) لابن ظفر الأندلسي، و(**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**) لابن عربشاه. (راجع كتاب ابن الهبارية حياته وأدبه للسنكري).

ولكي يأخذ القارئ فكرة عن كتاب (**نتائج الفطنة**) أورد منه:

وإنَّ مـــن لـــم يقبـــل النصاحا

ولم يرَ الرأي السـديد صالحـا

يكون كالمريـض يبغـي شـهوتهْ

ولـوعصـــى طبيبـه وصفتـهْ

والنصـح والصـــدق دليل الشفقهْ

وخير إخوان الفتى من صدقهْ

وخير أعمـــال الفتـــى ما كـان لهْ

عاقبـــة محمـــودة مفضَّـــلهْ

(نتائج الفطنة ص٦٤.)

ونقرأ من الكتاب أيضًا:

لا شيء في الدنيا أضرُّ بالدولْ

من حسن قول بعده سوءُ عملْ

وإنمـــا القـــول بغيـــر فعـــلِ

كالجسم ذي الحُسْن بغير عقلِ

لا خير في جسم مليح المنظرِ

وهـو لدى البحث قبيح المَخبرِ

لا فضل في المال بغير جودِ

والصـــدقِ إلا بوفـــا العهـودِ

(نتائج الفطنة. ص٨٧)

وفي نهاية نظمه لحكايات كليلة ودمنة ينهي ابن الهبَّارية الكتاب بقوله:

تمَّ الكتاب وانقضتْ أبوابهُ

كالدُّرِّ إذ يزجي به سحابُهُ

بادٍ لكـــل فاضل صـــوابهُ

مؤدِّبًا إن قُبِلَـــتْ آدابـــهُ

(نتائج الفطنة. ص٢٧١)

كان الانتشار الهائل الذي لاقاه الكتاب بين الناس، واشتهاره الكاسح، وافتخار بعضهم بأنه كتابٌ فريدٌ قلَّ نظيره سببًا للبحث عمَّا يجاريه لدى العرب، فتلك المباهاة الزائدة بالكتاب أثارت حفيظة عربية هنا وهناك، ولا سيَّما أن الشعوبية ضربت أطنابها في ذلك الوقت، فنهض أديب عربي صميم هو محمد بن عمر اليمني إلى وضع كتاب (**مضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب**) ردًا على القائلين بأن معاني الكتاب فريدة، ولم يعرف الأدب العربي مثيلًا لها، فأثبت في كتابه شواهد شعرية على كل قول وحادثة في ذلك الكتاب.

في رأينا ببساطة أن الحكايات كلها لا يمكن أن تكون حكرًا على شعب من الشعوب، بل هي متداولة بينها ضمن عوامل تجارية وثقافية وحضارية عامة، وإنْ غلب اهتمام التدوين على شعب دون آخر، ومع هذا فجمعُ الحكايات في كتاب واحد، وترتيبها في خطة فنية أمران مميزان، ويحسبان لـ (كليلة ودمنة).

وسأورد بعضًا من محاولات اليمني التي تردُّ كل ما في (كليلة ودمنة) إلى سبق شعري مأخوذ مما هو في تراث العرب، مع أن في أكثر الشواهد التي أوردها اليمني افتعالًا للتشابه، لكنها عكست حرصه على ما في التراث الشعري العربي من معانٍ وقيم تذهب مذهب المثل والأمثولة معًا، ويكفيني في هذا المقام أن أثبت بعض النماذج من كتاب (مضاهاة أمثال كليلة ودمنة):

«قال صاحب كتاب كليلة ودمنة: يقال من صفة الناسك الوقار والاستتار بالقنوع ورفض الشهوات للتخلي من الأحزان وترك إخافة الناس لئلا يخافهم.

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان يصف رجلًا:

نقيٌّ للدنيئة ذو اجتناب
يخاف الله ذو فعل سديدِ
تستَّر بالقنوع فكان أبهى
من الملك المؤيَّدِ بالجنود
وأقصى اللهو والشهوات عنه
فلم يحزن على عرضٍ فقيدِ

وقال سالم بن أبي الجعد الأشجعي الحروري في ترك إخافة الناس:

إذا أمن الجميعُ المرءَ أمسى
على أمنٍ وباتَ على مِهادِ

قال صاحب الكتاب: ويقال الأخلاط في الإنسان أربعة متعادية متغالبة تغذوهنَّ الحياة، والحياة إلى نفاد، كالصنم المفصلة أعضاؤه يجمعها مسمارٌ واحد، فإذا نزع المسمار تساقطت.

قال ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى وكان في جاهليته نصرانيًا حكيمًا:

ويُجمع بالسَّكِّيِّ منها صغارُها
وما جلَّ منها فهي لا تتفرَّقُ
فإن أُخِذَ السّكّيُّ منها تبدَّدت
تَبَدُّدَ ظهر الماء لا يتلفقُ»

(مضاهاة أمثال كليلة ودمنة ص٩)

قال صاحب الكتاب: يقال الجامع للأهل والأقارب بغير اقتصاد كالدُّخنة تحترق ويذهب بريحها غيرها.

قال شبيب الأشجعي الحروري:

وجَمعتُ من شتى حرامًا وغيره
حـــلالًا لأعـــداء لَديَّ أقاربِ
فكنت يَلنجـــوجًا أصابَ بطيبه
رجالًا وأرداهُ حريقُ اللواهبِ

قـال صاحب الكتـاب: الدُّنيا كالماء الملـح الذي كلما ازداد منه صاحبه شربًا ازداد عطشًا.

قال عديُّ بن زيد العبادي:

مُطالبُ دُنياهُ بإتعاب نَفســه
كـوارد مـــاءٍ من أجاجٍ مُكدَّرِ
فما ازداد شربًا منهُ إلا أثابَهُ
به عطشًا يرويه في كلِّ مَصدرِ

قـال صاحب الكتاب: أو كالعظم يُصيبه الكلب يجد فيـه رائحـة اللحم، فيطلبها فتدمي فـاه، فلا يزداد لها طلبًا إلا ازداد لفيه إدماءً.

قال الحُويدرة الذُّبياني، وكان من حكماء العرب:

إذا النابحُ العاوي أصاب معرَّقًا
من اللحم أنحى يطلُبُ اللَّحمَ بالجدِّ
فَيُدمي به فـــاه ويَطْلُـــبُ جاهدًا
فيـــزدادُ إدمـــاءً لفيـــه ولا يُجدي
فلا تُجهِدنَّ فيما زواله
وشـيكٌ على قُربٍ من الدَّار أو بُعدِ»

(مضاهاة أمثال كليلة ودمنة ص١٠)

«قـال صاحب الكتـاب: أو كاللَّعقة مـن العسل وفي أسفلها سُمٌّ ذُعاف، فلذائقها حلاوة عاجلة، وفي أسفلها سمٌّ ناقع.

قال أبو قابوس العبادي:

واحـــذر حلاوتهـــا فـــإنَّ
وراءهـــا سُـــمًّا ذُعافـــا»

(مضاهاة أمثال كليلة ودمنة ص١١)

إن عمـل ابن الهباريـة «نتائج الفطنة في أمثال كليلة ودمنـة» يعدُّ وثيقـةً مهمةً علـى وجود شعـر قصصي في كتـاب كامل، وبأسلوب سهـل ورشيق، ولغة سلسة أخذت بالحسبان خصوصية لغـة القص وما تقتضيه مِن انسياب وسهولة ورافة وجمال.

المصادر والمراجع:

بلا شير، رجيس

تاريـخ الأدب العربي ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٤.

سعيد، نفوسة زكريا

خرافـات لافونتـين في الأدب العربـي ، مؤسسـة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية، بلا،

سنكري، د، محمد فائز

شعر ابن الهبارية ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩٧.

ابـن الهباريـة : حياته وأدبـه (رسالـة ماجستير مخطوطة) جامعة حلب ١٩٨٣.

صابونجي، لويس

كتـاب أصول القراءة العربية والتهذيبات الأدبية ، بيروت ١٨٦٦، بلا ،

الصولي، أبو بكر

الأوراق ، عني بجمعه : هواررث ،ج ، دن ،بلا ،

ابن الهبارية، أبو يعلى علي بن أحمد

كتـاب الصادح والباغـم ، ط ١، مطبعة وداي النيل المحروسة ، القاهرة ١٨٧٤.

كتـاب نتائـج الفطنة في نظـم كليلة ودمنـة ، هذَّبه : نعمة الأسمر، المطبعة اللبنانية ، بيروت ١٩٠٠.

اليمني، أبو عبد الله محمد بن حسين

مضاهاة أشعار كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب، تح: د، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، مطبعة عيتاني الجديدة، ١٩٦١.

الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العُتبيّ لأحمد بن علي بن عمر بن صالح المَنِيْنِيّ(١)

المتوفَّى سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م

د. ناهد محمود حسين*

حفلت الحضارةُ الإسلاميةُ على امتدادها طولًا وعرضًا على مساحات واسعة من الأرض والتاريخ بصنوف أعاجيب الهمم العالية، والتصانيف المدهشة، وظهر كثيرٌ من المؤلفات والدراسات التاريخية التي اختصت ببلاد المغرب والأندلس والمشرق الإسلامي وغيرها من البلدان الإسلامية. ويُعدُّ كتاب اليميني لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العُتبيِّ المتوفَّى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م من الموارد المهمة لدراسة تاريخ المشرق الإسلامي؛ إذ أغنى المكتبة العربية الإسلامية، فقد اهتم الكتاب بتاريخ الدولة الغزنوية، وقدم أخبارًا قيمة ونادرة عن أبرز سلاطينها لا سيما السلطان محمود الغزنوي ووالده سُبُكْتِكِيْنَ، مع إشارات لعهدي نجلَيْه محمد ومسعود، لذلك اكتسب كتاب تاريخ اليميني للعتبي شهرة كبيرة في شتى الأمصار، واهتم به الكُتَّاب حتّى ذُيِّلَ عليه، وشرحه آخرون.

ولعل أبرزهم الشيخ أحمد بن علي المنيني المتوفى سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م، وسمَّاه «الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي»، ويدخل هذا الكتاب في بؤرة اهتمام الباحثين والأساتذة المنشغلين بالدراسات والبحوث التاريخية؛ إذ يقع كتاب شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي ضمن نطاق تخصص علوم التاريخ والفروع قريبة الصلة من الجغرافيا والآثار والتاريخ الاجتماعي وغيرها من التخصصات الاجتماعية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب لم تأتِ الدراسات على درسه وتحقيقه، لذلك كان من الصعوبة استخراج المعلومات من ثنايا المصادر التي تتحدث عن مؤلف الكتاب المنيني أو الحصول على المعلومات الوافية عن الكتاب.

---

* مدرِّسة في قسم التّاريخ – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة دمشق.

١ – المنيني: بفتح الميم، ثم نون مكسورة، ثم مثناة تحت ساكنة، ثمَّ نون، هذه النسبة إلى منين، وهي قرية كبيرة من قرى جبل سنير، وهذا الجبل من أعمال دمشق، فوق قرية التل بقليل، وبها حصن منيع، وقبران مشهوران: قبر الشَّيْخ جندل بن حُسين، وخلفه قبر الشَّيْخ أبي الرِّجال بن حُسين. السمعاني (عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ت٥٦٢هـ / ١١٦٦م): الأنساب، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، حيدر آباد، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ج١١، ص٥١١؛ ج١٢، ص٤٧١؛ ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م): اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٣، ص٢٦٦؛ ابن ناصر الدين (محمد بن عبد الله أبي بكر بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين ت٨٤٢هـ / ١٤٣٨م): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٣م، ج٨، ص٣٥.

أولًا: حياة المَنيني:

أحمد بن علي بن عمر بن صالح بن أحمد بن سليمان بن إدريس بن إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم العدوي الحنفي الطرابلسي الأصل، المنيني المولد، الدمشقي المنشأ، الشيخ العالم المحدث الإمام الحبر البحر الفاضل المتقن المؤلف المصنف، شهاب الدين، أبو النجاح، أبو العباس، الشهير بالمنيني، ولد في قرية منين بالقرب من دمشق سحر ليلة الجمعة ثاني عشر محرم سنة ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م[٢]. أصله وأصل أجداده من برْقائيل بكسر الباء الموحدة وسكون الراء بعدها وقاف ثم ألف ثم ياء مثناة تحتية مكسورة ثم لام، قرية من أعمال طرابلس الشام.

كان والده وُلد في برْقائيل المذكورة في سنة ثمان وعشرين وألف، ثم ارتحل وسنه إحدى عشرة سنة من طرابلس الشام إلى دمشق الشام، وتوطن بصالحيتها.

وبعد أن استعد لإقراء العلوم، وصار حجة في معرفة المنطوق والمفهوم، اشتغل بطلب العلم على جماعة منهم العلامة الشيخ محمد البلباني الصالحي والشيخ علي القبردي الصالحي، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي.

ارتحل إلى قرية منين المذكورة في سنة ست وأربعين وألف، وكان مرجعًا لأهل تلك القرية وغيرها بالفرائض، وتوفي بالقرية المذكورة في سنة ثمان ومئة وألف ودفن بها وقبره معروف ظاهر مشهور.

وقد اشتهر أنه كان من ذرية العارف بالله عدي بن مسافر، من ذرية ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، هكذا اشتهر في هذه البلاد، وفي وطنه الأصلي بين أقربائه في مدينة طرابلس الشام[٣].

نشأ الشيخ أحمد المنيني بدمشق، وأصبح من مشاهير أدبائها وعلمائها وشعرائها ومحدثيها، وكان فائقًا ذائقًا له مسامرة جيدة ولطافة ونباهة من شيوخ دمشق الذين عمت فضائلهم، وكثرت فوائدهم، وطالت فواضلهم، لغويًا نحويًا أديبًا أريبًا حاذقًا لطيف الطبع حسن الخلال عشورًا متضلعًا متطلعًا متمكنًا خصوصًا في الأدب وفنونه حسن النظم والنثر[٤].

ولما بلغ سن التمييز قرأ القرآن العظيم، ثم لما بلغ من سنّ ثلاث عشرة سنة قدم إلى دمشق، وقطن بحجرة داخل السُّميساطية عند أخيه الشيخ عبد الرحمن، وكان له أخ آخر يقال له الشيخ عبد الملك ارتحل لبلاد الروم، وصار مفتيًا بأحد بلادها، وشغله أخوه

٢- المرادي (محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، أبو الفضل ت١٢٠٦هـ / ١٧٩١م): سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ج١، ص١٣٣-١٣٤؛ البغدادي (إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني): هدْيَة العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥١م، ج١، ص١٧٥-١٧٦؛ درنيقة (محمد أحمد): معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، ط١، د.م، د.ت، ص٧٥؛ سركيس (يوسف بن إليان بن موسى): معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، مصر، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م، ج٢، ص١٨٠٨؛ عبد الحي الكتاني (محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٢م، ص٥٣٣؛ كحالة (عمر بن رضا بن محمد بن عبد الغني): معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٢، ص١٥.

٣- درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ الميداني (عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الدمشقي): حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تح: محمد بهجة البيطار، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص١١٨٥؛ الزركلي(خير الدين): الأعلام «قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت، ٢٠٠٢م، ج١، ص١٨١.

٤- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٤-١٣٥؛ درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥؛ سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٨٠٨.

الشيخ عبد الرحمن المذكور بقراءة بعض المقدمات كالسنوسية والجزرية والأجرومية وتصريف العزّي على بعض المشايخ. وله رواية في الحديث عن والده عن عبد الرحمن الملقب بشمهورش؛ فإنه اجتمع به والدُه في حدود سنة ثلاث وسبعين وألف، وصافحه، وآخاه، وأمره بقراءة شيء من القرآن، فقرأه وهو يسمع، فلما أتم قراءته قال له هكذا قرأه علينا النبي صلى الله عليه وسلم بين الأبطح ومكة، وتكرر اجتماعه به بعد ذلك، وقد توفي شمهورش المذكور في سنة تسع وعشرين ومئة وألف وأخبر بوفاته الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي[٥].

وفي حوادث دمشق اليومية ذكر في أحداث سنة ١١٦١هـ / ١٧٤٨م أنه وفي التاسع والعشرين من رجب هذه السنة كسفت الشمس حتى أظلمت الشام، ورأت الناس النجوم كما تراها في الليل، ومكثت مكسوفةً إحدى وعشرين درجة، وصلّت الناس صلاة الكسوف في الجامع الأموي، وكان الإمام بالناس الشيخ أحمد المنيني أحد خطباء الجامع الأموي[٦].

تُوُفِّيَ المنينيُّ في دمشق يوم السبت التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م، ودفن بتربة مرج الدحداح، وقبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به[٧].

٥- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٤.

٦- البديري (أحمد بن بدير، شهاب الدين الحلاق ت بعد ١١٧٥هـ / ١٧٦١م): حوادث دمشق اليومية، تح: محمد سعيد بن قاسم القاسمي، ص٢٨.

٧- البديري، حوادث دمشق اليومية، ص٥٥؛ المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٨١؛ سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٨٠٨؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥؛ كرد علي (محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد): خطط الشام، مكتبة النوري، ط٣، دمشق، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج٦، ص١٥٣-١٥٤؛ هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦.

ثانيًا: حياته العلمية

اشتهر الشيخ شهاب الدين أحمد المنيني بالعلم والفضل، فقد درَّس في الجامع الأموي بشرق المقصورة بأمر من الشيخ أبي المواهب مفتي الحنابلة لما توفي ولده الشيخ عبد الجليل، فاستقام إلى أن توفي الشيخ أبو المواهب، فبعد وفاته درَّس بحجرته داخل مدرسة السميساطية[٨] نحو الألف ومئة هجرية، وبسبب مخالطته للكبراء وأرباب المناصب توجه عليه التدريس في المدرسة العادلية الكبرى[٩]، فانتقل إليها ودرس بها، وأقام على الإفادة في المدرسة المذكورة والجامع

٨- المدرسة السميساطية: معروفة ومشهورة عند باب الجامع الأموي الشمالي، وكان هذا الباب يسمى بباب الناطفيين، كانت في مبدأ أمرها دارًا لعبد العزيز بن مروان بن الحكم، ثم انتقلت إلى ابنه عمر بن عبد العزيز، وكان ذلك مكتوبًا على عتبة بابها، ولم تزل الأيدي تتناولها إلى أن قدم أبو القاسم السميساطي دمشق، وسكن بدرب الخزاعية، وإليه كان يفتح باب هذه الدار، وعرف الدرب به، فاشترى الدار المذكورة، وبنى بها الصفة القبلية، ولما ملك تاج الدولة تتش سألوه أن يفتح لها بابًا في دهليز الجامع، فأذن لهم، ففتح حيث هو الآن، ثم عمرت، وكان أول من ابتدأ في عمارتها الوزير الفلكي، فبنى البركة والصفة الغربية والطباق على دهليزها، ثم مجد الدين ابن الداية، وكان مدرسًا بها، فأخذ يجمع ما يأخذه من راتبه من وقفها، ويبني لها حتى عمر الصفة الشرقية. بدران (عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٧٦-٢٧٧.

٩- المدرسة العادلية الكبرى: هي داخل دمشق شمالي الجامع إلى الغرب وشرقي خانقاه الشهابية وقبلي الجاروخية تجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدي إلى باب البريد، بدأ بإنشائها نور الدين محمود بن زنكي ولم تتم، ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين ولم تتم، ثم ولده الملك المعظم، ووقف عليها الأوقاف، ونسبها لوالده الذي دفن فيها. أنشأها نور الدين للإمام قطب الدين النيسابوري درس بها، وسكنها جِلَّةٌ من العلماء، منهم ابن خلكان والجلال القزويني والعلاء القونوري وأبناء السبكي وكمال الدين التفليسي وابن مالك وابن جماعة. وقد حرقت هذه المدرسة مرتين الأولى في فتنة غازان التتري سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م مع ما حرق من مدارس المدنية، والثانية في سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، ولعلها أحرقت في فتنة تيمور أيضًا ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، هذا عدا ما تناوبها من الزلازل. بدران، منادمة الأطلال، ص١٢٣-١٢٤، كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٨١-٨٣.

الأمـوي مدة عمره، ولم تزل تحت توليته ومحل إقامته وتدريسـه، إلى أن تـوفي ودفـن في تربة مـرج الدحداح، وخلفـه في التوليـة علـى المدرسـة المرقومـة والتدريس بهـا أولاده السادات عبد الرحمـن أفندي وعلي أفندي وإسماعيـل أفنـدي، ولم يـزل ذلك ينتقـل في أولاده، ثم انتقلـت إلى أولادهم إلى زمن محمد أفندي المنيني مفتي دمشـق فاستولى عليها واتخـذ العادلية بيتًـا للسكنى، وجعل مسجدها إسطبلًا للدواب، وتصرف فيها.

فدرَّس في الجامـع المذكـور في يـوم الأربعـاء في البيضـاوي، وفي يـوم الجمعـة بعـد صلاتهـا صحيح البخاري، وبين العشاءين في بعض العلوم، وانتفع منه خلق كثير، وتزاحمت عليه الأفاضل من الطلاب، وكثر نفعـه، واشتهـر فضله، وعقـدت عليه خناصـر الأنام وحسـن المجانسـة ودماثة الأخـلاق وغـزارة الفضل والمطارحـة اللطيفـة، ورحـل إلى دار الخلافـة مرتين، وكان أبناؤهـا يحترمونـه، ولـه هنـاك شهـرة بسبب شرحه على تاريخ العتبي المقدم ذكره، ورحل إلى الحج مـرة، وأعطى رتبـة السليمانية المتعارفـة بين الموالي، وصـارت عليه تولية السميساطية العمرية، وأحدث له في الجامع الأموي عشرون عثمانيًا، وربط عليه خطابة في الجامع المذكور، وصار بينه وبين الخطيب المحاسني المجادلـة في ذلـك والشقـاق، وشاعت في وقتهـا، إلى أن استقـر أمرها علـى الشهاب المرقـوم[١٠]. وقد ترجمه تلميذه الشيـخ سعيد السمان في كتابه وقال في وصفه: شيـخ العلم وفتاه، ومن بوجـوده ازدان الفضل وتاه، أشرق بـدرًا من أفق الهـدى تقتبس أنـواره، وأصبح وهـو لمعصم العلى دملجه وسواره، فاكتحل به إنسان الكمال، وتعلقت بذيله من أولى الفضائل الآمال، وانقلب به الدهر كلـه حسنات، محمـود العواقب في الحركات والسكنـات، تنهلّ أساريره بشرًا، وتنفح أردانه نشرًا بـذكاء لو كان لذُكاءَ لما غيرهـا الأصيل، وأصل في باذخ المجـد أصيل، وخلق يعلم الحلم، الإناءة، وشيمة تقابل بالحسنة الإساءة، فكم من مغفل فضل أعلمه، وكم من مستفيـد علـم علمه، فما مِن عارفة إلا هـو أبو عذرتها، ولا نادرة إلا هو مرهف شفرتها، فإذا خاض في مشكل تحقيـق حصحـص الحـق، وإذا ابتـدر مبحـث تدقيق حاز السبـق واستحق، وإذا ارتقـى المنبر سجد له كل مصقـع وما تكبر. وأما الأدب فهـو روضة ذات أفنان الآتـي من بدائعـه ببدائع أفنـان، فأساليبه فيه حسنة الانطبـاع تسوغهـا الأسمـاع والطبـاع، وحسبك بمن تأهـل للكمـالات، واعتد مـن قبل غصـن شبيبته يمتد، ففاق ببيانـه ولسانه، وابتهج طرف المعارف بإنسانه، وتزينت صفحـات المهارق بتحريـره، والتقطت فرائد الفوائـد مـن تقريـره، وأذعنـت لمؤلفاتـه الصناديـد، وأودعتهـا الصدور إشفاقًـا عليها مـن التبديد، وكان دخـل الروم، فتطوقت منه بعقـد الثريا، واقتدحت من أفـكاره زنـدًا وريّـا، فتلقته رؤسـاء أعيانهـا، وأحلّته منها بسـواد أعيانها، واقترحت عليـه فأجاب، بما هو كالصبـح المنجـاب. وقصـارى الأمـر أنه الفـرد الذي عليـه المعـول، والمظهر بمعـاني بيانه أسـرار **الأطول** و**المطـول**، وهو حدقـة عـين أساتذتي الـذي تخرّجت عليـه، وحبـوت للإفـادة بـين يديـه، وعطـرت أوقاتي بأنفاسـه، واقتبست نور الأمـاني من نبراسه، وتفيَّأت ظـل رعايته عمـرًا، ولم أعص له نهيًـا ولا أمرًا، ولي في كل لحظة دعوات أرجو لها الإجابة، وتوسلات مقرونة بالضراعـة والإنابـة ألَّا يعتري زهـرة أيامه ذبول ولم يـبرح لابسًا من العمر بردًا ضـافي الذيول، فقد أحلني مكان بنيـه، ومن يحتوي عليه ويدنيه. وهاك من آثاره

١٠- المـرادي، سلـك الدرر، ج١، ص١٣٥-١٣٦؛ بـدران، منادمة الأطلال، ص١٢٣-١٢٥؛ ص٢٧٧؛ كرد علي، خطط الشام، ج٣، ص٨٣؛ الميداني، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ص١١٨٥-١١٨٧.

ما هو أشهى للعيون من الوسن، وأفتن للمشجون من الوجه الحسن[١١].

وقال المرادي في ترجمة الشيخ أحمد المنيني: إن جده بنى المدرسة المرادية[١٢]، ولما بناها أقام الشيخ عبد الرحمن أخا الشيخ أحمد ناظرًا على العمال والصناع بها، وجعله على أوقافها كاتبًا وأمينًا على كتبها وعلى وظائفها، وبقي الأمر على أولادهم. أعني أولاد عبد الرحمن وأحمد[١٣].

ثالثًا: شيوخه وتلامذته:

طلب المنيني العلم بعد أن تأهل له، فقرأ على سادات أجلاء، منهم: الشيخ أبو المواهب المفتي الحنبلي وولده الشيخ عبد الجليل وجلّ انتفاعه عليه، والشيخ محمد الكامل، والشيخ إلياس الكردي نزيل دمشق، والأستاذ العارف الشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ يونس المصري نزيل دمشق، والشيخ عبد الرحيم الكاملي نزيل دمشق، والشيخ عبد الرحمن المعروف بالمجلد، والشيخ عبد القادر التغلبي المجلد، والشيخ عبد الله العجلوني، والشيخ عثمان الشهير بالشمعة، والشهاب أحمد الغزي العامري، والشيخ نور الدين الدسوقي، والشيخ الصالح محب الدين بن شكر.

وأخذ عن علماء الحجاز كالإمام عبد الله بن سالم المكي البصري، والشيخ أحمد النخلي المكي، والشيخ محمد البصير الإسكندري المكي، والشيخ عبد الكريم الخليفتي العباسي، والشيخ أبي الطاهر الكوراتي المدني، والشيخ علي المنصوري نزيل القسطنطينية، وعلامة الروم المولى سليمان بن أحمد رئيس الوعاظ بدار السلطنة العلية.

وأخذ عن الشيخ محمد الجليلي القدسي، والشيخ محمد شمس الدين الرملي.

وأخذ طريق السادة النقشبندية مع بعض العلوم عن الجد الشيخ مراد البخاري الحسيني الحنفي، وطريق الخلوتية عن الشيخ حسن المرجاني البقاعي الخلوتي الشهير بالطباخ، وطريق القادرية عن الشيخ السيد يس الحموي القادري الكيلاني[١٤].

أخذ عنه والد المرادي صاحب سلك الدرر، وأجازه بسائر مروياته وأسانيده. واجتمع في بلاد الروم بالنور علي المنصوري وبسليمان أفندي الرومي، فأجازاه أيضًا[١٥].

رابعًا: مؤلفات المنيني العلمية وآثاره:

اشتهر المنيني بكثرة مؤلفاته في فنون كثيرة لا تزال مخطوطة، ولم تلقَ اهتمام الباحثين بعدُ، وفيما يأتي ذِكْرُ نسخها المنتشرة في مكتبات العالم:

١- **في التاريخ والجغرافيا**: «**الفتح الوهبي في شرح تاريخ العتبي**» مجلدان موضوع الدراسة.

«**الإعلام بفضائل الشام وما ورد فيها من الأحاديث عن خاتم الرسل الكرام**»، مخطوط موجود في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات

١١- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٦-١٣٧.

١٢- المدرسة المرادية: هي في باب البريد مشهورة ومعروفة، ذات مدرستين صغرى وكبرى، والثانية ذات حجرات سفلى ووسطى وعليا، والأولى ذات حجرات أيضًا سفلى وعليا، وكانت محط رحال الأفاضل معمورة بالعلماء وطلاب العلم، ولهم من أوقافها ما يكفيهم، وكان بها مكتبة عظيمة حتى كانت يقال لها أزهر دمشق، ثم إن نظارها باعوا جانبًا من أوقافها، وقطعوا راتب الطلبة وأمست في عصرنا هذا كأمثالها خالية من دراسة العلم معطلة عن الانتفاع بها. يسكنها بعض الفقراء وبعض من لا شغل له، وكان إنشاء هذه المدرسة سنة ثمان ومئة وألف. بدران، منادمة الأطلال، ص٢٦٤.

١٣- بدران، منادمة الأطلال، ص٢٦٤.

١٤- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٤-١٣٥؛ سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٨٠٨؛ عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٦.

١٥- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٨٠٨.

الإسلامية، المملكة العربية السعودية، رقم الحفظ: ب ٢٢٥٨٥، رقم الحفظ: ٢١٥١-٥-ف[١٦].

«**فضائل الأماكن والبلدان**»، مخطوط موجود في المكتبة الوطنية بباريس، فرنسا، رقم الحفظ: ٦١٦٨. مكتبة سليم آغا، تركيا، إستانبول، رقم الحفظ: ٤٧٢. دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم الحفظ: ٥ / ٣٣. المكتبة الخديوية، القاهرة، رقم الحفظ: ١ / ١٣٧. مكتبة المصغرات الفيلميه بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، رقم الحفظ: ٤٦٧٤. سورية، دمشق، رقم الحفظ: ٧٩١٦، ٧٥٣٠. المكتبة الأزهرية، القاهرة، رقم الحفظ: [١٧٥] أباظه[١٧] ٦٣٤٢.

٢- في الحديث: «القول السديد في اتصال الأسانيد»، مخطوط موجود في مطبعة قوله، القاهرة، رقم الحفظ: ٢ / ٩٣. معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم الحفظ: عن دار الكتب المصرية ٤٩٨، ٣٦٢ عن دار الكتب ٤٥٨، مكتبه برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، رقم الحفظ: ٣٣٨٩. مكتبه الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، رقم الحفظ: مجموعه حكمت رقم: ٣٩٧ (٦١ / ٢٣١). مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض، رقم الحفظ: ٢٠٩٠-١-ف، رقم الحفظ: ٠٣٢٧-فح[١٨]. إذ ذكر الشهاب أحمد المنيني في القول السديد: «إن علم الحديث علم رفيع القدر، عظيم الفخر، شريف الذكر لا يعتني به إلا كل حبر، ولا يحرمه إلا كل غمر، ولا تفنى محاسنه على ممر الدهر؛ لم يزل في القديم والحديث يسمو عزة وجلالة، وكم عز به من كشف الله له عن مخبآت أسراره وجلاله؛ إذ به يعرف المراد من كلام رب العالمين، ويظهر المقصود من حبله المتصل المتين، ومنه يُدرى شمائل من سما ذاتًا ووصفًا واسمًا، ويوقف على أسرار بلاغة من شرف الخلائق عربًا وعجمًا....»[١٩]. «**حديث أبي علي بن محمد بن محمد بن عبد الحميد الفزاري**» مخطوط في المكتبة المركزية، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، رقم الحفظ: ٧١٩ / ٩[٢٠]. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض، رقم الحفظ:٧٦٠٢[٢١].

٣- في النحو: «**الفرائد السنية في الفوائد النحوية**»، مخطوط في مكتبة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، رقم الحفظ: ٢٨٧٨[٢٢].

٤- في الفضائل: «أسماء أهل بدر الكرام»، مخطوط في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، رقم الحفظ: ٠٨٩٣٢-١١[٢٣].

١٦- البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تح: محمد شرف الدين بالتقايا، رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت،ج٣، ص١٠٣؛ هدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٨١؛ درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥. مركز الملك فيصل، خزانة التراث- فهرس مخطوطات، ج١١٢، ص٩٤٣. ج١١٠، ص٧٢٥.

١٧- خزانة التراث، ج٤٢، ص٩١٩.

١٨- البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٢٤٩؛ خزانة التراث، ج٤٢، ص٩٢٢. ح٥٤، ص٤٠٣. ج١٠٧، ص٤٥٠.

١٩- القاسمي (محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق): قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٤٤-٤٥.

٢٠- خزانة التراث، ج٦٩، ص٤٤٩.

٢١- خزانة التراث، ج١٥، ص٥٧٦.

٢٢- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، هدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ بدران، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠١ه / ١٩٨٠م، ص٤٨٨؛ درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ خزانة التراث، ج١١٨، ص٦٦٨.

٢٣- خزانة التراث، ج١١٤، ص٧٢٩

٥- في الفقه: «**بلغة المحتاج لمعرفة مناسك الحاج**»، مخطوط في المكتبة الظاهرية، سورية، دمشق، رقم الحفظ: ١٠٢٣٥ [٢٤]. لخص فيه منسك الشيخ عبد الرحمن العمادي مع الزيادة الحسنة. «**العرف الناسم على رسالة القاسم بن قطلوبغا في أصول الفقه**»، مكتبه المصغرات الفيلمية بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، رقم الحفظ: ٦٤٨٧ / ١ [٢٥].

٦- في العقائد والتصوف: «**شرح الصدر بشرح أرجوزة استنزال النصر بالتوسل بأهل البدر**»، مخطوط في مكتبه كليه الآداب والمخطوطات، الكويت، رقم الحفظ: ٢٣ مج ١٠. المكتبة الظاهرية، سورية، دمشق، رقم الحفظ: ٨٤٦٢ [٢٦]. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض، رقم الحفظ: ١٩٧٥. [٢٧] فرغ من تأليفه سنة ١١٦٧ [٢٨]. «**التوسل بشهداء بدر**»، مخطوط في المكتبة الظاهرية، سورية، دمشق، رقم الحفظ: ٤٩، ٥٠، ٢. المكتبة السليمانية، تركيا، إستانبول، رقم الحفظ، ٢٢١. مكتبة خدابخش، الهند، مدينة بتنه، رقم الحفظ: ١٢ / ٦٣٧. قسم المخطوطات - عماده شؤون المكتبات، المملكة العربية السعودية، الرياض، رقم الحفظ: ٤٦٦٤. المكتبة الأزهرية، القاهرة، رقم الحفظ: [١٠٣٤] الجوهري ٤٢٠٧١. مكتبة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، رقم الحفظ: ١١٣٤ ٤٠٣٣،٢٩٧٧،٧٦٠h [٢٩]. «**مطلع النيرين في إثبات النجاة ورفعة الدرجات لوالدي سيد الكونين**»، مخطوط في مكتبة شستربيتي، إيرلندا، مدينة دبلن، رقم الحفظ: ١ / ٣٢٢٢. معهد المخطوطات العربية، الكويت، رقم الحفظ: ٨٧٦ عن شستربيتي ٣٢٢٢ [٣٠].

٧- في شمائل الرسول: «**مواهب المجيب في خصائص الحبيب**»، مخطوط في مكتبة سليم آغا، تركيا، إستانبول، رقم الحفظ: ٨١٣. المكتبة الظاهرية، سورية، دمشق، رقم الحفظ: ٧٢، ٥. دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم الحفظ: ٥ / ٤٢٣. مكتبة خدابخش، الهند، مدينة بتنه، رقم الحفظ: ١٥ / ١٠٣٦. دار الكتب الوطنية، تونس، رقم الحفظ: رقم التسلسل ٣٩٤٢. مكتبة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، رقم الحفظ: ٣١٢٠،٢٦٣٩،١٨٦٧ [٣١]. إذ يذكر أن المنيني نظم «أنموذج اللبيب» للسيوطي نحو ألف ومئتي بيت من كامل الرجز سماه «مواهب المجيب فيما يختص بالحبيب»، وشرحه في نحو ثلاثين كراسة، وسماه «فتح المجيب»[٣٢].

٨- في المدائح النبوية: «**معشرات في مدح الرسول**»، مخطوط في مكتبة المخطوطات، الكويت، رقم الحفظ: ١٧٧٩ عن الظاهرية ٤٦٤٥ [٣٣].

٢٤- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥. البغدادي، إيضاح المكنون،ج٣، ص١٩٣؛ هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ خزانة التراث، ج٩١، ص٥١٠.

٢٥- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥؛ خزانة التراث، ج٧٨، ص٨٠٥.

٢٦- البغدادي، هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ خزانة التراث، ج٨٠، ص٨٢.

٢٧- خزانة التراث، ج٣، ص٦٢٦.

٢٨- البغدادي، إيضاح المكنون،ج٤، ص٤٤؛ سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٣١١.

٢٩- خزانة التراث، ج٤٢، ص٩٢٠.

٣٠- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٥٠٠؛ هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٦؛ خزانة التراث، ج٧٨، ص٨٠٥.

٣١- البغدادي، هِدْيَة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ خزانة التراث، ج٤٢، ص٩٢١.

٣٢- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٦.

٣٣- خزانة التراث، ج٥٢، ص٧٦.

٩- في الشعر: ومن تأليفه نحو ألف ومئتي بيت من كامل الرجز نظم بها أُنموذج اللبيب في خصائص الحبيب[٣٤]. «**استنزال النصر بالتوسل بأهل بدر**»، مخطوط في سورية، دمشق، رقم الحفظ: ١٠٤١٢ [٣٥]. «**فتح القريب بشرح مواهب المجيب**»، مخطوط في مكتبة شستربيتي، إيرلندا، مدينة دبلن، رقم الحفظ: ٢ / ٣٤٨٨، ٧ / ٥٢٣٧. مكتبة المخطوطات، الكويت، رقم الحفظ: ١٩٨٧ عن شستربيتي ٣٤٨٨، ٣٧٣٤، عن شستربيتي ٥٢٣٧. معهد المخطوطات العربية، الكويت، رقم الحفظ: ١١٦٣ عن شستربيتي ٣٤٨٨، ١٦٠٩، عن شستربيتي ٥٢٥٧. مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، رقم الحفظ: ١٤٨ عن شستربتي ٣٤٨٨، ١٤٧، عن شستربتي ٥٢٣٧ [٣٦]. «**ديوان المنيني**»، مخطوط موجود في المكتبة الملكية، ألمانيا، برلين، رقم الحفظ: ٨٠٣٩ [٣٧].

ومن المصنفات الأخرى: مخطوط «إضاءة الدراري في شرح صحيح البخاري إلى كتاب الصلاة»[٣٨]. «شرح صدر العبد الفقير بإجازة الصدر العلي الوزير»[٣٩]. «شرح القصيدة الرائية لبهاء العاملي»[٤٠]. «العقد المنظم في قوله تعالى واذكر في الكتاب مريم»[٤١]. «فتح المنان شرح الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان وهو المهدي»[٤٢]. «القول المرغوب في قوله تعالى فهب لي من لدنك وليًا يرثني ويرث من آل يعقوب»[٤٣]. «القول الموجز في حل الملغز»[٤٤]. «النسمات السحرية في مدح خير البرية»، وهي تسع وعشرون قصيدة على الحروف المعجمة[٤٥]. وله شرح على قصيدة بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول في مدح صاحب الزمان سيدي محمد المهدي[٤٦]. وله غير ذلك من الرسائل.

وجمع للوزير الفاضل عثمان باشا الشهير بأبي طوق والي دمشق وأمير الحج كتاب السبعة أبحر في اللغة للإمام الجليل مير علي، ونقله من السواد إلى البياض من مسوَّدة المؤلف، وحسَّنه، وجعل له خطبة من إنشائه[٤٧].

خامسًا: المنيني الشاعر:

للمنيني شعر كثير حسن بديع، وهذا مثالٌ منه:

تذكر والذكرى يجدُّ قديمُها
سطور عهود قد تعفَّتْ رسومُها
أَلا في سبيلِ الحُبِّ قلبٌ كأنَّهُ
غداة نَأَوا وحشيةٌ ضلَّ ريمُها

٣٤- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥.

٣٥- البغدادي، هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٦؛ خزانة التراث، ج٨٧، ص٤٥٣.

٣٦- البغدادي، هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ الزركلي، الأعلام، ج١، ص١٨١؛ درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص٧٥؛ خزانة التراث، ج٥٢، ص١٤٢.

٣٧- خزانة التراث،ج٥٢، ص٩١٨.

٣٨- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٣، ص٩٤؛ هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥؛ عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص٩٧٦.

٣٩- البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٤٤؛ هدية العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤٠- البغدادي، هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤١- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص١١١؛ هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤٢- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص١٧٤؛ هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤٣- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٢٥٣.

٤٤- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٢٥٦؛ هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤٥- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج٤، ص٦٤٥؛ هدِيَّة العارفين، ج١، ص١٧٦.

٤٦- سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٨٠٨.

٤٧- المرادي، سلك الدرر، ج١، ص١٣٥.

سَـــرَوا عَنَقًا في ليلــة مدلهمــة
تخيَّلــتُ أنَّ النائبــات نجـومُها
فصرت أرى الأيامَ تقصرُ بعدَهم
خطاهــا كأن قد قيَّدتْهــا همومُها
إلى الله ما بــي من بقايــا صبابة
فكــادتْ إذا شَــبَّتْ يبينُ كظيمُها

سادسًا: وصف مخطوط الفتح الوهبي ومحتوياته

الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي للشيخ المنيني، وهو شرح لكتاب التاريخ المعروف بـ: (اليميني) لمؤلفه الأديب المؤرخ أبي النصر محمد بن عبد الجبار المشهور بالعُتبيِّ المتوفَّى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م، موضوعه سيرة وأخبار السلطان العادل المجاهد يمين الدولة أبي القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سُبُكْتِكِيْنَ الغزنوي وأخباره (٣٦١-٤٢١هـ / ٩٧١-١٠٣٠م).

طبع الأصل موسومًا بـ: (تاريخ اليميني) باعتناء الأستاذ سبرنغر في دهلي الهند سنة ١٨٤٨ في ٤٩٣ صفحة، وفي المطبعة الأميرية بولاق سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م، وفي لاهور الهند سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م.

وكان الشرح جيدًا، حافلًا، بسيطًا مقبولًا عند الخواص والعوام، فرغ من شرحه سنة ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م، وقد طبع سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م[٤٨]. والكتاب عبارة عن مخطوط مقسم إلى مجلدين، وهو غير محقق. المجلد الأول منه مؤلف من ٤١٦ ورقة، أما المجلد الثاني فتألف من ٤١٩ ورقة. كتب المخطوط بكتابة قديمة سهلة القراءة، وقد بدأه المؤلف بقوله بعد بسم الله الرحمن الرحيم:

حمدًا لمن أحسن كل شيء خلقًا وتصويرًا، وخص نوع الإنسان بالبيان رحمة منه وتدبيرًا، وعلّمنا ما لم نكن نعلم تعريفًا وتوفيقًا، وقوّم ألسنتنا بالنطق عما في الضمير تعديلًا وتثقيفًا، ومنّ علينا بنعمتي الإنشاء والإعادة، وأوردنا بمعرفة لغة أفصح من نطق بالضاد مناهلَ السعادة. نحمده أن جعل أسرار بلاغة كتابه لمداره المصاقع أفيح محجة، وأقام بدلائل إعجازه على شرف اللغة العربية أوضح برهان وحُجَّة. نشكره أن أزلف إلينا من عقائلها أبكارًا وعونًا، وفجّر لنا من بلاغتها أنهارًا وعيونًا. ونصلي ونسلم على نبيه المرسل رحمة للعالمين بلسان عربي مبين الصادع بقوله الصادق إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا... أما بعد...

وقد رتب كتابه على مجموعة من الفصول والأقسام بدأها بتاريخ الخلق وصفات رب العالمين وخلقه للأرض والسماوات والإنسان بدءًا من آدم عليه والسلام ومناقشة الملائكة لرب العالمين حول خلقه لآدم، وبعثه للرسل والأنبياء لهداية الناس، ووصفه للمسلمين بأنهم خير أمة أخرجت للناس، وبعثه لآخر الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم سيدنا محمد الصادق الأمين، والصعوبات التي تعرض لها خلال تبليغه للرسالة. وفصل بعدها في جغرافية البلاد الإسلامية خلال العصور الإسلامية ولا سيما العباسية، فذكر

٤٨- ابن المستوفي (المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي ت٦٣٧هـ / ١٢٣٩م): تاريخ إربل، تح: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م، ج٢، ص١٠٢؛ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني ت١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م، ج٢، ص٢٠٥٢؛ فانديك (إدوارد كرنيليوس): اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية، صححه: السيد محمد علي البيلاوي، مطبعة التأليف (الهلال)، مصر، ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م، ص٣٧٤؛ كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص٥٨.

أنها مقسمة إلى مدن وأقاليم، فقسمها إلى سبعة أقاليم حملت أسماء الكواكب السبعة، ونسب كل إقليم إلى كوكب. ثم تناول بعض قصص العرب وطرائفهم في مختلف العصور، ومنها حديث عاقر الناقة وبعض من ضروب اللغة العربية وقواعدها وتصحيح الأخطاء فيها. وزود كتابه باستشهادات شعرية لشعراء العرب المشهورين كأبي نواس وقصائده بمدح الخلفاء العباسيين، وعلى رأسهم هارون الرشيد.

ثم جاء على ذكر أيام الأمير الماضي أبي منصور سُبُكْتكِينْ رحمه الله تعالى وأحواله. وذكر الأسباب التي أطمعت الترك ببلاد العرب والمسلمين. ثم ذكر حسام الدولة أبا العباس تاش الحاجب وانقلاب فخر الدولة على ولايته وما جرى بعد ذلك. وانتقال أبي العباس تاش إلى جرجان وما جرى من حوادث. وذكر فائق الخاصّة وما انتهى إليه أمره بعد واقعة قنطرة مَرْو الرُّوْذ بينه وبين أبي علي بن أبي الحسن بن سيمجور بين هراة وبوشنج.

وكان ممَّا ألزم المَنِيْنِيُّ نَفْسَه به أَنْ يُعَلِّقَ على أسماء المواضع، من ذلك أنَّه رأى أَنَّ قُنْدهار هي قُصْدار (ويقال قُزْدار) القديمة. ولعلَّه وهم فيما ذَهَبَ إليه «يُنظر مُعْجم البُلْدان لياقوت الحمويِّ: قُزْدار، قُصْدار، قُنْدهار. وكتاب بلدان الخلافة الشّرقيّة لمؤلِّفه كي لسترنج (الترجمة العربيّة) ٣٦٨، ٣٧٠».

وكذلك فسّر المَنِيْنِيُّ ما قَدَّرَ أنَّه محتاجٌ إلى تفسير من ألفاظ وقعتْ في سياق الأخبار والأشعار، كقوله: سُبَّة: بضمّ السين وتشديد الباء، أي عار، يقال: صار ذلك الأمرُ على فلانٍ سُبَّةً، أَيْ عارًا يُسَبُّ به.

على الجملة يكتسب «الفتح الوهبيّ» أهميّته العلميّة من الكتاب الذي شرحه وقام عليه «اليميني» الذي يكاد يُعَدُّ المصدرَ اليتيمَ الوافيَ في أخبار الدّولة الغزنويّة وأبرز سلاطينها السُّلطان يمين الدَّولة وأمين الملَّة محمود الغزنويّ، وصلاتها بالدّولة السّامانيّة التي قَضَتْ، والدَّولة البُويهيّة، وأمير جرجان قابوس بن وشمكير شمس المعالي، ومن ثمّ موقعها من عاصمة الخلافة العبَّاسيّة بغداد.

ومِن وجوه أهميته أنَّه شرح لكتاب تاريخيّ، وشروح كتب التاريخ ومتونه نادرة.

سابعًا: نسخ من مخطوط الفتح الوهبي في مكتبات العالم:

للمخطوط نسخ كثيرة في شتى مكتبات العالم:

١-نسخة في المكتبة القيصرية، النمسا، مدينة فيينا، رقم الحفظ: ٩٤٨.

٢-نسخة في المكتبة الوطنية، فرنسا، باريس، رقم الحفظ: ٥٨١٠.

٣-نسخة في مكتبة المتحف البريطاني، إنكلترا، لندن، رقم الحفظ: ١٤٣-١٤٤ Or.

٤-نسخة في مكتبة جامعة سان بطرسبورغ، روسيا، سان بطرسبورغ، رقم الحفظ: ٣٥.

٥-نسخة في مكتبة جامعة سان بطرسبورغ، روسيا،لينينجراد، رقم الحفظ: ١٠٠٩.

٦-نسخة في مكتبة قوله، مصر، القاهرة، رقم الحفظ: ٢ / ٢٤٢.

٧-نسخة في مكتبة داماد زاده، تركيا، إستانبول، رقم الحفظ: ١٤٦٢.

٨-نسخة في مكتبة لا له لي، تركيا، إستانبول، رقم الحفظ: ٢٠٦٩.

٩-نسخة في المكتبة العمومية، سورية، دمشق، رقم الحفظ: ٨١ / ٥.

١٠-نسخة في مكتبة دار الكتب الوطنية، تونس، رقم الحفظ: رقم التسلسل [٤٩] ٤٩٣٨.

٤٩- خزانة التراث، ج٧١، ص٤٠٩.

صور من المخطوط

الورقة الأولى من الجزء الأول

الورقة الأولى من الجزء الثاني

الورقة الأخيرة من الجزء الثاني

المصادر:

* ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م):

١- **اللباب في تهذيب الأنساب**، دار صادر، بيروت. د.ت.

* البديري (أحمد بن بدير، شهاب الدين الحلَّاق ت بعد ١١٧٥هـ / ١٧٦١م):

٢-**حوادث دمشق اليومية**، تح: محمد سعيد بن قاسم القاسمي.

*حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني ت١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م):

٣-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.

*السمعاني (عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ت٥٦٢هـ / ١١٦٦م):

٤-الأنساب، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، حيدر آباد، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

*ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري ت١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م):

٥-شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، دمشق – بيروت، ١٤٠٦ه / ١٩٨٦م.

* العيدروس (محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ت١٠٣٨هـ / ١٦٢٨م):

٦-النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

*المحبي (محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي الأصل الدمشقي ت١١١١هـ / ١٦٩٩م):

٧-خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د.ت.

*المرادي (محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، أبو الفضل ت١٢٠٦هـ / ١٧٩١م):

٨-سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

*ابن المستوفي (المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي ت٦٣٧هـ / ١٢٣٩م):

٩-تاريخ إربل، تح: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

*ابن ناصر الدين (محمد بن عبد الله أبي بكر بن محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين ت٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م):

١٠-توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

المراجع:

*بدران (عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد):

١-**منادمة الأطلال ومسامرة الخيال**، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٥م.

٢-المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م.

*البغدادي (إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني):

٣-**هدِيَة العارفين إلى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥١م.

٤-إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تح: محمد شرف الدين بالتقايا، رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

*الزركلي (خير الدين):

٥-**الأعلام** «قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت، ٢٠٠٢م.

*سركيس **(يوسف بن إليان بن موسى):**

٦-**معجم المطبوعات العربية والمعربة**، مطبعة سركيس، مصر، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م.

*درنيقة (محمد أحمد):

٧-**معجم أعلام شعراء المدح النبوي**، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، ط١، د.م، د.ت.

*عبد الحي الكتاني (محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي):

٨-**فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٢م.

*فانديك (إدوارد كرنيليوس):

٩-**اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية**، صححه: السيد محمد علي الببلاوي، مطبعة التأليف (الهلال)، مصر، ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م.

*القاسمي (محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق):

١٠-**قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

*كحالة (عمر بن رضا بن محمد بن عبد الغني):

١١-**معجم المؤلفين**، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

*كرد علي (محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد):

١٢-**خطط الشام**، مكتبة النوري، ط٣، دمشق، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٣-مركز الملك فيصل، **خزانة التراث - فهرس مخطوطات**.

*الميداني (عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الدمشقي):

١٤-**حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تح: محمد بهجة البيطار، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

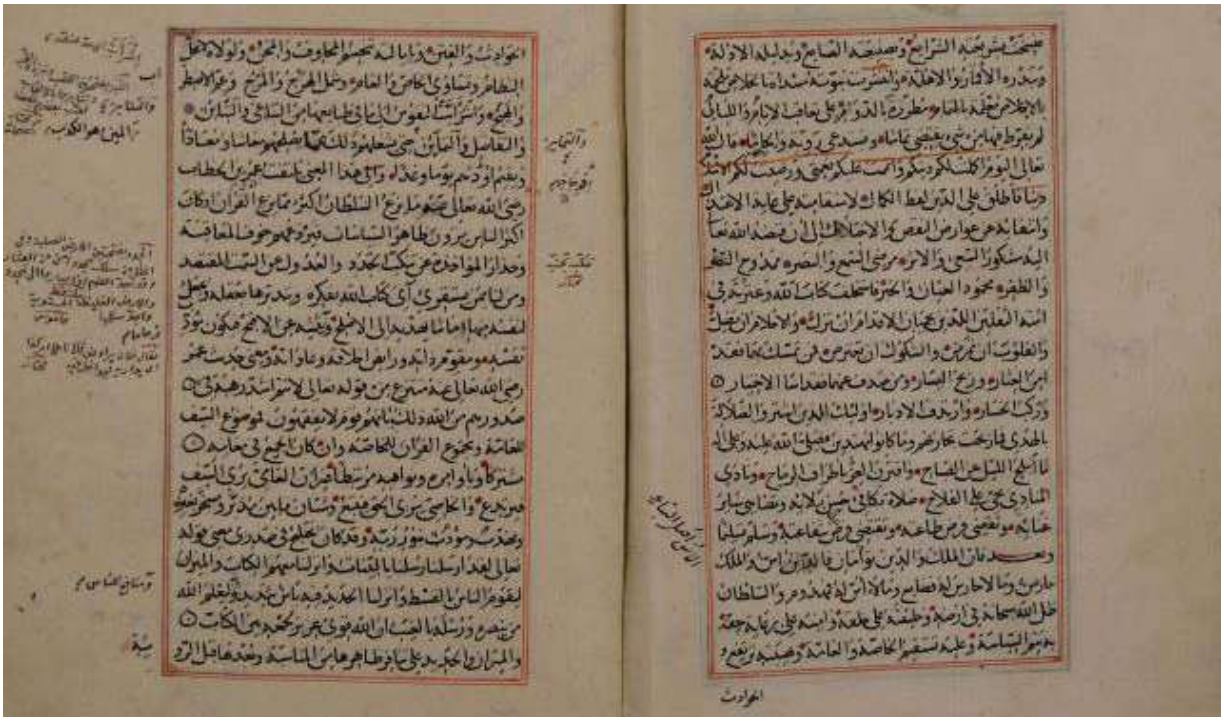

إشكالية الشر عند المعتزلة

د. هنى محمد الجزر *

تمهيد:

لقد كان مصدر الفعل الإنساني على مرّ التاريخ – وما يزال – موضع تساؤل الفلاسفة والمفكرين ، فمنهم من قال إن الفعل الإنساني هو من خلق الإنسان، ومنهم من قال إنه من كسبه، ومنهم من قال إنه قدرٌ من الله لا سبيل للخروج من براثنه، فما يكتب على الجبين يجب أن تراه العين، والذي قال إن الفعل الإنساني من خلق الله تساءل عن فعل الشر منه، أهو كذلك من خلق الله، وإن كان ذلك فهل يليق بالله أن يصدر منه أفعال الشر، وكيف نصفه بالخير المطلق، ويصدر منه الشر؟ وكيف يمكن لله أن يخلق لنا فعل الشر ويحاسبنا عليه؟ وهل هناك تناقض بين القول بالقدرية المطلقة وبين الإيمان بحرية الإرادة ؟ وما مدى مشروعية السؤال عن المسؤولية الخلقية للإنسان عن أفعاله؟

لقد حاول البحث تسليط الضوء على مشكلة الشر عند المعتزلة تحديدًا، وهل هي من خلق الله أم من خلق الإنسان؟ وهل كان المعتزلة يؤمنون حقًا بقدرية مطلقة تحكم الإنسان بسكناته وحركاته، أم كانوا حاملين لواء القول بحرية الإنسان ؟ وهل يُعَدُّ قولهم بحرية الإنسان ومسؤوليته، حدٌّ من قدرة الله على الإمساك بأحداث الكون؟

كما سيحاول البحث مناقشة تدخل الله في الفعل الإنساني، هل يقتصر عندهم على معنى اللطف الإلهي، أم يتعداه ليعيد خلق الحدث من جديد؟ وهل تقتصر مسؤولية الإنسان عن أفعاله المباشرة، أم إن الإنسان مسؤول عن آثار هذه الأحداث التي ولّدها الفعل؟ وهل الإنسان مسؤول عن أفعاله هو فقط، أم إن الله سيسائله على ما فعل أبواه ؟ وما هو ذنب الإنسان الذي وقع عليه ظلم أخيه الإنسان؟ هل يتحمله مكرهًا دون أي أجرٍ يلقاه من الله، أم إن المظلوم دنيويًا من أثر فعل أخيه سيلقى أجرًا يجعلنا نتمنى ألّا نكون ظالمين في حياتنا بل مظلومين .

سيعرض البحث كل هذه المسائل وغيرها، وذلك من خلال جدل الصراع بين مدرستي الأشاعرة والمعتزلة على الحقيقة الدينية حول مسألة الشر، وفي إطار ما يسمى علم الكلام الإسلامي.

* أستاذة في قسم الفلسفة – كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة دمشق.

أولًا: الفعل الإنساني بين الحتمية الكونية والحرية الإنسانية:

في الزمن السابق على الفلسفة كان القدر هو الصورة التي اتخذها الفعل الإنساني في إطار ما يسمى بالجبرية الكونية التي تفرض نفسها على الجميع، فقد عرف اليونان ربة القدر موريرا، وهي قوة قاهرة تلزم الجميع على اتباع خطواتها، دون أن تتيح للبشر أي قدرة على التفكير في عبثية القدر المحتوم الذي مثلته أسطورة البطل سيزيف الذي حكم عليه باستمرار أن يدفع صخرة إلى أعلى الجبل، وعندما يصل بها إلى أعلى قمة هرم الجبل كان القدر يعبث به في كل مرة، فتندفع إلى أسفل الجبل ليندفع وراءها ويعيد الكرة من جديد، ولعل أهم تراث أدبي عبّر عنه العقل اليوناني الجبري (ما قبل الفلسفي) عن هذه الحتمية الكونية هي أسطورة أوديب الذي وُلد ليقتل أباه في نبوءة لم يستطع الأب فيها التخلص من قدره المحتوم بالموت على يد ابنه، رغم معرفته المسبقة بهذا القدر، وبعد أن قتل أوديب أباه لايوس وتزوج أمه جوكاستا، التي انتحرت بدورها استغفارًا وندمًا على ذنوب لم تقترفها، إنما فُرضت عليها (بعد أن اتخذت زوجًا من زوج، وأنجبت ولدًا من ولد)[1].

أما على المستوى الفلسفي فقد كانت الفلسفة الذرية عند ديمقريطس تطبيقًا دقيقًا لقانون الحتمية الكوني، فالذرات نفسها لا تتغير، وهي في حركة ذاتية ضمن المبدأ الفيزيائي الذي نطلق عليه اليوم مبدأ القصور الذاتي، فالذرات لا تتغير حركتها إلا بفعل تصادم ذرات أخرى، فثمة قوانين صارمة للذرات هي أقرب للقوانين الآلية غير قابلة للتبديل، فتصور حتمية علمية كونية لا يعزب عنها مثقال ذرة من خردل، إلا أن ديمقريطس أقرّ بالحرية الإنسانية والمسؤولية الخلقية عن الأفعال الإنسانية، وهذا على خلاف الرواقيين، فقد روي عن الرواقيين إيمانهم بالجبر المطلق، وأن الإنسان مقيد بأسباب مرسومة من قِبل اللوغوس الكوني، كما أنهم اعتقدوا بفكرة العود الأبدي، فالإنسان جزء من الكون المنتظم بقوانين صارمة، وقد تجلت الجبرية المطلقة في منطقهم، وذلك من خلال تبنيهم لقانونين وضعهما أرسطو، وهما:

١- مبدأ ثنائي القيم: { (ق) ص V (ق) ك □}

إذ إنه من الضروري إما أن تكون ق صادقة وإما ق كاذبة.

٢- قانون الوسط الممتنع: {(ق) ص V (~ ق) □ص}

من الضروري أن تكون ق صادقة وإما نفيها صادقًا.

وقد تخلى عنهما أرسطو فيما بعد ليبرر حرية الإنسان في الاختيار وعدم قدرتنا على التنبؤ بأفعال الإنسان المستقبلية، (فلا يجوز أن يقال إنه ليس ولا واحد من القولين حقًا، كأنك قلت القول إن الشيء سيكون، والقول إن الشيء ليس يكون، فالقضيتان المتناقضتان تكون إحداهما صادقة والأخرى كاذبة بالضرورة، ولكن عندما تكون القضية فردية متعلقة بالمستقبل، فإن الأمر سيجري على خلاف ذلك)[2]، ومعنى هذا كله أن الموضوعات الممكنة المستقبلية لا يمكنهما أن تصدق معًا أو تكذب معًا، فإذا ما صدق أحد الموضوعين، فإن الآخر كاذب بالضرورة، إلا أننا لا نستطيع أن نتصور الموضوع الممكن المستقبلي

١- لقد تزوجت جوكاستا من أوديب وهو ابن لزوجها لايوس، وأنجبت منه ولدًا مع أنه ولد زوجها، انظر: يمنى طريف الخولي، الحرية الإنسانية والعلم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٩٠، ص ١٨ .

٢- أرسطو، العبارة، منطق أرسطو، الجزء الأول، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت، وكالة المطبوعات الكويت، طبعة أولى، ١٩٨٠ ، ص – ص: ١٠٩ – ١١٠ .

الصادق والكاذب، لأننا بذلك سننتقل من حقل الإمكان إلى حقل الضرورة، وفي الواقع فإن هذا ما دفع كثيرًا من المناطقة القدماء[٣] إلى الاعتقاد أن أرسطو قد تخلى عن مبدأ ثنائي القيم وقانون الوسط الممتنع، الذي يؤكد ضرورة أحد النقيضين في القضايا المستقبلية، أما الرواقيون فلم يتخلوا مطلقًا عن هذين القانونين في الممكنات المستقبلية، ذلك أنهم رأوا أن القضايا التي حدثت في الماضي إذا كانت صادقة أو كاذبة فهي ضرورية في المستقبل، لأنه لا يوجد لديهم اعتراف كبير بالتغير[٤].

أما في العصور الوسطى العربية فقد عرف الواقع العربي قبل الإسلام مبدأ الحتمية الكوني، فقد كانت اللات أهم آلهتم، وكانوا يحلفون بها، ويستقسمون بها في مسائل السفر، وقد روى لنا التاريخ (ما قبل الإسلام)[٥] روايات كثيرة تشير في تفاصيلها إلى تحكم القدر بمصير البشر، فمن غريب القصص أن أحد العرّافين قال لهند بنت عتبة بعد خلافها مع زوجها الأول، بأنها ستلد سيد العرب، وقد كانت هذه النبوءة وراء اختيار أبي سفيان لها، ومما يروى في التاريخ الإسلامي قصص كثيرة حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: منها ما قاله الرسول الأعظم لسيدنا علي رضي الله عنه عن كيفية قتله، وأخبره أن أحدًا ما سيعترض على كونه أميرًا للمؤمنين، كما اعترض سهيل بن عمرو في صلح الحديبية على رسول الله، واشترط عليه أن يكتب في الصلح بدلًا من عبارة: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله، ليستبدلها بعبارة: هذا ما اتفق عليه محمد بن عبد الله مع سهيل بن عمرو. مما يعني أن القدر يرسف المستقبل بقيد محكم لا يجد عنه مناصًا .

وقد جاء القرآن الكريم ليكرس مفهومًا للقدر يتجلى في الإرادة الإلهية التي تتحقق عبر مشيئة كلية تنفذ في جزئيات الكون، إلا أن القرآن سمح بسريان مبدأ اللاحتمية في هذا العالم، فقد قال الله في محكم تنزيله ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾[٦]، ذلك أن سريان مبدأ الحتمية في الكون يُجبر الله على عدم التغير، ولا يتيح له التدخل أن يعاود صنع الأحداث من جديد، لذلك فقد رفضه الأشاعرة، فذهب شيخهم إلى رفض قانون السببية معتقدًا بالتدخل المستمر في جزئيات الكون، ورفضوا أن يحكم الكون جبرية مطلقة تتحكم بطبائع المادة، ناهيك عن القول بالتحكم بأفعال الناس والقول بجبرية مطلقة، مما يعني أنهم أتاحوا الحرية للإنسان في فعله، ولكن دون أن يكون لديه القدرة على خلق فعله[٧].

٣- أهم هؤلاء المناطقة هو بؤثيوس الذي ذهب إلى أن القضية المتعلقة بالمستقبل سوف تكون إما صادقة وإما كاذبة تمامًا مثل الماضي أو الحاضر، إلا أنه لا يوجد ضرورة منطقية ملازمة منطقية ملازمة للتوقع الصادق في المستقبل لأن إمكانية الشيء أن يوجد على هيئة ما، تساوي إمكانياته في الوجود على هيئة أخرى، وهكذا فالممكن المستقبلي عند بؤثيوس يلازمه التردد فيما إذا كا ن سيحدث أم لا، حول موقف بؤثيوس ونقده للبرية الرواقية في تصورها للممكن، انظر:

Chadwick . Henry , Boethius m clarendon Press , Oxford , 1990, P – P: 157 – 160 .

٤- بخصوص نظرية الرواقيين في الإمكان انظر:

Rist، J . M . Stoic Philosophy، Cambridge university press، Cambridge، London، New york، Melbourne، 1969 , P-P: 119 – 122.

Rescher , Nicholas . Aversion of the master argument of Diodr , the jornal of Philosophy، vol: 63 , 1966, P: 440

٥- لم نطلق عليه التاريخ الجاهلي لاعتراضنا على هذه التسمية من وجوه متعددة، أولها أن مكة كانت حاضرة بلاد الحجاز، وكان لها أهمية قصوى عندهم، ولم يلتفت الروم إلى النبي وخطر دعوته على دولتهم إلا بعد فتح مكة، أما الأمر الثاني فقد كان لديهم من مكارم الأخلاق ما جعل النبي يثني عليها مثل إغاثة الملهوف والكرم والنخوة العربية.

٦ القرآن الكريم، سورة الرعد، آية ٣٩ .

٧- سنناقش رأي الأشاعرة بشكل منفصل فيما بعد، ولمزيد من المناقشة لهذا الأمر انظر: أبو حامد الغزّالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، طبعة ثامنة، ١٩٧٢، ص ٢٣٩.

وقد اعتقد بعض الفلاسفة المسلمين بقدرية مطلقة، ومنهم عمر الخيام الذي قال في أحد دواوينه مبررًا شربه للخمر في أنه قدرٌ من الله لا ذنب له فيه:

أعب الطلا عمدًا ومثلي ذو حجا
درى الله قِدْمًا بارتشافي للطلا
لَهُ يغتدي عندَ النُّهى شُرْبُها سهلا
فإن أَجتنبْها ينقلب علم الله جهلا

وهناك بعض الفلاسفة المسلمين من كان له موقف سلبي من هذه القدرية والجبرية الكونية كفيلسوف المعرة الذي حار في سنن الله في العالم، فكيف يقدر الله الفعل ثم يحاسبنا عليه، كأنه من فعلنا مع أنه فعله وتقديره:

لا ذنب للدنيا فكيف نلومُهـا
واللوم يلحقني وأهل نحاسي
عنب وخمر في الإناء وشارب
فمَنِ الملـومُ أعاصرٌ أم حاسي

وقد كانت الحتمية الكونية والقدر الكلي مصدر تشاؤم عند بعض الفلاسفة كأبي العلاء وشوبنهاور الذي رأى أن الإنسان هو ريشة في مهب قدر الحياة لا يستطيع منها فكاكًا إلا بالزهد أو الفن، ولا سيَّما الموسيقا التي تستطيع أن تلطف من وقع القدر وقسوته.

ثانيًا: أفعال الإنسان بين التسيير والتخيير:

قبل الحديث عن مسؤولية الإنسان عن أفعاله لا بدّ أولًا من التساؤل عن حرية الإنسان أولًا، وهل الإنسان مسير أم مخير، لقد فرق القرآن الكريم بين بعدين للحرية:

١- الأول: الإنسان الحر هو من يجري عليه حكم الحر قانونًا كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى**﴾[٨]، أي إنه الإنسان المتحرر من العبودية، وعكسه العبد الذي لا يملك زمام أمره، وأمر حريته متعلق بمن يملكه.

٢- والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشر، فأصبح حر نفسه، وليس عبدًا للشهوات، وقد قال الله تعالى على لسان مريم: ﴿**إذ قالت امرأة عمران ربي إني نذرت لك ما في بطني محررًا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم**﴾[٩]، أي متحررًا من الشهوات ومخلصًا لعبوديتك، فقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدينار.

لقد تحدث القرآن عن المعنى الحقوقي والأخلاقي، أي أن يكون الإنسان متحررًا من شهواته ونزواته .

أما عن حقيقة موقف المعتزلة من حرية الفعل الإنساني، و أن الإنسان لديهم هو مخير لا مسير، فيجب القول ابتداءً إن الإنسان كان هدف الحركة الاعتزالية الأول منذ نشأتها، وذلك من خلال تأكيد فعالية الإنسان الإرادية وقدرته على الاختيار، لذلك كان عليها أن تواجه كل أنماط الفكر الجبري الذي يصادر الإرادة الإنسانية، وينسب أفعالها لله تعالى كالفرقة الجبرية وغيرها.

ويذهب المعتزلة إلى تأكيد مبدأ حرية الإنسان في اختياره للفعل، وذلك باعتباره مكلفًا من الله، إنه خليفته على الأرض، و من ثم عليه أن يحمل مسؤولية إعمارها، و قد منحه الله كل الأدوات اللازمة لهذا الامتحان من إرادة، وعقل، وغرائز، فعندما تختار الإرادة فعلًا بموجب اختيار العقل يكون فعلها خيرًا، وتنفيذه يغدو مصلحة، وهدف الفعل يكون مقصودًا واعيًا، أما إذا تحكّمت الغرائز بالأفعال الإنسانية

٨- القرآن الكريم، البقرة، آية ١٧٨.
٩- القرآن الكريم، آل عمران، آية ٣٥.

أصبحت الحرية مقيدة بعوامل غريزية شهوانية، وحدّت من حرية الإنسان وقيدتها، لأنها لم تصدر عن اختيار حقيقي، بل عن سلسلة طبيعية تعمل في النفس هي الشهوات [١٠]، ومن ثَمَّ يغدو الإنسان مسيرًا لا مخيرًا. فإذا كان الفعل إرضاء لحاجة ضرورية فلا حساب عليه لعدم وجود سند نفسي له، أما الفعل الاختياري فشرطه السند النفسي، وهو وجود الإرادة الصادرة عن العقل، وهو شرط الحرية .

ثالثًا: مسؤولية الإنسان عن الشر في العالم:

ويمكن تحديد موقف المعتزلة من حرية الإرادة وماهيتها ومسؤولية الإنسان عن أفعاله، من خلال إبراز هذه القضايا المتعلقة بهذا الأمر:

١-الفعل الإنساني غير مخلوق أو محدث في الإنسان، وأن الله لم يخلقه، فهناك استقلالية للفعل الإنساني عن الفعل الإلهي، ولكن ما الدليل على أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى، وأنها أفعالهم، يرد المعتزلة عليهم بقولهم: لو كانت فعلاً لله تعالى لما حُسن أن يأمرنا بحسنها وينهانا عن قبحها، وأن يمدح على فعل الطاعة ويثيب عليها، ويذم على فعل المعصية، ويعاقب عليها، كما لا يحسن أن يأمرنا بسائر أفعاله فينا من اللون والهيئة والصحة والمرض، وينهانا عن ذلك أو يذم عليه، وأيضًا فلو كان الله عز وجل يفعل أفعالنا، لما وقعت بحسب قصودنا ودواعينا[١١].

٢-الفعل الإنساني، المستقل الإرادة عن الجبرية الميتافيزيقية والطبيعية فعلٌ إنسانيٌّ إرادةً ومسؤوليةً[١٢]. وقد اهتمت المعتزلة بمبدأ السببية في الأفعال الإنسانية لارتباط هذه القضية بمسألة الجبر والاختيار، وكيفية نسبة الأفعال إلى الإنسان، والسبب عندهم هو الموصل إلى المسبب الناتج عنه (فالتعرف سبب للمعرفة موصل إليها)[١٣]، ومعنى ذلك أن المسبب واقع بوقوع المسبب، وهو موجود بوجود سببه[١٤]، وقد علقوا ذات السبب بالفاعل في مجال الأفعال الإنسانية، لذلك رفضوا أن تكون الأفعال واقعة من سبب غير الإنسان الفاعل، والاختيار يقتضي أن يكون الفاعل على حال يصح فيها أن يفعل وألّا يفعل، وعند تكامل دواعي الاختيار وزوال الموانع في الأفعال المباشرة، يلزم حينئذٍ وقوع المسبب عن السبب حكمًا، أي وقوع الفعل من فاعله حكمًا.

ويمكن القول إن موقف المعتزلة يمثّل حالة متقدمة في عالم النظر الفلسفي، وتأكيدًا منهم على اسباغ صفة القانونية على الحوادث الفيزيائية، ومن ثم الحوادث الإنسانية، وهذا على خلاف الأشاعرة الذين لم تصل لديهم حالة الاقتران بين المسبب والنتيجة إلى حالة القانون، فـ (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، وبين ما يعتقد مسببًا، ليس ضروريًا عندنا، بل لشيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنًا لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما، وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما، عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل .. فإن اقترنهما لما سبق من تقدير الله سبحانه، بخلقها

١٠- الجاحظ، الرسائل ،تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٢.

١١-القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٨، ص ٧٧ .

١٢- القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، طبعة ثامنة، ١٩٨٨، ص ٢٠٨ .

١٣- أبو الحسين الخياط، الانتصار، تحقيق نيمبرج، أوراق ن شرقية، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٢ ص ٨٦

١٤- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر، طبعة ثالثة، ١٩٩٦، ص ٣٩٠

على التساوق لا لكونه ضروريًا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة)[١٥]، وقد ردَّ عليهم المعتزلة عبر قاضيهم بقوله: لو جوّزنا أن الله تعالى يفعل القبيح لم نأمن أن يعذب الأنبياء والصالحين، ويدخلهم النار، ولم نأمن أن يكون كلام الله كذبًا وأمره باطلًا، ولأوجب ذلك ألَّا نثق بوعده ووعيده، وألَّا نأمن أن يدخل الأنبياء النار، ويدخل الأعداء والكفار الجنة، ومن كان هذا سبيله لم تلزمنا طاعته، لأنا لم نأمن شره وإن بلغنا في طاعته كل مبلغ، ويجوز أن يبعث الله تعالى إلى العباد من يدعوهم إلى الكفر والضلال، ويظهر عليهم المعجزات والأدلة، لأنه إذا جاز أن يفعل القبيح، فما الذي يمنع من أن يفعل ذلك كله[١٦]. ولعل هذا الذي ذهب إليه القاضي وهو يردّ على الأشاعرة في نظريتهم الكسبية، هو عينه ما توصل إليه ابن رشد في رده على الغزَّالي في إنكاره للمبدأ السببي[١٧]، وهذا القول يؤدي ألّا نثق بكتاب الله ولا بسنة ولا نعرف شريعة، ويؤدي إلى ألَّا نأمن أن يكون ما نحن عليه ضلالًا، وما عليه الكفار حقًّا، ومن بلغ هذا المبلغ فقد فحُش خطؤه، وعظم أمره.

مما سبق نستنتج أن الأشاعرة يعتقدون أن الله تعالى يتدخل باستمرار في كل فعل من أفعال العباد، وفي ذلك نفي ذكي لمعنى مسؤولية الإنسان الكاملة عن أفعاله، حتى لو اعتبر البعض موقفهم هذا توسطًا بين الفرقة الجبرية وفرقة المعتزلة، فلو قمنا بعملية ربطٍ بين نظرية الكسب الأشعرية القائمة على أن الأفعال الإنسانية مخلوقة من قبل الله تعالى، وأن الإنسان يكتسبها بإرادته، مع جملة من النظريات الأشعرية كنظريتهم في حدوث العالم و نظريتهم في الخلق المتجدد، ومفهومهم الخاص للسببية عبر نفيها[١٨]، لسقطت دعواهم في مسؤولية الإنسان مسؤولية كاملة عن أفعاله عبر عملية اكتسابها، ومِن ثَمَّ لوقع الأشاعرة في نظرية الجبر وعدم حرية الإنسان على اختيار أفعاله، لأنه ببساطة لا يخلقها، وهو موجود في عالم قد يتحول فيه الأرنب إلى أسد، والدواء إلى سم زعاف متى أراد الله ذلك، ومِن ثَمَّ لا يوجد شروط موضوعية تجعل من الإنسان سيدًا للعالم ومؤثرًا فيه.

وقد انطلق الأشاعرة من فهمهم الخاص ذاك من عبارة تأولها أبو الحسن ونسبها إلى إجماع المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، جعلتهم ينظرون إلى مشكلة الجبر والاختيار من زاوية المشيئة الإلهية لا من زاوية التكليف والجزاء [١٩] .

٣- القصد الإرادي، فالإنسان يتوجه بفعله نحو غاية إنسانية ليس من شروطها أن تكون إرادة الله ذاتها، فهناك فرق بين الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية [٢٠].

٤-أدوات الفعل، وهي أدوات إنسانية ومن صنعه .

٥-صفات النقص للفعل البشري، مميزًا ذلك عن الفعل الكامل لله، فلا سبيل إذن إلا القول بحرية الإرادة الإنسانية وإثباتها، دعمًا للعدل الإلهي وإلغاءً للتصورات الجبرية[٢١]، كذلك لا يجوز أن ننسب الظلم

١٥- أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، مصدر سابق ، ص ٢٣٩.

١٦- القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٨، ص ٧٧ .

١٧- ابن رشد، تهافت التهافت، القسم الثاني، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، طبعة ثالثة، ص: ٧٩٣ – ٧٩٦.

١٨- حول مفهوم الأشاعرة حول مفهوم السببية انظر: أبو حامد الغزّالي: تهافت الفلاسفة، مرجع سابق ص ٢٣٩ – ٢٤٦.

١٩- أحمد محمود صبحي: في علم الكلام ،مصر، طبعة ثانية، ١٩٧٦، ص ٦٢

٢٠- القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، طبعة ثامنة، ١٩٨٨، ص ٢٠٨ .

٢١- القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، مرجع سابق، ص٢٠٨ .

لله، لأنـه مـن فَعل الظلم والجـور يجب أن يكـون ظالمًا وجائـرًا، كمـا أنه لما فعل العدل كان عـادلاً، ومن يقول إن الله ظـالمٌ فقد كفر بمـا أنزله الله في قرآنه، وقول الله عز وجل: ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾[٢٢] وقوله تعـالى: ﴿**الذي أحسن كل شـيء خلقه**﴾[٢٣]، فـالله تعـالى لا يكلف العبـاد ما لا يطيقـون، والذي يدل علـى أنه تعالى لا يكلفهم ما لا يطيقونه، قوله عز وجل: ﴿**لا يكلـف الله نفسًا إلا وسعهـا**﴾[٢٤]، فالإنسان هو المسـؤول عن الشر الموجـود في العالم، ويورد القاضي عبـد الجبار الدليـل على أنه تعالى لا يفعـل القبيح: لأن الله عـز وجل عالم بقبـح القبائح كلها، ونعلـم أنه غني ولا حاجـة لـه إليها، فلا يجـوز أن يختارهـا لأنه عالمٌ بقبحها، فـإذا كان الله عز وجل غنيًا عن كل قبيح وغير محتـاج إليه، فلا يجوز أن ننسـب قبيحًا يقع في العالم لله، فكل فعل يوصف بالقبح هو من أفعال العباد، والله تعـالى غني عـن فعله، وقد نزه الله عـز وجل نفسه، عن الظلم بقولـه تعالى: ﴿**وما الله يريد ظلمًا للعباد**﴾[٢٥] وبقوله: ﴿**إن الله لا يظلم الناس شيئًا**﴾[٢٦].

رابعًـا: نظريـة الأفعـال المتولـدة عـن الفعـل الشرير ومسؤولية الإنسان عنها عند المعتزلة:

عمقت حركة الاعتزال مسألة خلق الأفعال، فبحثوا فيمـا يتولـد عـن الفعـل الإنسـاني، فـإذا كان الفعـل الإنسـاني مخلوقًا له، وليس من خلق الله عز وجل، فما حال الأفعال التي تتولد عن عمل الإنسان وفعله ؟ أهي مـن صنع الإنسـان وخلقه ؟ فإذا ضـرب إنسان آخر، فـلا شك أن فعل الضرب من خلـق الضارب، ولكن ما القـول في الألم الذي يحسه المضروب، وكذلك إذا رمى إنسـانٌ فقتل المرميَّ، فما القول في القتل، أهو من خلق الرامي ؟

أجـاب بشر بن المعتمر عن هـذه التساؤلات بقوله: إن الآثـار المترتبة على فعلنـا هي مخلوقة لنا[٢٧]، كذلك قـال العلاف: إن كل ما يتولد عن فعلي مما أعلم كيفيته فهـو من فعلي، وما لا أعلم فلا، فالألم وصعود الحجر ونحو ذلك من فعلـي، أما الألوان والطعوم فتعزى إلى الله، وليسـت مـن فعل الإنسـان، أما النّظّـام فيرى أن الإنسـان لا يفعـل إلا الحركـة، فما ليـس بحركة ليس مـن صنعـه، ولا يفعـل الإنسـان الحركـة إلا في نفسه، فـإذا رمـى حجـرًا وتحـرك إلى الأعلـى أو إلى الأسفل فذلـك ليـس من فعل الإنسـان، وإنما هو مـن فعل الله، بمعنـى أن الله طبع الحجر أن يتحـرك إذا دفعه دافع، فصـلاة الإنسان وصيامه، كلهـا حركاته، أما الألوان والطعـوم فليسـت من فعله لأنها ليسـت حركاته، وقد ميـز الإسكافي البغـدادي بين نوعين مـن الأفعال التي تصدر عن الإنسان:

١- الفعـل الـذي يصدر عن الإنسـان كفعلٍ مباشرٍ لـه، وهو فعـل يحتاج في كل جزء منـه إلى تحديد وعزم وقصد إليه وإرادة له .

٢-أما الفعـل المتولد فهو ينشأ عـن فعلنا المباشر، ويخرج عن مرادنا، ولا يمكننا تركه أو استدراكه.

فالإسـكافي يحـدّد مسؤوليـة الإنسـان عـن الفعل الإنسـاني المباشـر باعتبـاره فعـلاً إراديًـا، مـن خلال القصـد الإرادي للإنسان وعزمـه على تنفيذه، وهو ما أشـار إليـه العلاف أنه من فعله الذاتـي، وهو الحركة الذاتيـة في تفسير النظام، أمـا الفعل المتولد الذي ينشأ دون إرادة وبغير قصد إليه ولا قدرة للإنسان في تركه

٢٢- [سورة الملك: الآية ٣].
٢٣- [سورة السجدة: الآية ٧].
٢٤- [سورة البقرة: الآية ٢٨٦].
٢٥- [سورة غافر: الآية ٣١].
٢٦- [سورة يونس: الآية ٤٤].
٢٧- الخياط، الانتصار، مرجع سابق، ص ٦٢ .

أو تحاشيه، فهو من فعل الله، خارج حدود المسؤولية الإنسانية [٢٨].

وقد ميّز القاضي بين الفعل المتولد الصادر عن إرادة الإنسان الواعية، وبين الفعل المتولد الصادر عن الساهي الذي لا يستحق عليه ذمًا أو مدحًا، فإن تحرزه من الفعل وهو ساهٍ يتعذر، وليس كذلك العالم، لأنه قد يمكنه التحرز منه، بألّا يفعل سببه إذا كان عالمًا ذلك الفعل الذي يتولد عنه أو ظانًا به، فالفعل الإرادي هو الفعل الصادر عن اختيار مسؤول، وكل ما يمكن الاحتياطُ منه، والتحكم فيه، وكل ما يمكن منع نتيجته أي الفعل المتولد من حدوثه، فالإنسان مسؤول عن الفعل الذي قام به عن روية، وبهذا الاتجاه ناقش القاضي مسؤولية الإنسان عن فعله الشرير في نطاق رده على الجبرية التي أنكرت أن يضاف الفعل المتولد للإنسان، الأمر الذي ينتج عن إنكارها، إضافة كافة المتولدات إلى الله سواء كانت هذه الإضافة لخلق الله للأفعال المتولدة، أو لإيجاد المحل المولد للفعل المتولد، وفي هذه الحالة تكون المتولدات من خلق الله[٢٩].

خامسًا: حدود مسؤولية الإنسان عن فعله:

بقي أن نشير لمسألة حدود مسؤولية أفعال الإنسان الشريرة، وهل يجوز أن يتعدى الفعل الشرير حدود فاعله، فنعاقب أسرته وابنه على فعل الشر الذي ارتكبه هو، أي هل يمكن أن يتعدى حدود الجزاء على الشر مجال فاعله؟ كما فعل الخوارج من قبل حينما قتلوا أولاد من خالفوهم في الرأي لاعتقادهم بكفرهم، فالكافر لا يلد إلا كافرًا، كما قال الله تعالى: ﴿**ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارا**﴾[٣٠]؟

يذهب المعتزلة إلى تحريم ومعاقبة الولد بجريرة أبيه أو الزوجة بفعل زوجها، لأنه ظلم وسفه، ويتعالى الله عن ذلك، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[٣١]، وقال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾[٣٢]، والطفل لم تبعث إليه الرسل، وقال صلى الله عليه وسلم: رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، ومن رفع عنه القلم لا ذنب له فيعذب عليه، ويؤولون الآية التي استشهد بها الخوارج ﴿**ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارا**﴾[٣٣] بقولهم: إن الله عز وجل أراد أنهم لا يلدون إلا من إذا بلغ صار فاجرًا كفارًا، ولم يرد أنه في حال ما يولد فإنه سيكون بهذه الصفة[٣٤].

كذلك فإن حدود الفعل الإنساني ترتبط بقوله، ﴿**لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرًا**﴾[٣٥]، ولو جاز أن يكلفهم ما لا يطيقون لجاز أن يكلف العاجز العَدْوَ، والضريرَ نَقْطَ المصاحف على وجه الصواب، ويكلفنا صعود السطح من غير سلم، وكل ذلك واضح البطلان، فثبت أنه لا يكلف عباده إلا ما يقدرون عليه، وأن الكافر قادر على الإيمان والكفر، وإنما أتى فعل الكفر، لأن الفعل من اختياره، من قبل نفسه، فلو أعطينا الرجل سكينًا ليستعمله في منافعه، فقتل به رجلًا، فالذي أعطاه السكين قد أحسن إليه، وهو المسيء إلى نفسه من

٢٨- الأشعري، مقالات الإسلاميين، أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تصحيح هلموت ريتر، دار نشر فرانز شتايز بفيسبادن،ألمانيا، طبعة ثالثة، ١٩٨٠ ، ص ٨٤ – ٨٥ .

٢٩- القاضي عبد الجبار، المجموع في المحيط، وتصحيح الأب بن يوسف، بن اليسوعي، بيروت، ١٩٦٢، ص ٩٤، ٩٥، ٣٨٧، ٣٩٨ .

٣٠- [سورة نوح: الآية ٢٧].

٣١- [سورة فاطر: الآية ١٨].

٣٢- [سورة الإسراء: الآية ١٥].

٣٣- [سورة نوح: الآية ٢٧].

٣٤-القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٨، ص ٨١ – ٨٣.

٣٥- [سورة الطلاق: الآية ٧].

حيث استعمل السكين فيما يضره، ولم يستعمله فيما ينفعه، كذلك الكافر: أعطاه الله القدرة، واستعملها في هلاكه ولم يستعملها فيما ينفعه، فهو الذي أهلك نفسه وأساء إليها[٣٦]، ومما يدل على أن الله لا يكلف العبد ما لا يطيقه أنه لا يجوز أن يأمر من لا مال له بالزكاة، لأن الزكاة لا تصح بلا مال، وكذلك لا يأمر الكافر بالإيمان، وهو لا يقدر عليه [٣٧]، وقد قال عز وجل: ﴿**وما الله يريد ظلمًا للعالمين**﴾[٣٨] وقال بعد ما ذكر المعاصي، ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهًا**﴾[٣٩].

وأيضًا لو جاز أن يقال إن الله عز وجل يريد المعاصي، لجاز أن يقال هو يحبها ويرضاها ويختارها، وقد أبان الله ذلك بقوله ﴿**إن تكفروا فإن الله غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم**﴾[٤٠]، فإن الناس يقولون ما شاء الله كان، فيجب أن يكون كل كائن بمشيئة الله، وبذلك فقد حدد المعتزلة حدود مسؤولية الإنسان عن الشر الصادر عنه، فلم يجعلوه يتعدى إلى أولاد العاصي وزوجه، وكذلك حدوا شروط مسؤولية الإنسان عن عمله الشرير، بأن يكون قادرًا عليه ، فلا إثم على إنسان أجبر على فعل الشر .

سادسًا: نظريتا العوض واللطف عند المعتزلة:

يروي دستوفسكي في إحدى رواياته عن إقطاعي كان لديه كلبٌ مدلل رماه طفلٌ فقير بحجر، فقام حراس الإقطاعي – بأمرٍ من الإقطاعي – بأسر الطفل وتقديمه للكلب وجبةً شهيةً، ليخفف غضبه من الطفل الذي أزعج مرقده، كل ذلك حصل أمام نظر أمه التي تحطَّم قلبُها، وهنا يحقُّ لنا التساؤل: ما ذنب الطفل حتى يدفع ثمن كل هذا الظلم والشر الموجود في العالم، وكذلك ما ذنب الإنسان ذي الأخلاق النبيلة الذي يبتليه الله بالأمراض والأسقام، فما الذنب الذي اقترفته يداه حتى يعاقبه الله ويبتليه بكل هذه الشرور.

حاول المعتزلة – وهم أهل العدل والتوحيد – الدفاع عن عدل الله، ذلك أنه عز وجل لا يصدر عنه الشر ولا يعذب الآخرين ظلمًا وبهتانًا، ومن ابتلاه الله منهم فإن الله سيعوضهم يوم القيامة بمنافع كثيرة ستتضاعف له أضعافًا عديدة، ولولا ذلك لما حسن منه عز وجل أن يمرض البهائم والأطفال، تمامًا كما لا يحسن منا أن نستأجر أجيرًا ونرهقه طول يومه ولا نعطيه أجره .

إن هذه الأمراض – بحسب المعتزلة – فيها مصلحة لمن أصيب بها، لأن الرجل إذا مرض كان أقرب إلى أن يتقي المعاصي خوف النار، وأن يفعل الطاعات رغبة في الجنة، وقد قال الله تصديقًا لهذا المعنى الذي قال به المعتزلة: ﴿**أَوَلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون**﴾[٤١]، فالله هدى عباده إلى الدين فهناك من استجاب، وهناك لم يستجب فيبتليه الله لينبهه، أما المؤمن الذي ابتلاه الله بشر ظاهرٍ للناس على أنه كذلك، فهو في حقيقته خير سيعوضه الله عنه، ويرفع مقامه في الآخرة، ومن المعلوم في الدين أن الله يبتلي أنبياءه، فلا يعقل أن يقدم لهم الشر، ناهيك عن قاعدة أساسية أقرها المعتزلة: إن الله كله خير، ولا يأتي منه إلا الخير .

٣٦–القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، مرجع سابق، ص ٧٨ – ٧٩ .

٣٧–القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، مرجع سابق، ص ٧٩ .

٣٨– [سورة غافر: الآية ٣١].

٣٩– [سورة الإسراء: الآية ٣٨].

٤٠– [سورة الزّمر: الآية ٧].

٤١– [سورة التوبة، الآية ١٢].

فـالله عز وجـل يريد صلاحنا ومنافعنـا، فلا بد من أن يدلنـا ويبين لنـا طريق الرشد لنأتيـه وطريق الغي لنتوقـاه، فـإذا فعـل ذلـك ثـم كفـر العبد وعصـى فقد أسـاء إلى نفسه، وهلك عن بينـة، ومتى أطاع الله، فكل مـا يأتي مـن الله خير، وكل ما يلحقنـا من خير من نعم وعطايـا فهو من الله عز وجل، فهو الذي أعطانا القدرة والعافيـة والحواس، ورزقنا أنواع الـرزق، ثم كلفنا وأمرنـا ونهانا لكي نعبده وندخـل جنات النعيم، وهذا كمـال النعمـة في الدنيا والدين، فأما مـا يصل إلينا من جهـة غير الله عـز وجل من الهبـة والعطيـة والميراث، فكله من الله عز وجل .

ويمكـن القـول إن مفهـوم اللطـف عنـد المعتزلة مكمـلٌ لخيريـة الله في العوض، فبعـد أن عوض الله عبـاده عـن الشـرور التـي لحقـت بهم، يلطـف بهم بتقاديـره، فيبعـد عنهـم مـا قُـدر عليهم، فـالله يريد السعـادة والنفـع لعباده، فبعـث في الناس الأنبياء ليرشدهـم طريق الخير وليبعدهـم عن طريق الشر، فـالله لا يريد ظلمًـا للعالمين، فلا سبيـل عند القاضي عبد الجبـار لهداية الناس إلا باللطف الإلهي، إلا أن بشـر بن المعتمر كان ضد مبدأ اللزوم على الله، فالله يمنح الهداية لمن شاء من عباده، ولو كان فعل اللطف واجبًـا على الله لما وُجد في العـالم عاصٍ، وإذا تحقق مثل هذا الافتراض، فلا مبرر للثواب والعقاب، وإذا وجدنا في المكلفـين من عصى الله، ومن أطاعه، علمنا أن اللطف لا يجب عليه تعالى[٤٢].

تعقيب:

لا بـد من الإشـارة في نهاية بحثنـا إلى مجموعة من الحقائق التي توصلنا إليها:

– لقـد كان المعتزلـة روادًا لـكل مفكـرٍ نـادى بمسؤولية الإنسان عن الشر في العالم، وعدم تدخل الله في تقديـر الفعل الشرير الصادر عن الإنسان، فما كان من شر فمن العباد، وما كان خيرًا فمن الله، فالله لطيف بعباده.

– لقد ترتب على قول المعتزلة بمسؤولية الإنسان عـن أفعالهم قولهم بحرية الإنسان، وذلك من عدل الله، وقد اشتهر المعتزلة بأنهم أهل العدل، فكيف يعاقب الله الإنسان على فعله الشرير وقد تركه مقيدًا بقدره.

– إلا أن حريـة الإنسـان ومسؤوليتـه عن أفعاله لا تعنـي عدم تدخـل الله بأفعـال الإنسان، فـالله لطيفٌ بعبـاده، قـد يمنع عنهم الأذى ويلطف بهـم، إلا أن هذا الفعـل اللطيـف ليس واجبًا علـى الله، إنما يتلطف بمن شاء من عباده .

– لقـد جاءت نظرية المعتزلة بالعوض لتقطع على المتشككـين بعدل الله الطريق، فالله لا يسمح بالظلم بين عبـاده، فمن ظَلم سيحاسـب على ظلمـه، لأن الإنسان مسـؤول عـن أفعاله، ومن ظُلـم سيعوضـه الله خيرًا، ليتمنـى بعـد أن عوضه الله عـن مظلوميتـه، أن يختار دائمًا تلك المظلومية .

–إن إيمـان المعتزلـة بالحريـة لم يمنعهـم مـن الوسطية في طرحهم، فوضعوًا حدودًا لمسؤولية العبد علـى أفعالـه، فحـدوه بالإمكانيـات المتاحـة، وجعلوا المسؤولية فردية، فلا مسؤولية جماعية لأي فعلٍ مهما بلغ ضرره .

– إن الطريـق العقـلاني الـذي شقّـه المعتزلـة في فضـاء الثقافة العربيـة، سمحت لفيلسـوف العقلانية العربيـة (ابن رشد) بالظهـور، الذي استطاع الدفاع عـن أفكارها عبر هدم أفكار خصومهـا الأشاعرة، من خلال كتابه تهافت التهافت .

٤٢– القاضي، شرح الأصول الخمسة، مرجع سابق ٥٢٠ .

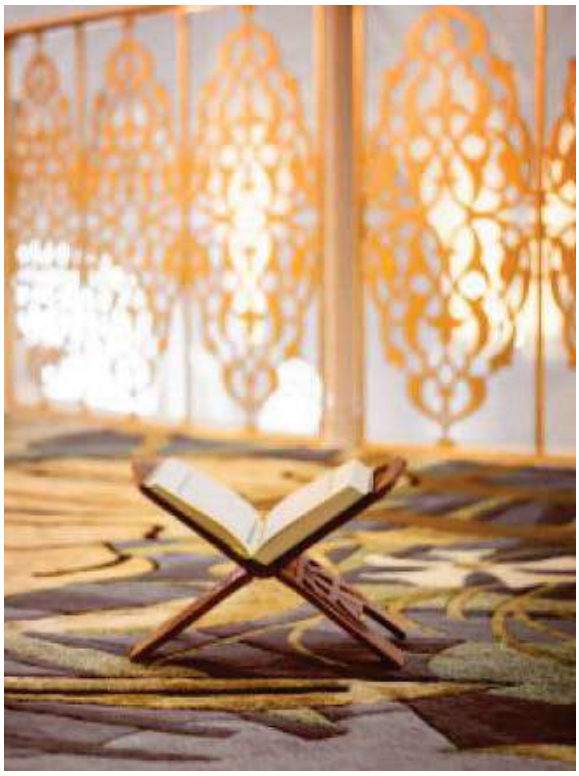

مراجع البحث

١-القرآن الكريم.

٢-ابن رشد، تهافت التهافت، القسم الثاني، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، طبعة ثالثة.

٣-أبو حامد الغزَّالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، طبعة ثامنة، ١٩٧٢ .

٤-أبو الحسين الخياط، الانتصار، تحقيق نيمبرج، أوراق شرقية، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٢ .

٥-أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تصحيح هلموت ريتر، دار نشر فرانز شتايز بفيسبادن، ألمانيا، طبعة ثالثة، ١٩٨٠.

٦-أحمد محمود صبحي: في علم الكلام ،مصر، طبعة ثانية، ١٩٧٦ .

٧-أرسطو، العبارة، منطق أرسطو، الجزء الأول، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت، وكالة المطبوعات الكويت، طبعة أولى، ١٩٨٠.

٨-الجاحظ، الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، القاهرة، ١٩٤٥.

٩-القاضي عبد الجبار: الأصول الخمسة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، طبعة أولى، ١٩٩٨ .

١٠- القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، طبعة ثامنة، ١٩٨٨.

١١- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر، طبعة ثالثة، ١٩٩٦.

١٢- القاضي عبد الجبار، المختصر في أصول الدين، ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، بيروت، طبعة ثامنة، ١٩٨٨ .

١٣- القاضي عبد الجبار، المجموع في المحيط، تصحيح الأب بن يوسف، بن اليسوعي، بيروت، ١٩٦٢ .

١٤- يمنى طريف الخولي، الحرية الإنسانية والعلم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٩٠.

المراجع الأجنبية

15- Chadwick . Henry ، Boethius m clarendon Press ، Oxford ، 1990.

16- Rist ،J . M . Stoic Philosophy، Cambridge university press ،Cambridge، London ،New york ،Melbourne1969 ، .

17- Rescher . Nicholas . Aversion of the master argument of Diodr ، the jornal of Philosophy ،vol: 63 ، 1966.

أحمد راتب بن فارس النّفّاخ

(١٣٤٧ - ١٤١٢ هـ) (١٩٢٨ - ١٩٩٢ م)

د. محمد عطا موعد*

الأستاذ الثقة العلّامة أحمد راتب بن فارس بن مرسي النّفّاخ، مجمعيّ موسوعيّ لغويّ نحويّ أديب محدّث وباحث ومدقق ومحقّق وأستاذ جامعي؛ ثقة وأَزْيَد.

فَشتْ سيرته في طلبة الجامعة والباحثين والمحققين، وعلمه الجمّ ما زال يتناقله الطلبة في الجامعات السوريّة خاصة، والعربيّة والإسلامية عامّة.

كانت ولادته ونشأته ووفاته في دمشق، وأغلب الظّنّ أنّ أسرته انتقلت من لبنان من مدينة بعلبك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلى دمشق، وهي أسرة تنحدر في الأصل من قرية الغارية الغربيّة من أعمال حوران، ويرجع نسبها إلى آل الحريري على ما ذكر للأستاذ الدكتور نبيل محمّد أبو عمشة، وللأستاذ الدكتور محمّد أحمد الدالي رحمه الله، وسواهما من طلبته المقرّبين إليه.

ويبدو أنّ سكنه بالقرب من مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي المعروف في حيّ من أحياء جبل دمشق (قاسيون)، وهو حيّ الصالحية، كان له أثر جيّد في تكوينه العلمي الأول.

فقد تفتّحت عيناه على علوم العربيّة والقرآن الكريم في الكُتّاب، والكُتّاب أو (الخُجَا)[1] – على ما كان يحلو لألسنة أهل الشام من وَسْمها – هي مدارس انتشرت في الشام ولبنان وفلسطين وسواها كانت تعلّم العربيّة وحفظ القرآن الكريم، إذ درجت الأجيال في القرن التاسع عشر وما قبله وما بعده حتى منتصف ستينيّات القرن الماضي على تلقي تلك العلوم فيها من أشياخ الشام الأفذاذ الثقات.

---

* أستاذ النّحْو والصَّرْف في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها – كلّيّة الآداب – جامعة دمشق.

١ – لفظ يطلق في الأصل على معلّم الصبيان في الكتّاب أو في المدارس، ثم غدا يُطلق أهل الشام على مدارس الكتّاب نفسها. وقد أدرك صاحب المقال شيئًا منها، إذْ كنتُ أراها صيفًا في بعض بيوتات دمشق.

وقد تلقّى الشيخ النّفّاخ علومه الأولى في كتّاب قريب من مسجد الشيخ محيي الدين في حيّ الصالحيّة نفسه.

ثم ولج مدرسة (الصالحية) الابتدائية، من أستاذته في الابتدائية: عبد الرزاق الباجقني ومحمود مهدي الإستانبولي.

وتابع تعليمه الثانوي في مدرسة (التجهيز الأولى) المعروفة باسم: جودة الهاشمي، ومن أساتذته في التجهيز سعيد الأفغاني وعادل العوا. ومن أبرز أشياخه فيها الشاعر المعروف محمّد البزم الذي كان يُثني على تلميذه النّفاخ لِمَا رأى منه من حدّة ذكاء وفطنة ونهم في التعلّم وعشق له شديد.

ولمّا جاز شهادة التعليم الثانوي التحق بقسم اللغة العربيّة في جامعة دمشق، فنهل من علماء أجلاء كالأُستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور أمجد الطرابلسي وسواهما من أعلام القسم في ذلك الزمن.

وأذكر مرّة أنّ أخي وصديقي د. نبيل أبو عمشة حدّثني أَنَّهُ التقى الأستاذ النَّفَّاخ بحضرة الدكتور الطرابلسي، بدا الأستاذ فيه غايةً في التأدّب بحضرة أستاذه الجليل، وذكّرته جلسة الأستاذ النّفّاخ بما يكون من طالب في المرحلة الابتدائية حين يجمعه لقاء بأستاذٍ له.

ومثل هذا يُبدي تواضع الشيخ النفّاخ، ويردّ عنه ما ادّعاه بعض الحَسَدَة مِن استكبار وعلوّ وتطاول، ويكشف عن نفسيّة الطفل التي كانت في جنباته، وهذا ما كان يلمسه كلّ من كان مقرّبًا منه.

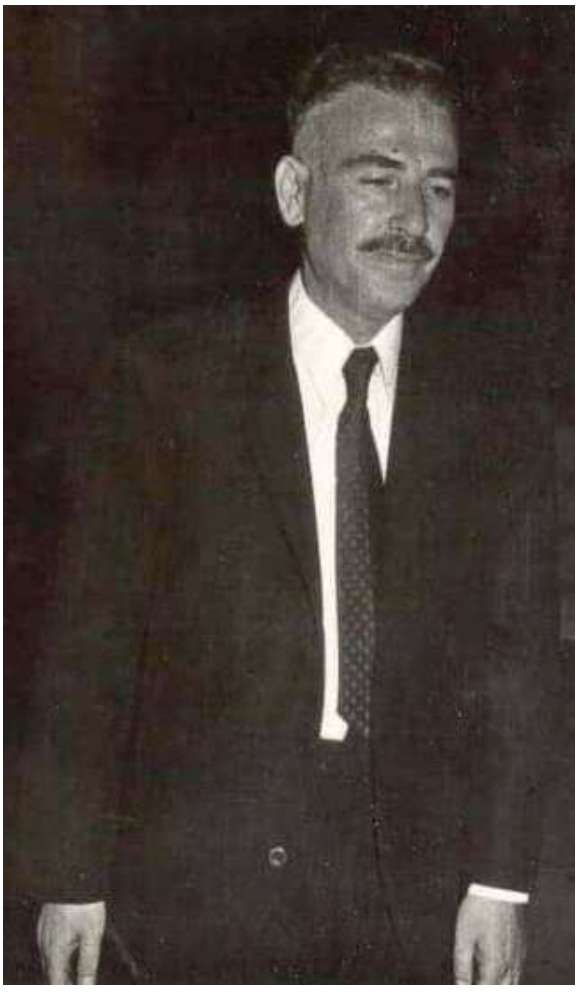

ومن شيوخه أيضًا الأستاذ محمد سليم الجندي.

نهل الشيخ علومًا شتّى من قسم اللغة العربية؛ ثم تخرّج فيه، وكان من شرط التخرّج آنذاك تقديم مشروع تخرّج، واجتياز امتحان شفوي، وكان له هذا، إذْ تقدّم بمشروع حول (الرافعي)، ولا بدّ أن ظهرت فيه براعته في المحاكمة والتتبع الدقيق والتقصي وشهوة التعقيب التي شُغف بها، وهي شهوة مضبوطة بالدليل والبرهان، فلا شطط ولا مبالغة ولا جور كما ادّعى بعض من اكتسب من علم الشيخ ثم اتّجر به، وشرع يستطيل به عليه.

وشغف الأستاذ بالعلم أفضى به أن يلتحق بكليّة التربية في جامعة دمشق، حيث تلقّى علوم التربية والتعليم من أشياخها الكبار في ذلك الوقت، من مثل: عبد الله عبد الدايم وسامي الدروبي وحافظ الجمالي وعادل العوا ونعيم الرفاعي وفاخر عاقل وقسطنطين زريق.. وسواهم من أعلام كليّة التربية، وأطاق أن ينال بعد عام من تخرّجه في قسم اللغة العربيّة شهادةَ أهليّة التعليم الثانوي، وعيّن بموجبها مدرّسًا للغة العربيّة في بعض مدارس حوران، وكان يسكن معه في البيت الأستاذ عبد الرحمن النّحلاوي أستاذ التربية وعلم النفس، وكان يدرّس معه في المدرسة الدكتور حسام الخطيب.

ولم يطل به المقام في التدريس الثانوي، فبعد أقلّ من عامين عُيّن معيدًا في كليّة الآداب بجامعة دمشق، ووافرُ الحظِّ في اكتساب لقب معيد في ذلك الوقت مَردودٌ إلى القسم نفسه؛ فمن توسّم فيه أساتذة القسم العلم والخلق نال ذلك، على أن يوفد خارج سورية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه.

وهذا ما كان للمعيد النابه، إذ أوفده القسم إلى جامعة القاهرة، فنال منها درجة الماجستير في الآداب بمرتبة الشرف الأولى عن موضوعه: (دراسة حياة الشاعر ابن الدُّمينة وشعره وعصره وتحقيق ديوانه).

وفي مصر لقي الشيخ محمود محمد شاكر، فأخذ عنه علمًا جمًّا، بعد ملازمته له في بيته.

وكان من شيوخه أيضًا الأستاذ أحمد محمد شاكر.

ولقي فيها أيضًا العلّامة عبد العزيز الميمني الذي أجازه أن يروي عنه الحديث من الكتب الستّة وغيرها، وقد التقى الميمنيَّ بالشام أيضًا غير مرة، وأجازه بدمشق، وكتب له الإجازة في أول صحيح البخاري، الطبعة السلطانية.

ومن أساتذته الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر.

وغدا الطريق مفتوحًا لأبعد مدى لتسجيل موضوع الدكتوراه.

وولع الأستاذ بعلوم القرآن الكريم حثّه على متابعة الدكتوراه في هذا الباب، فاصطفى بحثًا في القراءات القرآنية مع تحقيق كتاب معاني القراءات للأزهري.

وشرع يعمل في بحثه، غير أنّ ورعه الشديد في الخوض في باب القراءات القرآنية جعله يمضي سنتين لا يكاد يخطّ فيهما نصف صفحة، على ما صرّح لبعض طلبته فيما بعد، ومع هذا قدّم ما أنجزه –وهو القسم الأكبر من عمله– إلى مشرفه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رحمه الله، ثم قرر أن يغادر مصر إلى سورية، فقفل عائدًا إلى دمشق؛ وغضّ الطّرف عن العودة إلى مصر، وإتمام بحثه ثمّة.

وبذل مشرفه قُصارى جهده ليعود إلى مصر، وصرّح له أنّ ما انتهى إليه من بحثه يكفي لمنحه شهادة الدكتوراه، غير أن الأستاذ أصرّ على موقفه في عدم العودة إلى القاهرة، فما كان من مشرفه إلّا أن وسّط الشيخ محمود محمد شاكر لإقناعه؛ ولكنّ محاولاته باءت بالإخفاق.

ولمّا استنفد مشرفه وسعه في ذلك كتب إلى جامعة دمشق بأنّ المعيد النَّفّاخ قد انتهى من بحثه، وعليه أن يحضر إلى مصر لمناقشته، فلم يجدِ ذلك نفعًا.

واستقرّ المقام بالأستاذ في جامعة دمشق من سنة ١٩٦٢م، فتصدّى لتدريس علوم العربيّة وآدابها في المرحلة الجامعية الأولى: الأدب الجاهلي، والمصادر وقراءة كتاب قديم، إذ درّس جزءًا من كتاب الأمالي لأبي علي القالي، ودرّس مغني ابن هشام أيضًا، وعكف حين أنشئ قسم الدراسات العليا في قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق على التدريس فيه، فكانت له نظرات عميقة في قضايا القياس، سطّرت جلّها الدكتورة منى إلياس، ثم نشرتها في كتاب (القياس) المعروف.

واستمر في التدريس حتى سنة ١٩٧٩م.

وواصل الأستاذ الجليل متابعة طلبته في بيته، ولا سيَّما طلبة الدراسات العليا، حتى إنّ كثيرًا من موضوعاتهم سواء في الماجستير أم الدكتوراه كانت من اصطفائه، وأسندت مهمة الإشراف الفعلي على رسائلهم إليه، حتى إنّ أشياخ القسم على جمّ علمهم وسعته كانوا يرسلون طلابهم إليه، فيتابعهم على أنّهم طلبته؛ فإن أقرّ عملهم أقرّ مشرفوهم ذلك، وقدّموهم إلى لجان المناقشة، ولذا غدا بيته منارة من منارات العلم في الشام، يقصدها طلبته وبعض أصدقائه من أشياخ أقسام اللغة العربيّة في الشام وسواها.

وكان في بيتـه يكبّ على القراءة أو الإقراء فيه، فجعـل ينظـر في المظـانّ، نظـرة المتتبـع المتقصي، فيـدوّن مـا بـدا لـه في النصوص من تحريـف أو تصحيـف أو سقط، وما كان لـه ذلك لولا الوقوف علـى مصادرها وأصولهـا، وتتبعه أفضى به أبعد مـن هـذا؛ فإذا بـه يوهّـن رأي عـالم أو يضعّفه أو يقويـه، وكلّـه بالحجة والدليل، ومـن يتتبع كلامه في هـذا يخـال أنّ الرجـل قد غـدا في رجـال الطبقة الأولى مـن المتقدمـين، وفي هـذا السيـاق أذكـر أنّ أخي وصديقي الدكتور نبيل أبو عمشة قد حدّثني عـن مسألة تتبعهـا الشيخ انتهى به الـرأي إلى أنّ الأخفش الأوسط هو وَاهمٌ فيها!

ورجـل ينتهـي به الـرأي إلى مثل هـذا لا بدّ أنّه ارتقـى في مدارج من العلـم، فوصل إلى ما لم يصل إليها أقرانه مـن أهل العلم في عصره، ولذا لم يكن ثمّـة من مبالغة حين وسم الدكتور نبيل أبو عمشة ذهنه بأنه أقرب إلى ذهن الخليل بن أحمد.

ومـردّ هذا إلى النظـر العميق فيما كان يقرأ من مظـان، وثاقـب نظره تراه في تعقيباتـه على الكتب المحققـة التـي تنتهـي إليه، فـتراه يُسطّـر نفائس التعليقات عليها، وهـي تعليقات لم يكن ليضنّ بها على المحققين، وغايته هي النفع.

ومِـن نفائس تعاليقه وتعقيباتـه أنَّ الأستاذ قد كتب مقالةً في نقد الطّبعة الثّانية مِن رسالة الغفران

بتحقيق عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطئ) التي صدرت عام ١٩٧٥م في مجلة المجمع[٢] جاء فيها: «فأحببت أن أعرض وجهة نظري فيما توقفت [أي الدكتورة بنت الشاطئ] فيه، على العاملين في هذا المضمار ليدلي بوجهة نظره مَنْ عنّ له رأي فيه، عسى أن نصل إلى وجه الصواب في هذا كله...».

ثم يختم تعليقاته بقوله: «هذا ما عنّ لي من خواطر حول الطبعة الجديدة من رسالة الغفران، وإني لأشكر من رأى فيما أبديت خطأ، فردني إلى الصواب...».

وذكر الدكتور أبو عمشة أنّه كثيرًا ما ترى بين يديه كتابًا «أفسده محققه» لكثرة ما فيه من تصحيف وتحريف وسوء ضبط، فيدل طلابه على الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه الكلام، ويشرح لهم مراد المؤلف مستطردًا إلى مسائل في اللغة والنحو والعروض والقراءات وكأنه من علماء المئة الرابعة.

وكان من تمام إيمانه بنشر العلم وبثّه أنه وضع مكتبته المترعة بنفائس الكتب بين أيدي طلّابه وزائريه يبحثون فيها، ولم يكن يضنّ عليهم بإعارتها على ما رُزئ به من ضياع كثير من كتبه.

وإذا كانت مكتبة «الأستاذ» تغصّ بالنوادر والنفائس فإنّ أغلى ما فيها وأنفسه تلك التعليقات والتصحيحات وقصاصات الأوراق التي امتلأت بها كتبه، حتى غدت بعض الكتب التي علّق عليها مرجعه في معاودة كثيرٍ من المسائل.

٢- على أنّ الأستاذ كان قد كتب مقالة في مطبوعة رسالة الغفران الأولى التي ظهرت في مصر عام ١٩٥٠م لبنت الشاطئ، وقد أرسل كلمته إلى مجلة الكتاب المصرية، فنشرتها بعد أن تصرفت بها تصرفًا أفسدها.

وساق الأستاذ عمر عبسو أنّه مما يدلنا على إخلاصه وحبه للقرآن ولغته ما ذكره الدكتور عبد الأمير الورد أن الأستاذ العلامة السوري أحمد راتب النفاخ كان قد انتهى من تحقيق كتاب معاني القرآن للأخفش الأوسط، وكاد يدفع به إلى المطبعة، فلما علم أنّ عبد الأمير الورد يعمل على تحقيقه لنيل الدكتوراه توقّف عن ذلك، وكان ذلك عام ١٩٧٤م أو قبلها.

يقول الورد في المقدمة بعد شكر من ساعده في بحثه: «فإنني أجدني في حيرة كبيرة باحثًا عن اللفظ والتعبير اللذين يمكن لهما أن يفيا بمقدار ما أجده في نفسي، وينوء به لساني من شكر عميق، وتحية باذخة، وإقرار بالفضل عندما أذكر الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ الذي كان قد انتهى منذ زمن غير يسير من تحقيق كتاب (معاني القرآن) هذا، وكاد يدفع به إلى الطبع لولا أن طرق سمعه الكريم أن ثمة من يدرسه ويحققه رسالة للدكتوراه، فجَهِدَ في الاتصال بي، وأعلمني أنه تفضل ابتدارًا لا استجابة لالتماسي منه، فصرف النظر عما اعتزم ليفسح لي مجال الاستمرار في عملي العلمي، وهذا لعمري خلق وفضل يعز نظيرهما، ولا أنفكّ مدى العمر أسيرهما، فالحمد لله الذي دفع به وبسواه عني كثيرًا من العناء»[٣].

كان الأستاذ النفّاخ على خُلُق كريم وفيًّا لأصدقائه محبًا لإخوانه، شديد التعلّق بالمثل العليا والقيم الخلقية، قد أخذ نفسه بها أخذًا شديدًا، وكان صريحًا صُلْبًا في الحق، لم يعرف

٣- انظر: مقدّمة تحقيق معاني القرآن ص٧.

الهـوادة، ولم يرض عن المصانعـة، وفي هذا وحده – كمـا قيـل – تفسـير لمسلكـه وصلاتـه بالناس، وكان هـذا المسلك الصـارم سبب تنكّبـه حينًا بعد حـين عن أصدقاء خُيّل إليه أنهم دون ما كان يأمله فيهم، وكانت هـذه الصدمات تزيده تشبثًا بموقفه وإصـرارًا علـى منهجه وابتعـادًا عن دنيـا الناس وواقعهم وزُهْدًا فيما يرغبون فيه.

وقـد وصفـه بعض مَـنْ ترجمه بأنـه كان حاد المـزاج متقلبـه شديـد الهجـوم علـى خصومـه الكثيرين.

وهذا الوصف لا يخلو من مبالغة وإساءة؛ ومن يعـرف النفّاخ عن قرب يدرك بـلا عناء أنه صاحب مواقـف ثابتـة ظـل يجاهـر بهـا كل حياتـه، وأما حـدّة المزاج فمـا كان يظهرهـا إلا عنـد حديثه عن إحساسـه بالخطـر الذي يستشعـره محدقًا بأمته ومقومـات وجودهـا، وإلا عنـد حديثـه عـن أولئك الذيـن يتسترون وراء الألقـاب العلميّة، ويسيئون فيمـا ينشـرون إلى لغتهـم وأمتهم بقصـدٍ أو بغير قصد، وقلّما كان يسمّي واحدًا منهم.

ويكفي للدلالة على نقاء صحة مزاجه وسلامته أن علاقتـه بطلابـه الذين كانـوا يقصدونه في بيته هي علاقة الأب بأبنائه، وهي علاقة مفعمة بالحنان والمودة، ولاغرابـة أن يشوبها شيء من الصرامة حين يقتضي الأمر ذلك.

وفي هـذا أذكـر أنّ الدكتور أبـو عمشة قد كتب مقالـةً في تحقيـق ضرائر ابـن عصفـور[٤]، وكان يُطلع الأستاذ على ما يسطّره، فيشير عليه بنظرات علميـة عميقة دقيقـة، وقد استغـرق وقتًا طويلًا في كتابتهـا؛ لأن الأستـاذ كان في كل مـرّة يُطلعه فيها علـى ما أنجز يضيف إليهـا من ثاقب رؤيته وعمق تفكـيره وسعة علمـه، وهو مـا جعل الدكتـور أبو عمشـة يعيد كتابتها مرّات عدّة، وغاية الأستاذ من ذلـك هي تدريـب طالبه علـى نقـد النصوص، وقد صـرّح له بذلك، وهذه النظـرات العميقة كلّها بدت واضحة المعـالم بيّنة القسمـات في الحواشي التي سطّرها، وذُيِّلَتْ بعبارة: «من كلام أستاذنا العلّامة أحمد راتب النّفاخ».

وقـد سـاق الأخ والصديـق الأستـاذ الدكتـور حسـين جمعة كثيرًا من الأقـوال في الشيخ في مقال نفيس عـن الأستـاذ الجليـل، فسـاق أقباسًـا من إنسانيته، وتحـدّث عن مكانتـه العلميّة والفكرية، وعن منهج التحقيق الذي كان يعوّل عليه[٥].

وبعـد إحالـة الأستاذ علـى التقاعـد وزّع وقته بين عملـه في المجمع؛ إذ كان رئيـس لجنة الأصول وعضـوًا في لجنـة المجلّة، وبـين تصـدّره في منزله مستقبلًا طلابه وأصدقاءه، زاهدًا مترفعًا لا هم له إلا القراءة والإفادة.

لقـد أدّاه حبّـه للعربيـة وحرصـه علـى إظهار تراثهـا المكنون محقّقًا محـرّرًا أن يشقّ على نفسه حـين يتصدى للتأليـف أو التحقيق أو النقد، فكان يـروّي في عملـه ويتأنّـى في خطواتـه، لا يقبـل أول خاطر يهجـم عليه، بل يقلّب وجـوه النظر، ويأخذ نفسه بالتثبت، ويتشوّف إلى بلوغ الكمال.

٤– وعنوانها: ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي، وقد نشرت في مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، المجلد ٦١، ج١، ١٩٨٦م.

٥– انظـر: علاّمـة الشـام: أحمد راتـب النفّاخ، مجلّـة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، المجلد ٨٠، ج٢.

وتفرد «الأستاذ» بأسلوب في الكتابة متميّز، فيه من الإشراق والإبانة والعلوّ ما فيه، وكأنما هو صورة صادقة عن معالم شخصيته، ولئن كان أسلوبه يداني أساليب القدماء ولا سيما ابن جني، إنه سهلٌ واضحٌ يكاد يدرك مراميَه القارئ المتوسط.

آثاره:

أولًا – الكتب:

١ – النصوص الأدبية: (منهاج شهادة الثقافة العامة في كلية الآداب) بإشراف أحمد راتب النفاخ، مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٤هـ–١٩٥٥م.

٢– ديوان ابن الدمينة: صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تح. أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة – القاهرة ١٣٧٨هـ–١٩٥٩م.

٣ – مختارات من الشعر الجاهلي: اختارها وعلق عليها أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار الفتح– دمشق ١٣٨٦هـ–١٩٦٦م.

٤ – فهرس شواهد سيبويه: صنعة أحمد راتب النفاخ، دار الإرشاد – دار الأمانة / بيروت ١٣٨٩هـ – ١٩٧٠م.

٥ – كتاب القوافي: لأبي الحسن الأخفش، تح. أحمد راتب النفاخ، دار الأمانة– بيروت ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٦ – شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: لأبي أحمد العسكري ج١، تح. الدكتور السيد محمد يوسف، مراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ،

مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

ثانيًا – المقالات[٦]:

١ – رسالة الغفران: مجلة الكتاب المصرية، مج١٠، ج٦ حزيران / يونيه ١٩٥١م.

٢ – القصيدة الصورية: مجلة معهد المخطوطات العربية، مج٢، ج١ / ١٩٥٦م.

٣ – رسالة الغفران: مجلة المجمع بدمشق، مج٣٢، ج٤ / ١٩٥٧م، مج٣٣، ج١ / ١٩٥٨م.

٦– وهذه المقالات جمعَها بعض طلبة العلم، وهي تُبدي سعة علمه، ومدى تتبعه، ومنهج تفكيره، وقد همّ الدكتور أبو عمشة غير مرّة في إظهار ذلك–من خلالها– غير أنّه آثر أنْ يدع هذا لباحثٍ نابهٍ من طلبة الدراسات العليا؛ لعلّه يطيق ذلك الحمل.

٤ – المحتسب: مجلة المجمع بدمشق، مج٤٢، ج٤ / ١٩٦٧م، مج٤٣، ج١، ج٢ / ١٩٦٨م.

٥ – المعيار في أوزان الأشعار: مجلة معهد المخطوطات العربية مج١٥، ج١ – ٢ / ١٩٦٩م.

٦ – نظرات في كتاب اللامات: مجلة العرب، س٥، ج١ / ١٩٧٠م.

٧ – كتاب القوافي لأبي الحسن الأخفش: مجلة المجمع بدمشق، مج٤٧، ج١ / ١٩٧٢م.

٨ – تعقيب على أرجوزة في العروض: مجلة المجمع بدمشق، مج٤٧، ج٤ / ١٩٧٢م.

٩ – كتاب إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج: مجلة المجمع بدمشق، مج٤٨، ج٤ / ١٩٧٣م، مج ٤٩، ج١ / ١٩٧٤م.

١٠ – كلمة في حفل استقباله يتحدث فيها عن سلفه الشيخ محمد بهجة البيطار: مجلة المجمع بدمشق، مج٥٣، ج١ / ١٩٧٤م.

١١ – حركة عين المضارع من (فَعَل): مجلة المجمع بدمشق، مج٥٧، ج٣ / ١٩٨٢م.

١٢ – كتاب المحبة لله سبحانه: تح. الأستاذ عبد الكريم زهور، مراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ، مجلة المجمع بدمشق مج٥٨، ج٤ / ١٩٨٣م، مج٥٩، ج١، ج٢، ج٣ / ١٩٨٤م.

١٣ – نظرات في نظرات: مجلة المجمع بدمشق، مج٥٩، ج٣ / ١٩٨٤م، مج٦٠، ج٢، ج٣ / ١٩٨٥م.

١٤ – فقيد المجمع الأستاذ عبد الكريم زهور: مجلة المجمع بدمشق، مج٦٠، ج٣ / ١٩٨٥م.

١٥ – استفتاء وجوابه: مجلة المجمع بدمشق، مج٦٠، ج٤ / ١٩٨٥م.

١٦ – أشعار اللصوص وأخبارهم: التعليقات الأستاذان أحمد راتب النفاخ وشاكر الفحام، مجلة المجمع بدمشق، مج٦٦، ج٤ / ١٩٩١م.

ومما لم ينشر من أعماله: «معاني القراءات» للأزهري، و«معاني القرآن» للأخفش، و«معجم لغة أبي العلاء»، و«الصاهل والشاحج» بالاشتراك مع أمجد الطرابلسي.

وفي مكتبته دفاتر كثيرة جدًا لم تتم فهرستها حتى اليوم.

توفي الشيخ النفّاخ في دمشق، ودفن في مقبرة الروضة على سفح جبل قاسيون مجاورًا ابن مالك (ت٦٧٢هـ)، ومن الطريف أن الأستاذ كان دائم الانتقاد له، ويتّهمه بأنه أفسد النحو[٧].

المراجع:

–العلاّمة أحمد راتب النّفّاخ، ريحانة الشام، للأستاذ عمر العبسو، رابطة أدباء الشام.

– علاّمة الشام: أحمد راتب النّفّاخ، د. حسين جمعة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، المجلد ٨٠، ج٢.

– من أعلام حي الصالحية، أحمد راتب النفاخ (١٩٢٠-١٩٩٢م)، د. نبيل محمّد أبو عمشة، الموسوعة العربية، دمشق.

–وثمّة ترجمات عدّة ترجمت الأستاذَ النّفّاخ سطّرها عدد من الباحثين، وهي لا تخفى على باحث في الشّابكة وسواها.

٧– على أنّ الدكتور أبو عمشة –وهو مِنْ أدرى النّاس بطبيعة الأستاذ– ذكر لي غير مرّة أن الأستاذ لو انتهى إليه جلّ تراث ابن مالك بما فيه كُتبه التي لم يُقدّر للأستاذ أن يراها، أو تلك الكتب التي نقلت آراء عنه لم يقف عليها الأستاذ لأنه لم يدركها= لكان له رأي آخر في ابن مالك يضع هذا العلم الفذّ في مكانة عالية، وهي مكانته التي يستحقّ، فالأستاذ يقول الحقّ ولو على نفسه، وكان من طبيعته التراجع عن رأيه إنْ عَرَض له رأي أدقّ وأظهر.

مِنْ سَقَطَاتِ العلماء

محمَّـــد قاســـم

السَّرِيُّ بن أحمد الكِنْدِيُّ المعروف بالرَّفَّاءِ المتوفَّى سنة نَيِّفٍ وستّين وثلاثمئة أحد أفذاذ الشُّعراء في العصر العَبَّاسِيّ؛ قال فيه أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثّعالبيّ النَّيْسَابوريّ المتوفَّى سنة ٤٢٩ هـ في كتابه الجهير «**يتيمة الدهر**»: «ولله دَرُّهُ ما أَعْذَبَ شِعْرَهُ، وأَصْفَى قَطْرَهُ، وأَعْجَبَ أَمْرَهُ! وقد أخرجتُ مِنْ شعره ما يُكتب على جبهة الدَّهر، ويُعَلَّقُ في كعبة الفكر، وكتبتُ منه محاسنَ ومُلَحًا، وبَدَائِعَ وطُرَفًا، كَأَنَّها أطواقُ الحمام، وصدورُ البُزَاةِ البِيْضِ، وأجنحةُ الطّواويس، وسوالفُ الغِزلان، ونُهُوْدُ العَذَارَى الحِسَانِ، وغَمَزَاتُ الحَدَقِ المِلَاحِ»اهـ

ثمّ ذكر الثَّعالبيُّ جملةً من أخباره إلى أَنْ قال:

«ولَمْ يَزَلِ السَّرِيُّ في ضَنَكٍ مِنَ العيش إلى أَنْ خَرَجَ إلى حَلَبَ، واتّصل بسيف الدَّولة، واستكثر مِنَ المدح له، فطَلَعَ سَعْدُهُ بَعْدَ الأُفُوْلِ، وبَعُدَ صِيْتُهُ بَعْدَ الخُمُوْلِ، وحَسُنَ مَوْقِعُ شعره عند الأمراءِ مِن بني حمدان ورؤساء الشَّام والعراق.

ولمَّا تُوُفِّيَ سَيْفُ الدَّولة وَرَدَ السَّرِيُّ بغداد، ومَدَحَ المهلَّبِيَّ الوزيرَ وغَيْرَهُ مِن الصُّدور، فارتفق بهم، وارتزق منهم، وحَسُنَتْ حالُهُ، وسار شعرُه في الآفاق، ونَظَمَ حاشيتَي الشَّامِ والعراقِ، وسَافَرَ كلامُهُ إلى خُرَاسَان وسائِرِ البُلْدَانِ»اهـ

ووقع في معجم الأدباء ٣ / ١٣٤٣: «ولمّا مات سيف الدَّولة انتقل السَّرِيُّ إلى بغداد، ومدح الوزيرَ المهلَّبِيَّ وغَيْرَهُ من الأعيان والصُّدور»اهـ

وفي وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٩: «وقصد سيف الدَّولة بن حَمْدَان بحلب، ومَدَحَهُ، وأقام عِنْدَهُ مدَّةً، ثمّ انتقل بعد وَفَاتِهِ إلى بغداد، ومدح الوزيرَ المهلَّبِيَّ وجماعةً مِنْ رؤسائها»اهـ

هذا سهوٌ مِن أَبي منصورٍ ومَنْ نَقَلَ عنه بلا محاكمةٍ ولا تدبُّرٍ، أعني ياقوتًا وابنَ خَلِّكَانَ؛ إِذْ تُوُفِّيَ سيفُ الدَّولة سنة ٣٥٦هـ (انظر وفيات الأعيان ٣ / ٤٠٥، وسقطتْ ترجمةُ سيف الدَّوْلة مِن مطبوعة مُعْجم الأُدباء كما سَقَطَ غيرُها كترجمة الثَّعالبيِّ)، وتُوُفِّيَ المهلَّبيُّ الوزيرُ أبو محمَّد الحسن بن محمَّد سنة ٣٥٢هـ (انظر معجم الأُدباء ٣ / ٩٧٦، ووفيات الأعيان ٢ / ١٢٧). فكيف يمدح السَّرِيُّ المهلَّبِيَّ الوزيرَ المتوفَّى سنة ٣٥٢هـ بَعْدَ وفاة سيف الدَّولة سنة ٣٥٦هـ؟!

والصَّحيح ما وقَعَ في الوافي ١٥ / ١٣٦: «وقَصَدَ – أَي السَّرِيّ – سيفَ الدَّوْلة بْنَ حَمْدَانَ، وأقام عندَه بحلب. ثمَّ وَقَعَ بَيْنَهُ وبين الخالديَّيْنِ هجاءٌ، وآل الأَمْرُ بينَهم إلى أَنْ قَطَعَ سيفُ الدَّولة رَسْمَهُ، فانْحَدَرَ إلى بغداد، ومدح الوزير المهلَّبِيَّ وغَيْرَهُ مِن الرُّؤَساء»اهـ

أَمَّ السَّرِيُّ بغداد قبل سنة ٣٥٢هـ بعد أَنْ أَوْغَرَ الخالديَّان بَلَدِيَّاهُ صَدْرَ سيفِ الدَّولة عليه، فقطع ما كان يُجريه له مِن رزق، فضاقت به حلب، وانحدر إلى بغداد أُمِّ الدُّنيا وسيّدة البلاد ينتجعُ الأُستاذ أَبا محمَّدٍ المهلَّبِيَّ الذي كان مجلسُهُ دوحة الشعراء وريحانة الكُتّاب.